



رحلة الربيع

فؤاد إسماعيل شاكر

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)


بسم الله الرحمن الرحيم


رحلة الربيع

ⓒ دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شاكر، فؤاد إسماعيل
رحلة الربيع ١٣٢٣- ١٣٩٢هـ - (١٩٠٥-١٩٧٣م)/ فؤاد إسماعيل شاكر؛
ط٣.- الرياض.
١٧٠ص ؛ ١٧×٢٤سم.
ردمك: ٨ -٢٢-٦٩٣-٩٩٦٠

١-السعودية-وصف رحلات ٢-أدب الرحلات أ- الجاسر، حمد بن محمد (مراجع)
ب-الدخيل، حمد بن ناصر (مراجع) ج-العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٠٤ ١٩/١٣٥٤

رقم الإيداع : ١٩/١٣٥٤
ردمك: ٨-٢٢-٦٩٣-٩٩٦٠

حقوق الطبع و النشر محفوظة لدارة الملك عبدالعزيز، ولايجوز طبع أي جزء من الكتاب أو نقله على أي هيئة دون موافقة كتابية من الناشر، إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس من مائتين واثنين وستين عاماً، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتداداً لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال . وصنعت بتوفيق - الله تعالى - وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد - التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً - لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- وأبناؤه من بعده ؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم ؛ وإيضاحاً لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة . وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة " مجموعة المكتبة المئوية " التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة .

وفي الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها ، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

هذا الكتاب

انطلاقاً من حرص دارة الملك عبدالعزيز على إعادة نشر عدد من المؤلفات السعودية التي نفدت و لها أهميتها و فائدتها العلمية، فقد اختارت كتاب الأستاذ فؤاد شاكر و عنوانه "رحلة الربيع" الذي تم نشره لأول مرة في عام (١٣٦٥هـ). و تأتي أهمية هذا الكتاب من موضوعه الذي يتناول رحلة المؤلف في عام ١٣٦٠هـ من مكة المكرمة إلى روضة الخفس ثم الخرج فالرياض. و تعد هذه الرحلة من الأعمال الأدبية المبكرة التي تمتزج فيها علوم الأدب و الفكر و الجغرافيا و التاريخ. و من أهم مراحل هذه الرحلة مقابلة المؤلف وأعضاء الرحلة الملك عبدالعزيز في روضة الخفس، ووصف تلك المقابلة و ما جرى فيها من أحاديث و مشاعر و مواقف عظيمة.

و لقد استفادت الدارة في هذه الطبعة من تعليقات علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر التي سبق أن دونها على الرحلة عندما طبعت لأول مرة، و لاشك أن هذه التعليقات والإضافات التي تفضل بها الشيخ الجاسر أسهمت في تحسين هذه الطبعة و تقديم معلومات جديدة، إضافة إلى تصحيح بعض ما ورد في الطبعة الأولى.

كما كان لمراجعة الدكتور حمد بن ناصر الدخيل هذه النسخة و التعليق عليها في بعض المواطن التي احتاجت إلى ذلك أكبر الأثر في إظهارها بهذه الصورة.

و نسأل الله أن ينفع بهذا العمل و الله الموفق.

الدارة

المؤلف

- ولد في مكة المكرمة عام ١٣٢٢هـ وتلقى تعليمه الابتدائي بها.
- سافر إلى القاهرة لإكمال دراسته، وكان مع أول بعثة سعودية عام ١٣٤٧هـ.
- تخصص في دراسة الأدب العربي وتلقى تعليمه بمصر.
- أصدر جريدة "الحرم" في القاهرة عام ١٣٤٩هـ، وظل يصدرها أربع سنوات.
- تسلم مهام رئاسة تحرير جريدة "صوت الحجاز" عام ١٣٥٠هـ لمدة سنة واحدة عاد بعدها للقاهرة حيث استأنف دراسته وأعماله الصحفية.
- تسلم رئاسة تحرير جريدة "أم القرى" في عام ١٣٥٥هـ، وظل بها مدة خمسة عشر عاماً، وتولى أثناء ذلك رئاسة تحرير جريدة "صوت الحجاز" جريدة "البلاد" السعودية فيما بعد من عام ١٣٥٧هـ حتى عام ١٣٦١هـ.
- في عام ١٣٦٤هـ عين رئيسا للتشريفات الملكية وبقي في منصبه حتى عام ١٣٧٢هـ.
- في عام ١٣٧٥هـ أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة "البلاد" السعودية.
- في عام ١٣٨٠هـ عمل رئيساً للتشريفات برابطة العالم الإسلامي، وفي عام ١٣٨٥هـ أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة "أخبار العالم الإسلامي".
- تقلد عدة أوسمة ونياشين من دول عربية شقيقة وأخرى صديقة.
- توفي سنة ١٣٩٢هـ.
- صدر له ١٧ كتاباً.

تصدير

لم يكن الغرض من وضع هذا الكتاب هو مجرد تسجيل حركات رحلتنا ، ولكن الغرض الذي استهدفناه هو تسجيل المعلومات المنطوية عليها هذه الرحلة فيما يمس الصالح العام عن قرب أو عن بعد.

لم نتوخّ في تأليف هذا الكتاب أن نحشو الأذهان بالمعلومات الجغرافية الجافة ، أو التاريخية المملة ، وإنما قصدنا أن نضع تحت نظر القراء الصور الواقعية عن حقيقة المشاهد التي هي في قلب نجد ، وما تقتضيه المناسبة المحلة من سباق أدبي، أو استطراد تاريخي، أو تحقيق اجتماعي، أو توضيح ذي شأن ومساس.

حرصنا على أن نعطي القراء صورة واضحة عن أمراء آل سعود ، ولكن الظروف العاجلة التي طبع فيها الكتاب لم تهيىء لنا تحقيق ما نبتغيه، مع أسباب أخرى ستتيسر في الظروف المقبلة إن شاء الله. وكذلك فيما يختص بالجانب التصويري في الكتاب، فقد كنا نحرص على أن نزينه بأكثر عدد ممكن من الصور ، ولكن نفس الأسباب المتقدمة هي التي حالت دون أداء هذا الواجب وتحقيق تلك الأمنية.

فؤاد شاكر



مقدّمة

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد:

يصف الاجتماعيون الأوربيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو -على الأصح- أمة مؤرخة.

ولا يعنون بذلك أنها أمة عريقة في التاريخ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الأجناس، وإنما يعنون أنها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الأنباء والروايات من السلف إلى الخلف بغير انقطاع في سلسلة الإسناد، وإنك إذا صادفت منها رجلاً في عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه إلى زمن بعيد، أو أن تعرف منه مالست تعرفه من كل فرد في كل أمة، ولو كان لها تاريخ مدّون مذكور.

وهذه مزية "مخصوصة" وليست بالمزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة. فإن من الأمم العريقة أمماً تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ إليه فإذا هو لا يذكرها بغير المراجعة والسؤال، وهذه هي الأمم التي توصف بأنها "حاضرية" مبتوتة أي تعيش فيما حضرها من الزمان، ولا تعني كثيراً ما بينها وبين الماضي من الأواصر في حياة الفرد أو حياة الجماعة.

تتجلى هذه الحقيقة في طريفة من الطرائف الممتعة التي رواها لنا الشاعر الأديب صاحب هذه الرحلة وهو يبحث عن منزل من المنازل التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته الخالدة حيث يقول:

فتوضحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رسمْها ... لما نسجْتها من جنوبٍ وشمألِ[1]

وقد دعاه إلى هذا البحث أنه اقترب من محلة تعرف باسم "مراة" وفي جوارها "التوضحية" وعندها غدير مشهور، وقيل له فيما قيل: إنما هي المقراة التي ذكرها حامل لواء الشعراء

---

[1] ديوان امرئ القيس: ٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر. ونسجتها: محت آثارها (الدخيل).

في الجاهلية. ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال: "ليس بكثير على أربعة عشر قرناً أن تلحس قافاً واحدة فتحرف الكلمة من مقرات إلى مراة وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات..."[٢]

إلا أنه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال: ".. التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت: لاشك أن هذا من أهل القرية. فبدأته بالسلام ثم قلت له: يارجل، أهذه قرية امرئ القيس الشاعر المعروف؟.. فتدفق كالبحرالزاخر يدلي إليّ بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتارخية المتصلة بهذه القرية. وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور، وأن الأول تميمي والآخر كندي، وأن امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين..".

قلت وأنا أقرأ هذه القصة لاجرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضرها، بل لاجرم أن تكون الرحلة كلها دليلاً على هذه الصفة الاجتماعية، فإنه لولا "الروح العربي" قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه في قلمه لما ظهر هذا "التاريخ العصري" في حيز الكتابة، ثم في حيز الطباعة. فما نخاله إلا صدى صادقاً يردد ما تجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة في أرجاء الجزيرة العربية، لأن الإله القدير الذي جعل الرمال سافية لا تبقى على أثر قد جعل سكان الرمال سجلاً واعياً لجميع الآثار، ولاسيما هذه الآثار الكبار، وهي تروي تاريخ الضيافة الملكية من الحجاز إلى نجد ومن نجد إلى الحجاز.

على أن الإله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الإسلامي كله سجلاً واعياً لأنباء هذين القطرين الخالدين، وأن يكون سكانهما بالأرواح والأذهان أضعاف من

---

(٢) لم يقل أحد أن مقراة هي مراة، وقد تابع العقاد المؤلف في هذا التخريج العجيب للكلمة ص ٦٣ من القلة والأعجب كتابتها بالتاء المفتوحة لتتفق مع مارآه. وقد رأيت شيئاً من هذا الفهم عند أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) في كتابه ملوك العرب: ١١٨/٢. وتوضح المقراة: موضعان في عالية نجد وليسا في إقليم اليمامة انظر: معجم اليمامة ٢٠٨/١ - ٢١١. لأن منازل امرئ القيس كانت هناك (الدخيل).

سكنوهما بالعيان والجثمان. فمن من قراء العربية لا يحسب بين ساكني الحجاز في عالم الروح والضمير؟ ومن منهم لا يحسب بين ساكني نجد في عالم العاطفة والخيال؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية. فكل من عرف وحي السماء في آيات القرآن، ووحي الطبيعة في ألسنة الشعراء فقد عاش في نجد والحجاز وشغله الحديث عنهما زمناً ولا يزال يشغله إلى الآن.

ولهذا نعتقد أن قراء العربية يطلعون على أنباء هذه الرحلة الحجازية النجدية، وينطلقون معها في أودية الخيال، ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم، ويعجبوا مع الصحراء لركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحداء. ويطمئنوا إلى تطور الزمن حين يستمعون إلى الملك العصامي العظامي وهو يقول: "إن بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأوربيين، ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم ومتعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الأخرى.

فقد مضت عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن، بالقول والعمل، لتقليد الأوربيين، ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعاً؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك.."

فالحق إذن أن الناس ليستمعون من هذه الكلمات آية من آيات "العروبة المؤرخة" أو العروبة التي تتصل فيها الأواصر بين حاضرها وماضيها، وتتغير مع الزمن، ولكنها لا تنقطع عن حقائقها ومعانيها، فالخير كل الخير مرهون بهذه الحكمة العملية الواضحة التي تحفظ لنا خير ماعندها وتعطينا من غيرنا خير ماعندهم: قوام بين القديم والحديث، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم.

والأستاذ فؤاد شاكر شاعر ناثر. فقد استعان في وصف الرحلة بمنظومه ومنثوره، واعتمد فيها على مسموعه ومنظوره، فأحسن الوصف إحساناً لا تغض منه هفوة هنا وهفوة هناك، وأجاد تصوير الركب والزملاء، كما أجاد تصوير الضيافة الملكية في القصور وفي الصحراء، وقد رأينا مصداق وصفه فيما نظرناه وسمعناه من حفاوة المليك الجليل، وصراحته، ودوام سهره على شؤون رعيته وشؤون ضيوفه، ونعتقد أن هذه الرحلة الملكية

الرياضية ستلقى من عناية الشعراء كل ما لقيته أنباء مكة والرياض في تاريخها القديم وتاريخها الحديث. فهي حلقة موصولة من حياة "أمة مؤرخة" نرجو أن تظل أبداً في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظائم الآثار وتشترك فيه من حفاوة السابقين واللاحقين، إلى ماشاء الله.

عباس محمود العقاد

أسباب وعوامل فـي تكوين الرحلة

لاجدل فـي أن أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على عباده، وأجدرها بالشكر والتقدير، نعمة الإسلام الذي هدى إليه عباده المخلصين. ومن أكبر نعم الله على المسلمين قاطبة، أن خلق لهم هذه البلاد الإسلامية المقدسة التي جعلها مثابة للناس وأمناً، فهي موئل الإسلام والمسلمين منذ عرف الإسلام إلى أن تقوم الساعة. ومن أهم مظاهر إكرامه جل وعلا لهذه البلاد، أن جعل قداستها مقرونة بمعجزة كبرى من لدنه، هـي معجزة الأمن من الخوف والجوع، وقد ذكر ذلك في كتابه العزيز.

وما سترونه هنا يضيف برهاناً جديداً على إكرام الله لهذه البلاد، فقد يعرف الجميع أن العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، اضطرم بحرب لا لين فيها ولا هوادة منذ أواخر عام ١٣٥٨هجرية، أي منذ شهر سبتمبر عام ١٩٣٩م.

فالعالم منذ هذه الفترة يعج بتلك الحرب الضروس، ويشتعل بذلك الأتون المتوهج بلا استثناء أية جهة من جهاته، ومن سلم من نار الحرب لم يأمن مغبة الجوع، وهناك من عانى الأمرّين، وكابد النارين.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر معجزته الكبرى على الإسلام، بتأمين هذه البلاد من الخوف والجوع، فسبق في علمه أن يسند أمر ولايتها إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، وأجرى على يدي جلالته رفاهيتها وسعادتها. ومازال هذا الملك الحكيم العادل الراشد ينتقل بأمور بلاده على ظهور السنين والأيام، انتقال حكمة ورشد، حتى وقعت الواقعة العالمية الهائلة، ونزلت بأمم الأرض وحكوماتها الكوارث والمحن، وإذا بجلالته يسير على ما ألهمه الله من السداد، وإذا ببلاده تتجنب على يديه الكوارث المدلهمة التي لم تسلم منها أمة في الأرض، فتمضي سنوات الحرب الضروس وهذه المملكة كأنها من العالم بمعزل ومنتأى، بينما هي من العالم كالقلادة من الجيد، بالنظر لموقعها الجغرافي، ولأهميتها الدينية والاقتصادية، وإذا بثمرات الأرض، وخيرات الدنيا، تجبى إليها بالغدوّ والآصال، بصورة منقطعة النظير بعد أن ظن ضعاف النفوس، الظنون والهواجس، عما افترضوه من المجاعة والهول لمستقبل هذه البلاد

في غضون سنوات هذه الحرب، خصوصاً وأن مما افترضوه أيضاً في أذهانهم، انقطاع ورود الحجاج ومواردهم المالية والاقتصادية عن المملكة خلال سنيّ الحرب، ومعنى ذلك، انقطاع الموارد المالية للبلاد، وانقطاع ورود الأقوات والحاجات، وفي ذلك الموت المحقق والبلاء المطبق.

ولكن ما الذي كان؟! وما علاقة ذلك بهذه الرحلة؟!

كان أن قيض الله لهذه البلاد، جلالة الملك عبدالعزيز، وكان أن ألهم جلالته الرشد في السير بسياسته إلى الطريق الذي جنب بلاده الشر والأخطار، وأمّن لها أمر معاشها من بين تلك العواصف العالمية الهوجاء والزوابع الخطيرة الجامحة، وزاد الله في نعمته على المملكة في تلك الظروف العالمية القاسية، فيسّر لها من لدنه رزقاً حسناً، بأن أمر ميازيب سمائه فتفتحت عن مياه غزيرة وأمطار متدفقة متدافعة هطلت على جميع أنحاء المملكة في ظروف متقاربة عادت على الحواضر والبوادي بالإنعاش والازدهار، وأحيت من الأرض مواتها، وأخصبت منها ماكان مجدباً.

ولقد كانت نجد وباديتها، هي الهدف الأول لذلك الخصب، إذ باكرها الغيث قبل غيرها من أجزاء المملكة، وبارك الله لها فيما آتاها فريعت ربيعاً نضراً زاهراً مشرقاً لم تعرفه منذ ربع قرن من الزمان، أي ما بين مدتي الحرب الماضية والحرب الحاضرة، وكان هذا الربيع النضر المشرق، هو السبب في القيام بهذه الرحلة.

والرخاء الذي ترتب عليه لهذه المملكة هو همزة الوصل بين الحديث عن الحرب، وبين الحديث عن هذه الرحلة، وفيه الجواب على التساؤل الذي قلناه في صدر هذا الكلام عن ماهيّة العلاقة ين الكلام عن الرحلة والكلام عن الحرب.

لقد كان الربيع في نجد، هو السبب في هذه الرحلة، ولقد بدئت الرحلة بالسفر إلى "ربيع نجد" وختمت بأعظم حادث في تاريخ هذه البلاد، وهو التثنية بربيع الحجاز، فقد هطلت أمطار على الحجاز وباديته، بل على المملكة كلها عقب انتهاء الرحلة مباشرة، جعلت منها كلها ربيعاً واحداً ناضراً مشرقاً أحيا من موات الأرض فيها ماشاء الله، وبعث من الخصوبة ما أراده سبحانه.

فكرة الرحلة

بينا فيما تقدم، بعض العوامل والأسباب التي أدت إلى تكوين الرحلة، ومن الإنصاف للواقع، أن نذكر بعض الشيء عن فكرة الرحلة.

فالمعروف أن حضرة صاحب الجلالة الملك، يفد إلى مكة في موسم الحج كل عام فيمضي فيها شهرين أو ثلاثة حيث يتشرف أعيان المملكة وغيرهم بالمثول بين يدي جلالته طيلة مدة إقامته في مكة، وكثيراً ما تجري في هذه المجالس أحاديث الإخلاص والولاء لجلالته من الحاضرين، فيحاول بعضهم في معرض الإعراب عن الولاء أن يتمنوا من جلالته الاستزادة من أيام إقامته في مكة، فيشكرهم على عواطف ولائهم وإخلاصهم. وقد حدث في مرة من تلك المرات، أن قال لهم جلالته:

"حقيقة لا تكفيني هذه المدة الوجيزة التي أقضيها معكم، وإنني لو استطعت لقضيت العام كله عندكم، ولكنكم تعرفون الحقيقة، وتعرفون الأسباب التي تحملني على تجزئة الوقت بين شقي المملكة، وأهم تلك الأسباب شغفي بالبادية التي نشأت بها وقضيت الشطر الأكبر من حياتي فيها، وإنما الواجب عليكم أن تزوروا نجداً وتتعرفوا إليها عن كثب، فلا أظنكم تعرفون عنها إلا الشيء القليل، وأنتم شعب واحد وأمة واحدة، وقد توفرت ولله الحمد أسباب المواصلات للانتقال والتزاور".

وبالطبع، فقد أمّن الحاضرون على كلام جلالته، وشكروا لجلالته هذا العطف الكريم، وأعربوا عن صدق رغبتهم في القيام بهذه الرحلة الممتعة في الجزء الذي هو من وطنهم بمثابة القلب، والذي لا يعرفون عنه أكثر مما قرأوا في كتب الأدب، والتاريخ. هذا هو بدء تكوين الفكرة عن الرحلة.

وقد غادر جلالته مكة بعد موسم الحج في عام ١٣٥٩هـ عائداً إلى نجد، وما كاد يستقر بجلالته المقام حتى أصدر أمره الكريم بتنظيم الرحلة وتنفيذها، ووكل ذلك إلى نائبه المحبوب حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نجل جلالته، وشبله الدارع[٣] في

---

(٣) الدارع: المتقدم في الشيء الداخل فيه (الدخيل).

العرين، وقد نهض الأمير فيصل المعظم بما عهد إليه، وأصدر أمره بإعداد ترتيباتها الخاصة، وكل ماهو متعلق بتنفيذها.

وقد شاءت المقادير الإلهية مشيئة لم تكن في الحسبان من قبل، وهي مشيئة أكسبت الرحلة حلة من البهاء والرواء، وساعدت إلى حد بعيد في إنجاحها وإبلاغها أقصى درجة من الروعة والرونق، ذلك أن جلالة الملك أصدر أمره الكريم فيما بعد بسفر سمو الأمير فيصل إلى الرياض لأسباب وإن لم تكن لها علاقة بالرحلة، إلا أنها صادفتها في طريقها، وكانت مصادفة سعيدة أن يسبق سموه الوفود إلى نجد بعد إصداره الأمر بتنفيذ الرحلة، كأنما هو والرحلة كانا على ميعاد. وكان هذا من يمن الطالع للرحلة، ومن أسعد المناسبات التي صادفتها.

وقد تفضل سموه حفظه الله، فشمل كاتب هذه السطور بعطفه السامي، فأمر بأن يكون عضواً في هذا الوفد، أو راحلاً في هذه الرحلة مع الراحلين، وهي عناية من سموه لاتكفي معها عبارات الشكر أو الثناء، ولا كلمات الإطراء والدعاء، لا لما انطوت عليه من تكريم لشخصي، ولكن لما انطوت عليه من تكريم الصفات التي عرفت بها وأهمها وأخصها، صفة الأديب والشاعر الصحفي والكاتب، فقد كرم الصحافة والأدب والشعر في شخصية أصغر ممثل لها، وهو تكريم اغتبط به كل منتسب إلى مهنة القلم في المملكة، من الشعراء والكتاب والصحفيين والأدباء، لأنه تكريم يحمل أسمى معاني التشريف.

وغادر الأمير فيصل مكة، يوم الإثنين ٢٨ محرم ١٣٦٠هـ إلى الرياض، بعد أن اتفق على أن تكون رحلة الوفد في يوم الإثنين الآتي الذي يقع في ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠هـ.

الشعور بالرحلة والشعور نحو الرحلة

من المهم، ومن الإنصاف، أن أتكلم عن الشعور بالرحلة، وعن الشعور نحو الرحلة، فما كان موضوع الرحلة بالحادث الهيّن، ولا هو بالشيء اليسير، بل هو على التحقيق كان الشغل الشاغل الذي استولى على الأذهان وصرفها عما سواها حيناً من الدهر، ولست أبالغ

إذا قلت: إنه الموضوع الذي أهم الجميع، وأشغل أذهانهم، واستولى على أفكارهم، وتسربت فيه الظنون إلى جميع المسارب، فقد كان ذلك حديث الأمة بأكملها، طيلة تلك الأيام التي كانت موضع الاستعداد، فأما الراسخون في العلم من المشتركين في الرحلة وغيرهم ممن يمت إليهم بصلة، فقد كانوا يعلمون أسبابها كما سردناه فيما تقدم، وأما غيرهم من الجمهور والعامة فقد كانوا يتناقلون ما يتخيلون، ويشيعون من الكلام والهواجس في غير تحفظ ويذهبون في التظنين شتى المذاهب فمن قائل: إنها لكذا!! ومن قائل: إنها لغير كذا!! شأن الجماهير الغفيرة في كل زمان ومكان!!.

وهذه نقطة تعمدنا الإشارة إليها لأنها حقيقة واقعة من حقائق تاريخ الرحلة، ولأنها تمثل ناحية من نواحي تفكير الجماعات في بعض جماهيرها العامة!!

هذا كلام عن الشعور نحو الرحلة قدمناه عن الشعور بالرحلة بما يختلف عن عنوانه، وقد غلبت في ذلك طبيعة الشاعر على الناثر، ففي الشعر تراعي -أحياناً- من بين علوم البديع، قاعدة اللف والنشر وما فيها من الترتيب والتشويش ونحن جارينا العكس وإن كان جائراً عن الأصل، وما كان بنا حاجة إلى هذا الاستطراد لولا استخدامه لتبرير هذا السياق!

أما الكلام عن الشعور بالرحلة، فذلك هو الكلام. الكلام عن الشعور بالرحلة، هو الكلام الذي يعرفه ويحسن التعبير عنه، كل من اشترك في الرحلة، وأنت لو فتشت سويداء قلب كل من اشترك فيها لوجدت فيه أو لوجدته هو بذاته، ألسنةً خافقةً، قد تحسن التعبير، أو قد يعجزها الإحسان في الإفصاح عن التعبير، لدقة ما كان يساورها من الشعور، وما كانت تحس به من مزيج هو الفرح الكامل، والسرور المطلق، والتطلع إلى أفق كله سعادة وهناء، للحاضر والمستقبل، للفرد والمجموع.

فأما من الناحية العامة، فقد كان شعور الأمة بأسرها هو هذا الشعور، وكان الناس فيما بينهم يتناقلون ذلك بموجة طاغية من البشر والسرور، حتى لكأن في كل بيت، وفي كل جارحة، وفي كل صدر، موجةً خاصةً من موجات المرح، تغمر صاحبها وتشيع فيه، وتظفر منه بمكنون نفسه، فتكاد تجعله تياهاً على سواه بما يشعره أنه اختص به

من ذلك السرور المتاح. ويرجع سبب ذلك إلى ماهو معروف عما سيلقاه الوفد من نعمة لقاء المليك في مقره، بما يشبه لقاء الأسد في عرينه، والحظوة باجتلاء طلعة الملك الذي هو أمل أمة ناهضة، ومناط رجاء شعب كامل، أضف إلى ذلك مافيه من جدّة ا لرحلة، وطرافة رؤية تلك الديار التي هي من قديم الزمن، موضع حديث الكتاب والشعراء في كل جيل وكل تاريخ وكل عصر.

أجل لقد كانت الأمة كلها، تود أن تكون وفد نفسها، لتمثل كيانها بكيانها، وقد كان كل فرد من أفرادها يود لو أتيحت له النقلة بين طرفة عين وانتباهتها فيكون واحداً من المسافرين. فأما وإن ذلك ليس في الإمكان، فقد حلّ محل ذلك الأمل الباسم شيوع الغبطة بين جميع الأفراد، حتى ليأخذ كل منهم نصيبه منها بما يكاد يشعره أنه عضو فيها. ولقد قضى أعضاء الرحلة مدة أسبوع في العاصمة يتهيأون فيه للسفر، وهم يتلقون التهاني الحارة المنبعثة من أعماق قلوب أصدقائهم ومحبيهم، وأهلهم وذوى عشيرتهم الأدنين وغير الأدنين، على ما قدره الله لهم من سعادة باختيارهم لتلك الرحلة الطريفة، وما يترتب عليها من تشرف بلقاء المليك، ومن ارتياد الديار التي هي بمثابة العرين للأسد، والتي هي بالنسبة لمن لم يعرفها كالغيب الغامض المجهول، وحسبك منها أنها الديار التي ربض فيها أسد هذه المملكة، واستشرف منها على إيقاع مملكته استشراف حاذق لبق.

ذلك بعد أن أشبعنا التاريخ وأسفار الأدب بالروايات المسلسلة عن نجد وما أحاطها به من المناظر والرؤى، وما نقل عنها من الطرف الرائعة والأحاديث الطلية الشهية! أفلا تكون الرحلة إلى نجد، مع ذلك كله، وبعد ذلك كله، مغرية جذابة!؟ إلى أقصى حدود الرغبة والإغراء.

هذا هو بعض الشعور العام، أما كاتب هذه السطور، فقد كان له شعور خاص لا يستطيع التعبير عنه إجمالاً إلا ما سيرد في السياق مبعثراً بالنظر لعوامل عديدة، أهمها صفته المشتركة التي قلنا عنها آنفاً: إنها صفة الشاعر والكاتب والصحفي، فقد كان غرامه بنجد، وشغفه ببادية نجد، مبعث اشتياق لا حدّ له من التشوف والحنين، فكثيراً ما قرأ في أقوال المتقدمين، وسير التاريخ، وسيرة نجد في القديم والحديث، وأخيراً سيرة

نجد في عصر آل سعود عامة، وفي عصر الملك عبدالعزيز مؤسس مجدها الحديث، ماكوّن في نفسه فكرة خاصة عن تلك الديار، وما أهاج في نفسه ذلك، الحنين.

فلا عجب بعد ذلك أن يكون سروره بالرحلة متناسباً مع ماهو في نفسه من الشوق إليها، وبكل ما يستطيع أن يشعر به من تكوين السرور، وشيوع الاغتباط.

هوامش على ما تقدم

قد تكون الهوامش على ظروف هذه الرحلة وملابساتها ومناسباتها كثيرة، وقد تأتي هذه الهوامش في مواضعها من السياق مبعثرة بين السطور، ولكن الشيء الذي يختص منها بهذا الفصل هو الذي تعمدنا إيراده هنا، ولذلك حصرنا حدود الهوامش على ما تقدم، كما هو واضح في العنوان!

كان أول رجل من كرام الرجال الذين لقيتهم، بعد صدور الإذن بالرحلة، حضرة صاحب السعادة "فلان!" وهو رجل لا أود ذكر أسمه هنا - لأنه جندي مجهول، وهو صديق كريم من كبار رجال الحكومة وقد عبر لي خير تعبير عن شعوره بصفة عامة نحو الرحلة ونحو فكرتها، وتمجيد ما تفضل به حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله من فكرة الرحلة ومؤازرتها بعطفه وكريم رعايته، وما أبداه حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل من تأييدها وشمولها بعطفه وجميل عنايته.

وفي اليوم التالي، اجتمعنا في منزل "سعادة الشيخ عباس قطان" أمين العاصمة -وقتذاك- وكان هناك سعادة السيد صالح شطا النائب الثاني لرئيس مجلس الشورى، وجرى الحديث مع "أمين العاصمة" وليس هناك حديث غير حديث الرحلة والمشتركين فيها وميعاد سفرها وما إلى ذلك من الشؤون المتعلقة بها، فقيل لسعادته: ألا تشترك في الرحلة؟ فقال: "إني شديد الرغبة في ذلك، ومن ذا الذي لا يرغب في رحلة يتشرف فيها بلثم يدي مولاي حضرة صاحب الجلالة الملك، ولكن العمل في أمانة العاصمة، وعلاقة أمانة العاصمة بالجماهير والأسواق والحاجيات[٤]، كل ذلك أو بعضه مما يدعوني إلى التفكير

---

(٤) الصحيح (والحاجات) (الدخيل).

في الاختيار بين السفر والإقامة!!" واسترسل الحديث، وكانت رغبة الزملاء شديدة في أن يكون الشيخ عباس قطان زميلا لهم في السفر لأسباب منها الأنس بشخصه، ومنها خبرته بشؤون الرحلات، كما أن رغبته هو الآخر كانت متجهة إلى السفر لأسباب أهما شرف المثول بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، ومنها مرافقة زملائه وكلهم صديق عزيز عليه، في رحلة شائقة طريفة كهذه الرحلة.

ولم ينفض المجلس، حتى كان الشيخ عباس قطان أمين العاصمة، عضواً في هذه الرحلة، ثم لم يلبث أن صار فيما بعد شيخها على الإطلاق.

وفي المساء، كان كاتب هذه السطور، يجلس في بيته إلى مكتبه مغتبطاً بما هو واقع من أمر الرحلة، فخطر في باله صديق من أكرم أصدقائه المحببين إلى نفسه، وهو سعادة الشيخ عبدالرؤوف الصبان عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف، -وقتذاك- ومدير الأوقاف وأمين العاصمة -الآن- وكان في جدة مقيماً منذ بضعة أيام للاستشفاء وتغيير الهواء، ولم تمض بضع دقائق حتى كان سلك الهاتف يصل بعضنا ببعض، وإذا بي وجهاً لوجه، - أو أذناً إلى أذن - أمام صديقي ذاك بواسطة سلك (التلفون).

وترى ماذا أقول لصديقي؟! لقد زففت إليه نبأ الرحلة ولم يكن يعلم عنها من قبل إلا الأنباء الإجمالية قبل أن تخرج فكرتها إلى حيز التنفيذ، وأخيراً أحطته بما وصل إليه أمر الرحلة وأعضائها، فكان شديد السرور بموضوعها وبإنجازه إلى حيز التنفيذ، وباختيار أعضائها، ولكن ماهي النتيجة من هذه المحادثة؟! وما هو بيت القصيد منها ؟! أما الهدف الذي قصدت إليه، فقد أجملته لصديقي في جملة مؤداها، إن هذه الرحلة لا يمكن أن تفوتك، وإن فرصتها لايمكن أن تعوض، فالبدار البدار، فأجابني بالتأمين على ذلك، وقال: "إنني مشترك فيها إن شاء الله، ولن يفوتني شرف الحظوة بها، وبعد يومين أكون بمكة إن شاء الله"، وانتهى الحديث بيننا بعد تأكيد مني وإجابة منه، وأن ما أراده الله من تحقيق رغبتي في مصاحبة صديق عزيز كهذا، في رحلة ممتعة كتلك، إذ حضر بعد يومين إلى مكة وانضم إلى عضوية الرحلة وزمالة أعضائها.

وكان لهذا الصديق فيما بعد خلال أيام الرحلة- شأن معي شخصياً سيأتي ذكره في محله، وشأن آخر مع حكومة جلالة الملك المعظم، سيأتي ذكره أيضاً في محله!

ومضت بضعة أيام، وانتقل موضوع الرحلة إلى المرحلة التالية، فقد عملت وزارة المالية من جانبها، أو بالأحرى سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية، الترتيبات اللازمة للتنفيذ، وكان لسعادة الشيخ محمد سرور الصبان المدير العام لوزارة المالية النصيب الأوفر في السهر على تأمين ذلك التنفيذ. وأخذ المسافرون أهبتهم للسفر بعد أن أعلن ميعادها وهو يوم الإثنين ٥ صفر ١٣٦٠هـ، وما كان هناك من الحديث المستساغ بين الناس في سرهم أو نجواهم إلا حديثها وموضوعها، خصوصاً أعضاء الوفد ومن يمت إليهم بالصلات من ذوي القربى ومن الأصدقاء والمحبين، كما عهد إلى مدير شركة السيارات الشيخ عبد الحي قزاز بأن يعد السيارات اللازمة لركوب أعضاء الوفد ومن معهم من التوابع والخدم والحاجات، فنهض بواجبه خير نهوض بعد أن علم بالساعة التي يتحرك فيها ذلك الموكب الحفيل.

وكان عدد السيارات التي خصصت للوفد كما يأتي: ثلاث سيارات صغيرة لركوب الأعضاء، وثلاث سيارات كبيرة لركوب التوابع والخدم وحمل الأثقال والأمتعة والأحمال.

أعضاء الوفد المكي

وانتهى تأليف الوفد الذي تقرر سفره من حضرات السادة الأفاضل الآتية أسماؤهم:

١ - السيد صالح شطا : النائب الثاني لرئيس مجلس الشورى.

٢ - الشريف شرف رضا: عضو مجلس الوكلاء.

٣ - عبدالرؤوف الصبان: عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف[٥].

---

(٥) شغل لاحقاً منصبي "أمين العاصمة" و "مدير الأوقاف العام".

٤ - الشيخ عبدالله الشيبي: عضو مجلس الشورى والسادن الثاني لبيت الله الحرام.

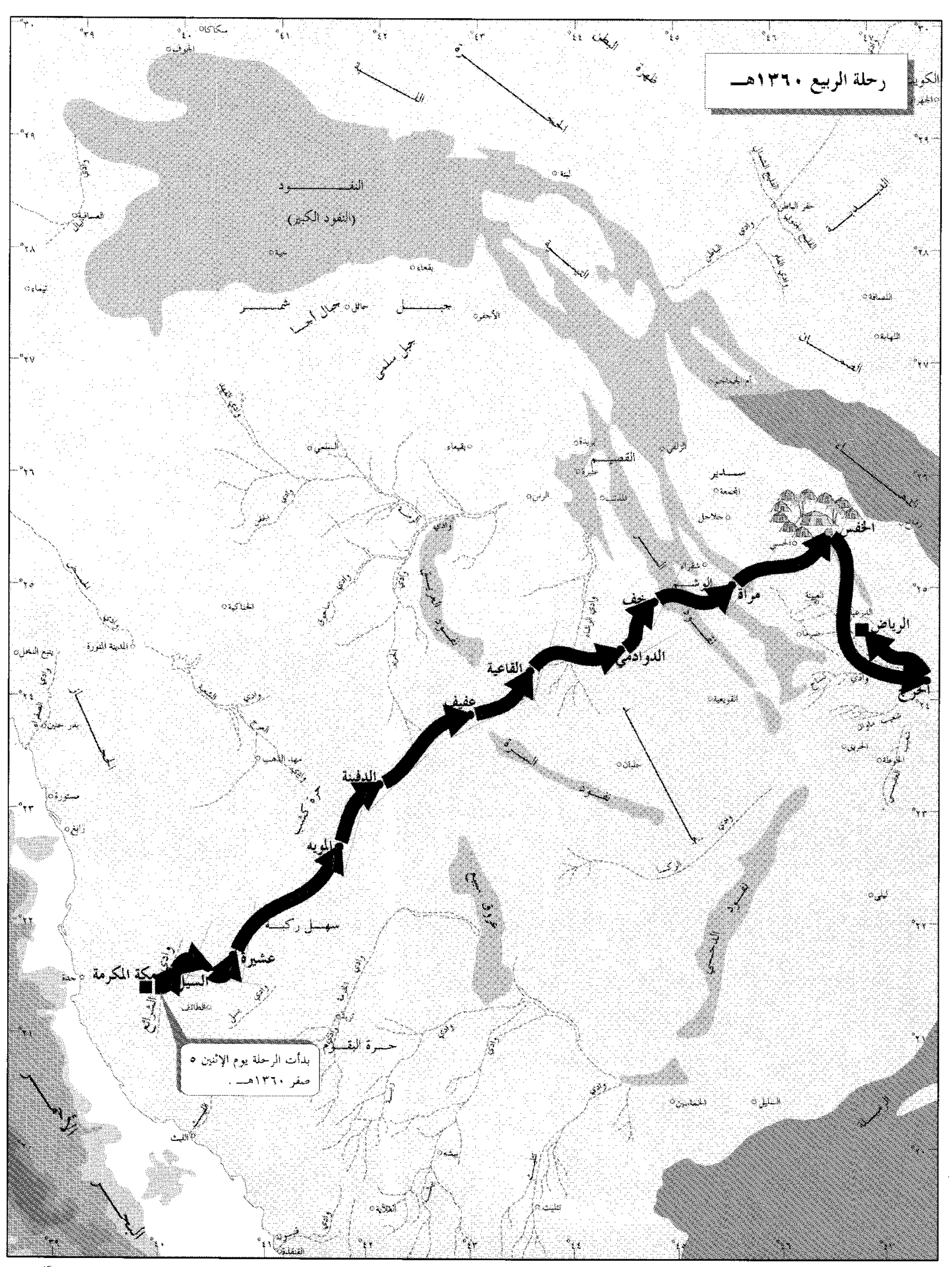
٥ - السيد عبدالوهاب: نائب الحرم ومدير الأوقاف (توفي إلى رحمة الله).

٦ - الشيخ عباس قطان: أمين العاصمة -حينذاك-

٧ - السيد عبيد مدني: عضو مجلس الشورى.

٨ - كاتب هذه السطور.

وقد رافق السيد صالح شطا أحد ذوي قرابته السيد صادق دحلان كما رافق الشيخ عباس قطان شقيقه عبدالرحمن قطان، ورافق الشيخ عبدالله الشيبي نجله زيني الشيبي.



تم تصميم وإنتاج هذه الخريطة بمركز نظم المعلومات الجغرافية بدارة الملك عبدالعزيز



ابتداء الرحلة - يوم السفر

أصبحت مكة منذ فجر يوم الإثنين ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠هـ على [٦] حركة غير عادية، وإذا كان هذا الإطلاق غير جائز فلا أقل من أن بضعة أحياء من أحياء مكة، ومئات من أهلها، قد أصبحوا في فجر ذلك اليوم إصباحاً غير عادي، ولم لا يكون ذلك كذلك وهذا الوفد المكي يزمع السفر في أصيل ذلك اليوم إلى نجد، وقد بيّنا فيما تقدم، الأهمية التي أحدثتها حركة ذلك السفر، سواء في نفوس المسافرين، أو في نفوس أهلهم وذوي قرابتهم الأدنين وغير الأدنين، ثم أليس هؤلاء الذين يزمعون السفر، وهم صفوة أعيان مكة يمتون بمختلف الصلات إلى كثير من ذوي القربى، ويمت بمختلف الصلات إليهم الكثير من ذوي القربى؟! ثم أليسوا هم أيضاً أصدقاء الكثير من الناس؟ وأليس الكثير من الناس أصدقاء لهم؟!

وإذا كان صحيحاً -وإنه لصحيح- فلا نكون أسرفنا في الإطلاق الذي قلنا فيه: إن مكة صحت ذلك اليوم من نومها صحواً غير عادي، تأهباً لحركة سفر أولئك المسافرين، وتأهباً لتوديعهم والحفاوة بهم قبل سفرهم.

أجل، كان يوم الإثنين ٥ صفر، يوماً تاريخياً مشهوداً في مكة للأسباب التي قدمناها آنفاً، وقد كان ذلك حقيقة واقعة شهدها الناس رأى العين، سواء منهم، من له صلة خاصة بأولئك أو من لم تربطه بهم غير وشيجة الوطن وجامعة الأخوة الإسلامية.

وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية أشخاص، غير ملحقيهم الخصوصيين الذين ذكرنا أسماءهم، وكان قد تقرر أن توزع السيارات بنسبة سيارة لكل ثلاثة من الأعضاء، وقد وقع توزيع السيارات على الأشخاص، بالصورة الآتية:

- سيارة لحضرات: السيد صالح شطا، والسيد عبدالوهاب نائب الحرم، والشيخ عباس قطان، ومعهم السيد صادق دحلان.

---

(٦) الأصوب (في) (الدخيل).



- سيارة لحضرات: الشيخ عبدالله الشيبي، والشيخ عبدالرؤوف الصبان، والسيد عبيد مدني، ومعهم زيني الشيبي.

- سيارة لحضرات: الشريف شرف رضا، والسيد علي فضل، وفؤاد شاكر، ومعهم عبدالرحمن قطان.

وبعد صلاة العصر كانت السيارات الصغيرة موزعة على بيوت ركابها، وقد اجتمع ركاب كل سيارة في بيت مختار من بيوت أحد الأعضاء، وكان الأعضاء قد أدوا صلاة العصر في المسجد الحرام، وطافوا بالبيت طواف الوداع، ونزلوا إلى بيت الشريف شرف رضا الواقع أمام باب المسجد في انتظار بقية الوفد للاجتماع والسفر بعد تقبل سلام المودعين الذين كانوا مزدحمين في المسجد وفي الشارع أمام البيت وفي داخل البيت.

ومن طريف ما وقع في تلك الساعة الرهيبة، ساعة السفر والوداع، أن بحث عن السيد عبدالوهاب نائب الحرم ومدير الأوقاف رحمه الله- فوجد في بيته مازال نائماً!! وهنا اهتزت أسلاك (التلفون) في غير جدوى، فذهبت الرسل إلى داره تسأل عنه وتستحثه على الصحو!! وتستنجزه موعد السفر، وكان الموكب متهيئاً للسفر، وكان المودعون قد غصت ببعضهم الطرقات، وبعضهم الآخر - وهو المهم - تجشم عناء الخروج من مكة إلى مراحل كثيرة من أجزاء الطريق، والوقت علاوة على أنه ضيق كل الضيق، فهو يزداد ضيقاً، لأن الليل وشيك الحلول، ولأن المودعين ينتظرون في قلب العاصمة وفي خارجها.. كل ذلك والسيد.. نائم، كأنما هو قد نسي أن وراءه اليوم سفراً احتشدت له مكة. ولقد أفلحت الرسل في صحوه، وهاهو ذا قد صحا[٧]، ولكن الاستعداد للسفر أين هو؟! وقد عجز الوفد عن الاتصال به (تليفونياً) للاطمئنان إلى صحوه أولاً، وإلى استكمال استعداده للسفر، فبادر رئيس الوفد إلى إنقاذ الموقف فركب سيارته وذهب بنفسه إليه، وعلم بأنه صحا، واستنجزه أمر السفر، فها هو ذا قد صحا، ولكن أمامه بعد ذلك؛ بعض حاجات يريد شراءها في ذلك الوقت ووراءه بعد ذلك زملاؤه ينتظرون على أحر من الجمر، ووراءه

---

(٧) يلاحظ تكرار الجملة (الدخيل).

غيرهم مئات من المودعين، بينهم صفوة رجال الدولة وصفوة المحبين والأصدقاء!! وهم بين مكة وبين[8] الشرايع.. ينتظرون ألا فانتظروا .. وإلا فلا تنتظروا...

وأخيراً وفق الله السيد صالح شطا إلى النجاح في مهمته وهي اكتناف السيد عبدالوهاب من منزله إلى السوق، ثم إلى المسجد حيث دخلوه من باب العتيق ثم إلى الطواف والخروج من باب الوداع، حيث كانت الأمة محتشدة، وحيث كانت الأعناق زائغة[9] والأبصار متطلعة، والهامات متشوفة متطاولة.. كل ذلك إلى ناحية المسجد، مشرئبة إلى ناحية القادم منه، إلى ناحية السيد عبدالوهاب.. وأخيراً، هاهو ذا قد وصل ولكنه وصل، في عبوسة[10] لاتسمح لأحد الحاضرين أن يسأله، لم هذا التأخير؟ وما أسبابه؟! والسيد إذا غضب، غضب معه الناس مجاملة لغضبه، وإذا ابتسم ابتسم معه الناس -أيضاً- مجاملة لابتسامه!!

إلى الشرايع

وبعد الفراغ من طواف الوداع، وتوديع المودعين تحرك الموكب قاصداً إلى "الشرايع"، وهي أول مرحلة من مراحل الطريق بعد مكة، على مسافة ٢٧ كيلو متراً منها. وفي الطريق إليها في المكان المعروف بالأبطح من أعالي مكة، التقى الوفد بنخبة من كبار رجال الدولة كانوا قد سبقونا إليه للتوديع وهم أصحاب السعادة الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان سمو الأمير فيصل المعظم، وسعادة الشيخ عبدالله الفضل نائب رئيس مجلس الشورى، وسعادة مهدي بك المصلح مدير الأمن العام وغيرهم. وقد ودعهم بعض الرفاق وسافر إلى الشرايع فوراً، وبقى البعض الآخر[11] مع حضرات هؤلاء المودعين لحظات قصيرة حيث كانت الشمس قد أتمت غروبها في جوف الصحراء، فوجبت الصلاة، وصلى

---

(٨) الصواب حذف (بين) اكتفاء بالواو (الدخيل).

(٩) الصواب أن يقول: الأعناق مشرئبة أو متطلعة، والأبصار متشوفة (الدخيل).

(١٠) الصحيح أن يقال: (عبوس لا يسمح) (الدخيل).

(١١) الصحيح (بعضهم الآخر) (الدخيل).

كاتب هذه السطور إماماً بالرفاق! ومن ثم جرى التوديع بين المسافرين والمقيمين، واستأنفنا المسير إلى الشرايع بعد لحظات وداع حارة رهيبة.

وكانت الشرايع تموج بمن فيها من كرام المودعين من مختلف طبقات الأهلين، يتقدمهم أعضاء مجلس الشورى، ومديروا الدوائر، وكبار الموظفين، وغيرهم من هيئات المطوفين والهيئات الأخرى، وكان رئيس هيئة المطوفين الشيخ محمد الهرساني قد نصب سرادقاً فخماً لاستقبال الوفد وتوديعه. وقد قضى الوفد مدة الثلاثين دقيقة التي قضاها في الشرايع مغموراً بعطف أولئك المودعين الذين ماخرجوا إلا بعواطف ملتهبة متحمسة، لغرض نبيل شع في نفوسهم فساقها من حيث تشعر أولا تشعر إلى النهوض بأداء واجبه، أجل لقد كانت صدور أولئك المودعين الكرام وهم يعدون بالمئات، تموج بما فيها من عاطفة حساسة، هي أسمى العواطف، ذلك بأن التوديع لم يكن هو وحده الذي بعث ذلك الرهط الكبير على الهجرة من مكة إلى ذلك المكان السحيق، وتجشم عناء الانتظار والسفر بعض يوم وبعض ليلة، ولكن كان هناك إلى جانب التوديع غرض أسمى قصدوا إليه، هو تحية المليك العظيم، وتحميل ا لوفد آيات الود والولاء لجلالة الملك الجالس على عرش من قلوب أمته.

أجل ذلك هو الغرض النبيل الذي بعث تلك الوفود المتجمعة على الهجرة وتكبد مشاق السفر.

والشرايع هذه، منزل قديم للمسافرين، إلى الطائف بطريق السيارات، وهي وادٍ فسيح فيه عيون ماء قديمة كانت في وقت من الأوقات المتقدمة جنة فيحاء بما تثمره من ثمر، وما يتضوع في أرباضها من أريج وزهر، ثم طغت عليها تلك العصور المتجنية، والأيام المتقلبة، فأحالتها إلى مايشبه الجدب، وأخيراً تنضر عهدها في عصر جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود بسبب كثرة السفر إلى الطائف -المصيف المعروف- فأقيمت فيها المقاهي وعمرت بالمسافرين بين مكة والطائف ونجد وغيرها من الجهات المترامية في شرق المملكة العربية السعودية، وتطور أمرها أخيراً في عهد حكومة صاحب الجلالة بأن أنشىء فيها مركز حكومي للشرطة، ومركز (للتليفون) ومركز للإسعاف النقلي تابع لشركة السيارات، وكثرت فيها حركة العمران، ثم زاد الله في عمرانها وصلاحها فتعهدها

معالي وزير المالية وشقيقه سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية فالتفت إلى عيونها المحطمة، ومياهها الغائرة في باطن الأرض، وجدبها الماحل، وابتعث من ذلك كله إصلاحاً جديداً شاملاً نهض بالشرايع فجعلها اليوم غيرها بالأمس، حيث تعهد بزراعة مساحات شاسعة من أراضيها، وبنى بها بعض المباني الفخمة وجلب إليها الفلاحة والماشية، فإذا بها لا تنتج محصولاً زراعياً فحسب، بل كان لعناية محصول مواشيها من الألبان ومشتقاتها من جبن وغيره بالطرق الفنية الحديثة والآلات، أوفى نصيب.

وهاهي ذي الشرايع، تتوافد محصولاتها في الصباح الباكر من كل يوم على مكة، فتساهم بنصيبها الوافر في تغذية العاصمة الملكية التي هي كما قال الله تعالى: "وادٍ غير ذي زرع"[١٢] فجزى الله خيراً كل من ساهم في رفاهية تلك البلاد المقدسة والوافدين عليها من المسلمين، وجزى الله خيراً كل من ساهم في تعمير الأرض، وإحياء مواتها بإذن الله.

وعلى من يريد أن يعرف الفرق بين ماكانت عليه الشرايع قبل أعوام قليلة خلت، وبين ماهي عليه اليوم، فليراجع كتاب منزل الوحي[١٣] في صفحة ٢٩٦ حيث يجد فيه مانصه:

"وتخطت السيارة محلة الشرايع في مضيق بين جبلين، وتابعت سيرها حتى بلغت الزيمة، ووقفت السيارة عند مستوقف النظر في تهامة كلها، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر.

"لقد رأينا بالشرايع أغراساً دعوها بستاناً لم نحفل به، أما هنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدراً من الجبال يسقي بساتين عدة ورأينا أشجار الموز تكظ بعض هذه البساتين والنفس مبتهجة بما رأت الماء والخضرة" انتهى.

أما الحال اليوم فهو على النقيض، إذ إن عمران الشرايع وازدهار خصوبتها جعلها تتقدم في الأهمية على الزيمة بمراحل كثيرة.

---

(١٢) سورة إبراهيم من الآية (٣٧).

(١٣) ألفه الدكتور محمد حسين هيكل (١٣٠٥- ١٣٧٦هـ = ١٨٨٨ ١٦٥٦م) ونشره عام ١٩٣٧م، ثم توالت طباعته بعد ذلك (الدخيل).

البدر والفجر - في الشرايع

هذه الأبيات قيلت في هذا المكان -الشرايع- في ليلة مقمرة من ليالي التمام، ونرى من الأمانة للتاريخ أن نضعها في موضعها المناسب:

أقبل الفجر ساحباً أذياله … أي معنى تفيض منه الجلاله"؟!

أقبل الفجر ضاحك السن يختال … ويبدي على النفوس اختياله

أيقظ الليل بدره فهو صاح … وأتى فجره، فوارى هلاله

أي نور من أنور الكون يسطيع … عليه صبراً، ويرجو نواله

حسبه أنه المسيّر بالشمس … ومن وصفه رسول الغزاله[14]

قيل بدر فقلت من أين للبدر جمال، … والصبح أبدى جماله

عبقري الألحان، تسمح فيه الـ … طيرَ تشدو وتستفيء ظلاله

❖❖❖❖

أقبل الفجرُ فالدجى مكفهرٌ … شاحبَ الوجه، ساحباً أذياله

ممعناً في الفرار كالفارس المهـ … زوم ألقى إلى الفرار عِقَاله

روعته هزيمة الكر والفر … فألوى ! فأين منه البساله!!

وتبدّت من الصباح تباشير … كحسناء أقبلت في غلاله

لو رأيت المرآة إذ تصف النور … فتبدى على سناها خياله

إنه الصبح قد تنفس في الليل … وما الليل بعد إلا ذباله!!

---

(١٤) الغزالة اسم من أسماء الشمس.

غمرتـــه أنـــواره البيـــض حتـــى هـــزل الليـــل ثـــم وارى هزالـــه

فـي السيل

بعد ذلك سار الموكب قاصداً إلى السيل، وهـو المرحلة التالية والوسطى، الواقعـة بـين الشـرايع وبـين [١٥]عشيرة المحطة الرئيسية[١٦] لـنزول الوفـد واستراحته، والمسـافة إليـها ٧٧ كيلو متراً من مكة .

وفـي الساعة الثالثة مساء وصل الموكب إلى السيل[١٧]، وهـو الـوادي الجميل الـذي يقـع فـي سطح مرتفع كبير يبتدئ من عشرين كيلو متراً في صعود اصطلح على تسمتيه "اليهيتاء" وهـو محاط بسلسلة تكون شبه استدارة من الجبال المحيطة به، وصار الوادي مصباً للأمطار المنهمرة على تلك الجبال ومسيلاً لها، ولذلك عرف باسم السيل، ذلك بأن مجرى ماء السيل لا يكاد ينقطع منه أكثر أ يام السنة، بل هـو فـي السنين الممطرة يستمر متصلاً في جريانه أكثر العام، وفيه قليل من المزارع والحدائق المثمرة، ولكن على بعد عشرات قليلة متفاوتة من الأميال توجد مزارع وحدائق أ خرى مثمرة أكثر منه اتساعاً وثمراً، ومن أبرز ثمره نوع من الثمر يسمى "رطب العقرب" واحدته تشبه الخيارة المكورة، ولعلها تنسب إلى وادي عقرب، وهو يقع إلى شرق الطايف بعد قليل من أم الحمض أو أم الحمد.

---

(١٥) لاضرروة هنا لظرف المكان (بين) إذ تقوم واو العاطفة مقامه، وتكرر هذا في الرحلة (الدخيل).

(١٦) الصحيح (الرئيسة) (الدخيل).

(١٧) لم يدرك المؤلف- رحمه الله- أن هذا الموضع المسمى (السيل) هو ماكان يعرف قديماً باسم (قرن المنازل) وأشار إلى أن كثيراً من الباحثين، ومنهم محمد حسين هيكل في كتابه "منزل الوحي" يراه هو موقع (سوق عكاظ) وأشار إلى أن له شأناً منذ أقدم العصور، بجودة المناخ، وتوسطه البادية، وكونه ملتقى طرق للسفر، إلى الطائف، ونجد، وشرقي المملكة وشمالها وجنوبها، وبعض أجزاء من تهامة.إن موقع (سوق عكاظ) قد عرف واتضح، ونشرت دراسات عنه كثيرة، فعرف أنه يقع بالتحديد في مفيض أودية الطائف عند اتصالها بصحراء (ركبة) ولا يتسع المقام للاسترسال في تحديد الموقع وكان من الملائم التعليق على هذا الوهم الذي وقع فيه المؤلف (الدخيل).

وبالنظر لأن الوادي المذكور يقع في نصف الطريق تقريباً بين مكة والطايف، وهو في منزلة وسطى من الارتفاع بالنسبة للطايف، وبالنسبة لجودة مناخه فقد اتخذه المسافرون محطاً لنزولهم وتبديل هوائهم واستراحتهم أثناء رحلتهم بين مكة والطايف من قديم الزمان، وكان إلى جانب ذلك مكتسباً أهميته من سبب آخر، هو أنه يحرم منه القادمون إلى مكة عن طريقه.

والسيل وادٍ جميل المناخ، وقد قيل عنه إنه منزل سوق عكاظ، وثبت على هذا الرأي كثير من الباحثين وتشكك فيه آخرون وقد عني سعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا في زيارته للبلاد المقدسة وفي كتابه منزل الوحي، عناية خاصة ببحث موضع هذا المحط المسمى السيل[١٨]، وما قيل من أنه منزل سوق عكاظ المشهور[١٩]، وهو وإن لم يقطع بذلك كغيره من الباحثين إلا أنه مما لاشك فيه أن هذا المنزل التاريخي له شأن منذ أقدم العصور في كونه مثابة للعرب في جاهليتهم وإسلامهم -فيما تقدم- كما له شأن اليوم جعله مميزاً بين منازل البادية في أنحاء المملكة العربية السعودية والسبب لذلك -في نظري- يرجع أولاً إلى جودة مناخ الوادي، وتوسطه البادية، ونسبة ارتفاعه المعقولة، وأنه ملتقى خطوط سفرية كثيراً كالطايف ونجد عموماً وغيرها، وبالجملة فهو ملتقى خطوط المسافرين المتنقلين من شرقي المملكة وشمالها الشرقي وجنوبها الشرقي أيضاً ويصل بين بعض أجزاء تهامة.

ولقد كان هذا المكان كغيره من أمكنة البادية -المهملة- سابقاً ولكن في عهد حكومة جلالة الملك، أنشىء فيه خط (تليفوني) وصله بمكة والطايف وغيرهما، وأقيمت فيه مظاهر للعمران كالأبنية والمقاهي والحوانيت الصغيرة، ولولا تشدد أهله وحرصهم على دفع المنافسة عنهم واسترحامهم ذلك من لدن صاحب الجلالة لعمر السيل إلى أكثر من ذلك، وبرغم هذه العقبة الموقوتة فلابد لهذا المكان -بجودة مناخه وحسن موقعه- أن يصارع أهله ويظفر بخذلانهم، ويتقدم عنهم إلى مراحل بعيدة من التطور والعمران، ذلك

---

(١٨) منزل الوحي: ٣١٧ وما بعدها (الدخيل).

(١٩) المرجع السابق: ٣٨٧ وما بعدها (الدخيل).

بأن مناخ السيل يغري على الإقامة والبهجة، لأن كثيراً من القاصدين إلى مصيف الطايف يكرهون على السفر إليه فراراً من حر مكة أو التماساً لجو الطايف، ولكن ارتفاع الطايف وهو يبلغ ستة آلاف قدم على الأقل يجعل بعض المرضى وذوى الأمزجة الخاصة يفضلون مكاناً كالسيل لا يبلغ إلى غير نصف هذا الرقم من الارتفاع.

إلى العشيرة[٢٠]

تقع عشيرة شمال الطائف على مسافة تزيد على ستين ميلاً منها، وهي شمال السيل. وواصل الموكب سفره من السيل إلى عشيرة والمسافة بينهما ٣٥ كيلو متراً، ومجموع المسافة بين مكة وعشيرة ١١٢ كيلو متراً، وقد استأنف الموكب سفره من السيل في الساعة الثالثة والربع تقريباً، فبلغ عشيرة في الساعة الرابعة والنصف ليلاً، وقد يرجع لوعورة هذا الجانب من الطريق، وللبطء الذي سرنا به اقتضاء لما يتطلبه الليل من هدوء، هذه بعض الأسباب التي جعلتنا نصل متأخرين إلى عشيرة بعض التأخير. ويكاد يكون هذا الجزء من الطريق أي الواقع بين السيل وعشيرة، هو أوعر أجزاء الطريق بين مكة والرياض، نظراً لأنه يقع في سفوح جبال متصلة، وأحياناً يصعّد إلى هضبات عالية شبه الجبال، إن لم تكن هي الجبال بعينها!

هذه العشيرة! وهذا نورها المضيء قد بدا فأربى على نور القمر الخافت الذي لم يزل وليداً في مهده، فنحن في الليلة السادسة من الشهر، والهلال مازال يتدرج من مهد الطفولة وقد اختفى أو هو في طريق الاختفاء وراء الجبال المحيطة بنا، وبعض الرفاق هوّم في سيارته من سهر الليل وتعب ذلك النهار المضني. ولكن ما كاد ضوء عشيرة يلوح من بعد، بعدأن كنا نترقب الوصول إليها، ونتطلّع إلى نورها حتى انتعشت في الرفاق روح المرح، وهبت في نفوسهم عاصفة النشاط، فتخابروا بين بعضهم، هذه عشيرة، هذا نورها، هل هو كذلك أم ضوء نور سيارة قادمة؟!

---

(٢٠) الصحيح (عشيرة) لأن (أل) لاتزاد في أسماء المواضع والأماكن إلا سماعاً، أي تكون أل ملحقة بها عند وضعها أول مرة، وقد كررها المؤلف بأل في عدة مواضع (الدخيل).

كلا بل هي عشيرة على التحقيق!! فالضوء ثابت لم يتحرك، وها نحن نقترب منه دون أن يقترب منا!! ولم يطل اللجاج في هذا التحقيق، حتى كنا وجهاً لوجه أمام تلك الهضبات العالية من الحرار السوداء[٢١]، وهي الميزة التي امتاز بها ذلك الوادي.

هي البشير الذي يبشر المسافر من مسافة بعيدة بأنه في عشيرة أو على مقربة منها، ذلك بأن حول عشيرة سلسلة من هضبات سود، تكاد تكون سلسلة محيطة بها من الحرار القائمة الصعبة المرتقى، ولو كنا قادمين إلى عشيرة في وضح النهار أو لو كان القمر كاملاً في سطوعه، لتسنى لنا أن نرى عشيرة من مسافة بعيدة مميزة بتلك الهضبات السود المرتفعة.

وكانت سيارات الحمل والأمتعة والخدم قد سبقتنا إلى عشيرة، فلم نبلغها، حتى كانت المضارب منصوبة، والسرج موقدة، والأرض مفروشة، والطعام مهيأ، ولا أبالغ إذا قلت إنه كان فيها من سبقنا إليها من كرام المودعين الذين أبت عليهم أريحيتهم ومروءتهم إلا أن يكون وداعهم لنا من ذلك المكان القصي السحيق! وكان لقاءً جميلاً من أولئك الأصحاب الذين فوجئنا بمرآهم، بعد أن كنا قد لقينا من سفرنا نصباً، وبعد أن كنا قد كابدنا منتهى التعب منذ فجر ذلك اليوم إلى مايقارب منتصف ليله! ولم نلبث أن زال من أجفاننا ذلك الخيال الذي كان يداعبها من قبل، خيال التهويم والإغفاء، ولم نلبث أن زال من أجسامنا ذلك التعب المضني الذي كنا نشعر به من قبل، أو قد خيل إلينا أنه زال! وألقينا بأنفسنا فوق الأرض الوثيرة بداخل الخيام، وانقسم الوفد إلى ثلاث خيام: ولكن اجتمع الجميع في خيمة واحدة، لثلاثة أشياء هي السمر، وتناول العشاء، وطلب الدفء، وكان البرد شديداً، شديداً إلى درجة مزعجة.

أجل، هذه هي عشيرة، وهي أول مرحلة ننزل للمبيت فيها من مراحل الطريق، وهي أول ليلة نبيت فيها غرباء عن أهلنا ومنازلنا، أجل هذا البرد الشديد القارس، ولئن جاز الاحتماء منه في داخل الخيمة واللجوء إلى الدفء تحت الفراش الوثير، فكيف الفرار منه

---

(٢١) الأصح (السود) حتى توافق الصفة الموصوف في الجمع (الدخيل).

في عمل لا ينجي فيه الفرار! فالوضوء أمر لابد منه للصلاة، وليس هناك من الأعذار ماهو متاح لاستبداله بالتيمم، وهاهو ذا طعام العشاء قد دنا وقد صف الخوان، ولو استذكرت أذهاننا ما سنلقى بعد تناوله من الماء في غسيل اليدين لأضربنا عن تناول الطعام، ولكففنا عن الأكل اتقاء المشقة التي عانيناها في الغسيل! وهاك شيء ثالث لاحيلة في احتماله، فاستعمال الماء من الخارج أمر إن جاز تلافيه وأمكن تداركه، فكيف يمكن تلافي استعمال الماء من الداخل، فنحن إذ نتناول الطعام، لا يمكن إغفال الحاجة إلى تناول شربة من الماء، وكيف السبيل إلى تناول شربة الماء، والمرء لا يكاد يستطيع لمس الإناء الذي فيه الماء من خارجه، فما بالك بما في داخله؟!

لقد كان البرد شديداً إلى هذه الدرجة وإلى أشد منها، فلا تظنن المبالغة فيما أقول، فنحن في طرف من وادي ركبة الذي هو من نجد، إن لم يكن هو بذاته نجد على التحقيق، ونحن على ارتفاع هائل من سطح البحر، ونحن بعد ذلك كله في صحراء وفي برودة ليل، وليس لنا ما يقينا من بيوت الحجارة الدافئة غير تلك الخيام التي إن منعت شيئاً لا تمنع أشياء! ومع ذلك فقد كان ائتناس الجماعة لا يعدله ائتناس، وكانت روح البشر والمرح والسرور، مرفرفة عليهم جميعاً إلى أقصى حد، والجميع يتبادلون أحاديث الود كإخوان الصفا على مائدة واحدة وفي خيمة واحدة، هي خيمة السمرالعذب الشهي الممتع المشتهى، فمن كان في حاجة إلى السمر والتزود من الفكاهات البريئة التي تبعث النشاط يظل في خيمة السمر، وإلا فهذا يختلف إلى خميته الخاصة ليأوي إلى فراشه قليلاً، أو يعمد إلى المطهى ليلهو مع من فيه قليلاً، أو إلى المقهى، أو إلى غيره، وكان قطب الرحى في خيمة السمر، وهو السيد عبدالوهاب نائب الحرم ومدير الأوقاف -رحمه الله- منه تسمع عقداً متصلاً من القصص والحكايات والأحاديث والنوادر والفكاهات والملح، وهذا العقد لا ينفرط منظومه أو أنه لا تستطيع أن تفض نظمه، ومهما شئت أن تسمع فلتسمع وأنت غير ملول، وسترى فيما بعد من سياق هذه الرحلة أنك مع رجل من طراز فذ عجيب، هو مجموعة من كل شيء، مجموعة من الجد والرزانة، مجموعة من الفكاهة والدعابة، مجموعة الأحاديث والأقاصيص، فإن شئته راوية داعية، وإن شئته حافظة واعية، لا تنسى ما مر بها من الحوادث منذ نصف قرن من الزمان.

وسجا الليل وانتصف ونحن من ذلك السمر الممتع في تزيد، وكلما ذكرنا البرد وشدته، وحاجة الواحد منا إلى الخروج خارج الخيمة ارتعدت فرائصنا فرقاً وإشفاقاً!! والويل كل الويل لمن يعرض له قضاء حاجة، فيضطر إلى أن يضرب في عرض تلك الصحراء الباردة، وإلى أن يتحمل من أذى الماء البارد مالا يطيق!

وانقضى ذلك الليل، وأصبحنا من الفجر على صوت مؤذن الركب وإمامه، وهو فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي السادن لبيت الله الحرام، وكابدنا من أذى الماء البارد وأذى البرد في الوضوء أشد مما كابدناه من برد الليل، ذلك إلى جانب برد الصباح، ولكن الله أكرم بنا وأعطف علينا من أن يتركنا نهباً لذلك الجو القارس، فها هي ذي الشمس تشرق علينا وتبعث من حرارة ضوئها إلينا بصيصاً من الدفء لا يكاد يذكر في أول الأمر، حتى تغلب سلطان الشمس على طراوة ذلك الجو البارد، فانتشرت حرارتها وهيمنت بسلطانها الواسع على أجواء تلك الصحراء فإذا نحن في نهار ضاح وجو مشمس مشرق كاد ينسينا رطوبة برد ذلك الليل الفائت. وخرجنا إلى الصحراء للتمتع بمنظرها الفاتن وجمالها الخلاب، وأخذنا في تسلق بعض هضابها وحرارتها السوداء المرتفعة مدة تلك الإصباحة الضاحية، ثم عدنا إلى الخيام حيث كان طعام الإفطار مهيأ فتناولناه بين أحاديث المرح والدعابات الحلوة البريئة.

وعاد مجلس السمر فالتأم من جديد في خيمة السمر، وتصدر السيد عبدالوهاب مكانه رحمه الله- من صدارة النادي، يفيض من أشهى الأحاديث وأعذب القصص وأغرب الروايات، وقد قضينا في تلك الندوة بضع ساعات حتى أذن مؤذن الظهر فصلينا فريضته، وكان طعام الغداء قد هيىء ومدت موائده في إحدى الخيمات، فبادرنا إليه جائعين خافتين!! ومن ثم أوينا إلى القيلولة، وعمدنا إلى الراحة فاضطجع كلٌ في فراشه. منهم من يطلب الراحة بالنوم، ومنهم من يطلب النشاط بالقراءة والاستذكار وتسلية الوقت حتى انقشعت الظهيرة وأذن مؤذن العصر. وبعد أداء الصلاة وبعد أن نشطت أجسامنا من

عقالها، عمد البعض[٢٢] إلى التنزه في الصحراء وحول الخيام ومنا من صعد إلى ربوة عالية من تلك الربى، ليضرب ببصره في كبد الصحراء.

ولقد كان من حزم الأمور في تلك الساعة أن صدرت أوامر قيادة الركب بجمع الأمتعة وحزمها، وجمع الخيام المنصوبة وتصفيفها في السيارات، وإعداد كل شيء للسفر، وفي تمام الساعة الحادية عشرة ونصف[٢٣]، أي قبل صلاة المغرب بنصف ساعة تحرك الموكب من العشيرة قاصداً إلى المويه، وهي المرحلة التي تلي العشيرة في طريق نجد.

إلى المويه

غادرنا العشيرة إلى المويه، وكان في صحبتنا النيران، الشمس والقمر، وكانت صحبتهما لنا قصيرة الأمد، وكان كل منهما في حالة يرثى لها، فالشمس هزيلة ناحلة، مصفرة ضامرة، ليس بينها وبين المغيب غير ثلاثين دقيقة، وقد كان ذلك، وانتهت صحبتها معنا بعد تلك الثلاثين من الدقائق. وأما القمر، فبرغم أنه كان مقبلاً على شبابه ويسير إلى اكتماله بخطى وئيدة متزنة، إلا أنه كان قد جاوز حدود الطفولة بقليل، فنحن في الليلة السابعة من الشهر، فهو إذاً في أقل من نصف كماله، وصحبته معنا لن تدوم إلى أكثر من نصف الليل، بل هي لاتكاد تبلغ ذلك، ولكنه على كل حال هو صديق السفر المؤنس، وهو خير صديق للمسافر في الليل، ولقد خلع هذا القمر الصغير على الصحراء جمالاً، كما خلعت الصحراء عليه جمالاً أيضاً، فكان كلاهما جزءاً متمماً للآخر في الجمال الذي نشاهده نحن ونحس بأنسه، وننعم به عن قرب، والكثير من الناس في الحواضر وفي العواصم، في غفلة عنه ولهو، يمر القمر من طفولته إلى اكتهاله، وهم عنه غافلون، بما حجبته أضواء المدنية الخلابة، عن عيونهم فحرمتهم حلاوة الاستمتاع بمثل هذا الجمال المنقطع النظير.

---

(٢٢) الصحيح (بعضنا)، لأن (أل) لا تدخل على بعض ومثلها (غير) (الدخيل).

(٢٣) صحتها (والنصف) (الدخيل).

إن الصحراء موحشة! وهي موحشة في رابعة النهار، فما بالك بها في الليل؟! إنها لاشك أشد إيحاشاً، ولكن الصحراء على وحشتها مصدر من مصادر الجمال الطبيعي الذي خلقه الله نوراً في أبصار عباده، وهي مصدر من مصادر توحيد الله الذي خلقه الله نوراً في بصائر عباده، فكما هي نور في البصر يبعث في النفس الجمال فهي كذلك نور في البصيرة يبعث القلب على التوحيد. فالصحراء التي هذه صفتها على مافيها من وحشة، مابالك بها والقمر مشرق على آفاقها وأرجائها، يبدد وحشتها ويبدلها بالأنس والضوء اللامع، الذي يكشف لك في جنح الليل البهيم عن الأبعاد الشاسعة المترامية عن يمينك وعن يسارك، فتمتع عينيك بما في هذا المرأى من مناظر خلابة، وتجلو بصرك في هذه الأبعاد من جمال، وتملأ بصيرتك بما في جمالها من يقين.

لقد كانت الرحلة من العشيرة إلى المويه في تلك الليلة، من أهنأ أجزاء الرحلة، وكانت الليلة من أجمل الليالي، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها، هذا المنظر الذي أسلفنا وصفه، وما سيأتي ذكره فيما يلي:

كانت المسافة من عشيرة إلى المويه ١٦٠ كيلو متراً، فهي إذا مرحلة طويلة وشاقة، وعلى الأخص، على من سيقطعها دفعة واحدة، فكثيراً ما قيل لنا إنها تقطع في ساعات أربع، ولكننا على الوصف الآنف الذكر مشينا مأخوذين بمناظر هذا الجمال في أرض فسيحة لا تبصر العين فيها حجر، فلا جبال ولا هضاب، وليس هناك غير خد فسيح لا أول له ولا آخر، وكانت سهولة الطريق إلى هذا الحد، مما زاد في جمال الرحلة وجمال الليلة، وجمال القمر، فكثيراً ما كنا نسير على سرعة الثمانين كيلو متراً في جوف ذلك الليل البهيم في غير خشية ولا وجل ولست أبالغ إذا قلت: إن هذا الجزء من الطريق، هو أسهلها وأيسرها على الإطلاق نظراً لفساحة رقعته وامتدادها في غير وعورة، فكانت مرحلة هنيئة ممتعة، لم نشعر فيها بنصب ولا تعب، إلى جانب المتعة الروحية التي غمرت نفوسنا طيلة اجتيازه.

وقضينا ثلاث ساعات سوية في سير متصل مستمر، بحيث لم نقف خلاله إلا دقائق معدودة لقضاء حاجة من حاجات السفر، كتناول شربة من الماء أو ما إلى ذلك، حتى إذا ما بلغت الساعة الثانية والنصف عربية[٢٤] وصلنا إلى المويه، وما أدراك ما المويه؟! وصلنا إلى قرية صغيرة بما فيها من عشاش وبيوت من الشعر، ولكنها كبيرة بما فيها من مظاهر العمران الفخمة الوثيرة، وتلك حسنة من حسنات هذا العهد السعودي الزاهر المشرق، فقد بنت حكومة جلالة الملك في ذلك المكان النائي المجهول، قصراً ملكياً فخماً لاستراحة حضرة صاحب الجلالة أثناء تنقله في السفر بين مكة والرياض، وشيدت إلى جانب ذلك القصر، استراحة حكومية مؤلفة من قصر فسيح الجنبات، بسيط المظهر، ولكنه كبير النفع عظيم الفائدة، بالنسبة لما اشتمل عليه من الغرف الفسيحة التي يتلقاها المسافر، أو هي تتلقى المسافر كشربة الماء للظمآن، أو كالواحة في الوادي المجدب المستعر، فالمسافر المقبل من بطن الصحراء يشوقه أن يلقى بعد نصبه مثل ذلك البناء الفخم يأوي إليه بعد جهد جهيد.

وصلنا إلى المويه في منتصف الساعة الثالثة ليلاً، ويممنا شطر القصر الذي تقع إلى يساره الاستراحة الحكومية، حيث يطلقون كلمة القصر على ذلك البناء جميعه، واستقبلنا بعض الأهلين الذين بعثت أنوار سياراتنا إلى نفوسهم البشرى بقدومنا ونحن في ذلك الموكب الحافل، وقيل لنا: إن هناك أمير القصر هو المعنيّ باستقبال الضيوف، فأرسلنا من استقدمه إلينا فرحب بنا أجمل ترحيب، وقادنا إلى أفخم مكان ينزل فيه الضيفان، فشكرنا له جميل عنايته، ونزل الموكب في ساحة القصر وأوينا جميعاً إلى غرفة فسيحة الجنبات مترامية الأطراف، صفت فيها أسرتنا، وجيء لنا بالطعام وتناولناه[٢٥] وأوينا[٢٦]

---

(٢٤) يريد بعربية التوقيت الغروبي، والكلمة شائعة في ذلك الوقت، ويلحظ أن الرحالة استخدم هذا التوقيت في رحلته (الدخيل).

(٢٥) التعبير الدقيق أن يقول: فتناولناه، لأن العطف بالفاء يفيد الترتيب مع الفورية، أما العطف بالواو فهو لمجرد الجمع بين المتعاطفين فقط (الدخيل).

(٢٦) الصواب أن يقول: ثم أوينا، لأن العطف بثم يفيد التراخي، أي إعطاء مهلة بين وقوع العطوف ووقوع المعطوف عليه (الدخيل).

بعد ذلك إلى الاستراحة في فرشنا نسمر ونتمتع بالأحاديث الشهية والملح الطريفة! وكانت سويعات ذقنا فيها لذة الراحة بعد التعب، ولذنا فيها من عراء الصحراء بنعمة القصر.

ولكن هناك مشكلة أشبه بمشكلة الليلة الماضية إن لم تزد عليها، تلك هي مشكلة البردّ فالبرد هنا كما هو في العشيرة أو أشد، والوضوء، وغسل اليدين بعد الطعام، واستعمال الماء أمر لا مندوحة عنه ولا مفر!! فما العمل إذاً ؟! لابد مما ليس منه بد، وهكذا قاسينا في الليل من برد الجو وبرد الماء الأمرّين، ولكنها مقاساة لذيذة، ومعاناة محببة مشتهاة، لأنها في طاعة الله، ولأن مرح الرحلة وأنسها أضفى عليها منتهى المرح ومنتهى الأنس، وعفا الله عن ذلك الأعرابي الذي ذكرت قصته في هذه المناسبة.

ذلك أن طارق بن زياد القائد العربي المعروف، صاحب الخطبة الرنانة المشهورة في فتح الأندلس، كان بين جنوده أعرابي أضر به البرد في تلك الأصقاع الباردة، وتشكى من أذى الماء البارد وقد وصل في فتحه وزحفه إلى جبل يقال له "شلير" فقال[٢٧]:

يحل لنا تركُ الصلاةِ بأرضهم	وشربُ الحميّا وهو شيءٌ محرّمُ
فراراً إلى نار السعير فإنها	أخف علينا من "شُلَيرٍ" وأرحمُ[٢٨]

وحدث أن الشاعر المعروف حافظ بك إبراهيم رحمه الله، سافر في عام ١٩٢٥م[٢٩] إلى إيطاليا، ووصل فيها إلى مكان بارد فتذكر بدوره قصة ذلك الأعرابي، فأنشأ قصيدة يصف بها رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط، مطلعها:

عاصف يرتمي وموجٌ يغِيرُ	أنا باللهِ منهما أستجيرُ[٣٠]

---

(٢٧) قال ياقوت: "شلير: بلفظ التصغير، وآخره راء: جبل بالأندلس من أعمال البيرة، لا يفارقه الثلج شتاءً ولا صيفاً معجم البلدان (شيلر) ٣٦٠/٣ (الدخيل).

(٢٨) البيتان مع ثلاثة أبيات أخرى في معجم البلدان: ٣٦٠/٣ ونسبها ياقوت لبعض المغاربة (الدخيل).

(٢٩) الصحيح عام ١٩٢٣م، لأن حافظ نشر القصيدة في شهرنوفمبر عام ١٩٢٣م انظر ديوانه: ٢٢٧/١ ومقدمة الديوان: ٥ (الدخيل).

(٣٠) في الديوان (وبحر يغير) و (مستجير) (الدخيل).

ثم قال في صدد قصة ذلك الأعرابي:

ذَكَّرَتْنِي ما قاله عَرَبِيٌّ   طَارِقيٌّ أمْسَى احتواهُ "شُلَيرُ"[٣١]

إنّ صَدر السعيرِ أحنى علينا   من "شُلَيرٍ" وأين منَّا السعيرُ!

ومما زاد في شدة البرد تلك الليلة، أن هطلت أمطار خفيفة، ولكنها برغم أنها زادت الجو برودة، فقد زادته جمالاً، فالمطر في الصحراء، آية من آيات الله تضفي عليها جمالاً في المنظر، وتخلع عليها رواءً من الحسن والبهجة.

وفي الصباح الباكر، بعد أن أدينا فريضة الصلاة، وتناولنا الطعام، هممنا بالمسير بعد أن تزودت سياراتنا بالوقود من بنزين وزيت، من المحطة الحكومية التي أنشئت لهذا الغرض، واحتشد أهل القرية وعلى رأسهم أميرها لوداعنا، وفي تمام الساعة الثانية والنصف غادرنا المويه مستأنفين السفر.

إلى القاعية

قلت: إننا غادرنا المويه في الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الأربعاء ٧ صفر ١٣٦٠هـ وكان دليلنا في الطريق، هو جدول صغير كتبه لنا أحد الأهلين الذين سبق لهم أن ارتادوا هذه الديار، وفيه بيان بالمسافات بين كل منزل وآخر، كما أنه شفعه بمعلومات عن أجواء تلك المنازل وتربتها وصلاحية كل منها لما يلائمها من أحوال السفر كالمبيت والمقيل، وفيه إشارات إلى مايصلح منها للقيلولة وما يصلح للمبيت، ومعلومات عن المياه وما يصلح منها للشرب في المنازل وما لا يصلح، وكنا نسترشد بهذا الدليل إلى حد ما في اختيار الأماكن على ماهو مدون فيه، مراعين مايلائم ذوقنا وظروفنا في السفر، وكانت تلك المعلومات بعضها قريب للحقيقة وبعضها بعيد عنه، ولكنها على كل حال

(٣١) في الديوان (أذكرتني) والوزن مستقيم بهما. والضمير في الفعل يعود على جبال التيرول، وهي جزء من جبال الألب تقع شمال شرقي إيطاليا (الدخيل).

معلومات كانت تؤنسنا في بعض الأحيان، وكنا نفرغ إليها للتسلية حيناً وللاستدلال حيناً آخر.

وعلى مقتضى مطالعاتنا هذا الصباح في الدليل الآنف الذكر، قررنا أن يكون مبيتنا في قرية الدوادمي إذا شاء الله- برغم أن الشقة إليها بعيدة والسفر طويل، ولكننا اعتمدنا[٣٢] الله في أن نجد في السير حتى نصل إلى المكان الملائم للمبيت ! مسترشدين بالمسافات التي رواها لنا ذلك المرشد، والتي ظهر فيما بعد أنها تنحرف قليلاً عن الواقع.

مشينا من المويه في الساعة الثانية في أرض جلد لا أثر فيها للوعورة وفي واد سهل منبسط لا أثر حواليه للجبال، وكان سيرنا حثيثاً ساعدنا عليه جو الصباح البارد، وسهولة الأرض، وما كنا نشعر به من نشاط إلى مواصلة السفر بعد راحة الليلة الماضية في المويه، وراحة الليلة التي قبلها في العشيرة، وفي تمام الساعة الرابعة والنصف (عربية) أي بعد ساعتين وصلنا إلى محطة تسمى "الدفينة"[٣٣] وهي ليست محطة بالمعنى المعروف، لأن المكان الذي يسمى محطة هو الذي يكون فيه مخزناً آلياً للوقود إلى جانب القرية التي يكون إلى جانبها، أما محطة الدفينة هذه، فهي منزل حول بئر من الماء العذب، تستقي منه البادية ومن حولها من العرب الضاربين أو الرحل، وفيها حانوت لبيع بعض الحاجات الضرورية من تمر وأرز ودهن وغير ذلك. والمسافة من المويه إلى الدفينة (٨١) كيلو متراً هي التي قطعناها في ساعتين وقد توقف الركب قليلاً في هذه المحطة انتظاراً لاستكمال السيارات وبعد دقائق وصلت سيارات الركب جميعه، فطلب بعضهم الاستراحة قليلاً، ولكن البعض الآخر[٣٤] احتج على هذا الطلب بحجة أنه لم يمض على ممشانا غير القليل من الوقت، وأنه إذا كان هذا هو شأننا في السفر، نقف كل ساعتين

---

(٣٢) يريد (اعتمدنا على الله) (الدخيل).

(٣٣) الدفينة ليست اسماً للمحطة وإنما هي اسم للموضع الذي تقع فيه المحطة التي وقف عندها الركب والدفينة: موضع معروف في طريق مكة (الدخيل).

(٣٤) التعبير السليم (بعضهم الآخر) (الدخيل).

في منزل من المنازل ونطلب الراحة والإخلاد، فكيف يمكن قطع المسافات البعيدة وفي كم من الأيام نحتاج إلى اجتياز هذا الطريق الطويل!

وتبارت حجج الفريقين المتجادلين هذا يقول سيروا بسير ضعفائكم، وذلك يقول، السفر كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وغني عن القول أن الحديث كان يدور بروح الدعابة والمرح، وبعد دقائق معدودة استغرقها النقاش وأخذ الرأي، سارت أول سيارة كانت على الطريق فتبعتها الأخريات، وانفض المشكل بعد أن تحققت رغبة طالبي الاستراحة إلى حد ما بتلك المناقشة التي أخذت من الوقت ربع ساعة، كانت هي كل نصيب الجميع من الوقوف في هذا المنزل، ثم مشينا على "عفيف" وهو وادٍ متسع الجنبات تحوطه بعض هضبات تشبه الجبال، وفيه محطة آلية للوقود تتزود منها السيارات أثناء سفرها والمسافة من الدفينة إلى عفيف (١١٨) كيلو متراً فهي إذاً مرحلة طويلة.

وقضينا مدة ساعتين ونصف ساعة في الطريق من الدفينة إلى عفيف، قطعنا فيها تلك المسافة من غير توقف، فقد كان الطريق كسابقه سهلاً ميسوراً لاأثر للوعورة فيه، وتسعة أجزاء الطريق من مكة إلى الرياض سهل منبسط لا وعورة فيه ولا نصب. وفي الساعة السابعة بعد الظهر، وصلنا إلى "عفيف" فلم نجد فيها غير محطة البنزين المبنية بالحجر على طراز غرارها من المحطات الأخرى، وإلى جانبها حانوت أو حانوتان لتبادل السلع مع سكان البادية، ذلك كله إلى جانب بئر من الماء العذب يستقي منه سكان تلك المنطقة من البدو الضاربين في عرضها وفي سفوح هضباتها ببيوتهم الشعر، ومن يجتازها من البدو الراحلين في طلب الكلأ والمرعى، وتتبع قطرات السماء من الغيث والسحاب.

وصلنا إلى عفيف، وكان أكثرنا قد ناله بعض التعب، لطول الشقة التي قطعناها في هذه الرحلة من غير توقف، فألقينا بأنفسنا على غرفة مأمور تلك المحطة، وفي غيرها من غرفات ذلك المبنى الفسيح الذي ضرب عليه سور من البناء الفخم الأنيق فاسترحنا قليلاً من الوقت، ثم قمنا إلى الوضوء والصلاة، وقلنا لغلامنا: "آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً"[٣٥] وقضينا القيلولة في ذلك المكان بين نوم خفيف، وبين سمر طريف، إلى

(٣٥) سورة الكهف، الآية: ٦٢ (الدخيل).

مابعد العصر، حيث نشطت نفوسنا من عقالها، فأخذنا نتجول قليلاً، ونعد أنفسنا لاستئناف السفر، وبعد أن أدينا صلاة المغرب استأنف الموكب المسير من عفيف قاصداً إلى القاعية. وبدأنا من جديد نسترشد بذلك الجدول الذي اتخذناه دليلاً لنا على المنازل والمياه، فعلمنا أن بيننا وبين القاعية مسافة هي(٧٨) كيلو متراً، وأن بين هذه وبين الدوادمي (٩٩) كيلو متراً أخرى، فتساءل الرفاق، هل يمكن قطع مسافة الرحلتين في مرحلة واحدة؟! وهل يمكن أن نجتازها وهي تبلغ (١٧٧)كيلو متراً على دفعة واحدة وفي هذه الهدأة من الليل؟! كان الجواب بنعم ولا! فهناك من يرغب في صحبة القمر والسفر، والصحراء ومنظرها الفاتن الخلاب، وهناك من لا يساوى عنده هذا الجمال ذرة من نوم، أو خردلة من راحة، وكلا الفريقين على حق في تصوره، استناداً إلى ما يشعر به في نفسه من رغبة وبواعث، فالقوي البنية، والوافر الصحة، يفضل الرأي الأول، لسببين: أولهما: مواصلة السفر وقطع الطريق، وثانيهما: الاستمتاع بجمال الرحلة في تلك الهدأة من الليل، وما فيها من جمال الصحراء والقمر، وجدة الديار على الأنظار، وما في ذلك كله من طرافة وبهاء ورونق، والفريق الآخر يشعر في أعماق نفسه بالنصب وعدم القدرة على مواصلة السفر وفقدان النشاط، فهو يفضل الراحة أولاً والتهوية اللذيذة التي تعطي الجسم نشاط الراحة وتكسبه لذة الإخلاد، وهو لذلك يتعلل بمختلف المعاذير التي ينتحلها من خشية طروء خلل على السيارات وإنه لا يحمد مغبة السفر المتواصل بالليل اتقاء عوارض الطريق وما إلى ذلك من مختلف المعاذير.

وسار الموكب، ووجوه الرأي تتقلب كيفما شاءت الأهواء، حيث يقضي الله أن يكون المبيت!! ومشينا في طريق لا يكاد يختلف عن سابقه فهو خلو من الوعورة إلا في بعض مرتفعات خفيفة لا تكاد تذكر، وكان الجو صحواً، والقمر ساطعاً والرحلة ممتعة، ولم يطل بنا السفر إلى أكثر من ساعتين، ذلك الليل المقمر الضاحي الظريف، حتى قيل لنا: إن هذه هي "القاعية".

وكان الماكر الذي كتب لنا دليل الطريق لنسترشد به، قد كتب فيه بعض الإيضاحات الطريفة عن المنازل ومياهها، ولم يغفل أن يضع إشارة خبيثة إلى مافي بعض المواقع من الهوام والحشرات والزواحف، فكان يقول لنا في دليله: إن المحطة الفلانية تصلح للمبيت

والنوم لأنها خالية من الحشرات، وإن المحطة الفلانية لا يستحسن المبيت فيها، لأن بها أنواع الهوام، من أمثال العقارب والحيات وبعض الأحناش!!! وكان بعض الرفاق، وفي مقدمتهم كاتب هذه السطور، ممن يهتمون بهذه الملاحظات الدقيقة ويقدرونها حق قدرها! وسبب هذا الاهتمام، يرجع إلى ماورد في ذلك البيان من الإيضاحات، ويرجع إلى بعض روايات كثيراً ما نسمعها عن آفات الصحراء وهوامها وحشراتها، وكانت تلك الروايات على مافيها من مبالغة، نعلم حق العلم أنها مبالغة، لم نستطع أن نغفل من أعماق نفوسنا آثار الوهم الذي تركته فيها تلك الروايات التي كانت جناية أصحابها علينا أنهم آفات الرواة، إلى جانب آفات الطريق! وثم ملاحظة أخرى وهي شجاعة كاتب هذه السطور وأنه يفضل أن يموت مستشهداً في سبيل الله وحومة الوغى[٣٦]، عن أن يغتاله ذو ظفر أو تغتاله ذات ناب!!

وفي القاعية، تلك المحطة التي قدر لنا المبيت فيها ونحن على عشرات من الأميال من الدوادمي، تناولنا طعام العشاء، ثم جلسنا على عادتنا في السمر وقطع الوقت بما ينثره علينا أساطين الرواة من أحاديث الجد تارة، والفكاهة تارة أخرى، ومختلف الروايات عن الحوادث العامة والخاصة.

وفي الصباح الباكر بعد أداء فريضة الصلاة وتناول طعام الفطور نهض المعسكر كله نهضة رجل واحد، كل منصرف إلى ماعليه من عمل في تهيئة الحملة والاستعداد للرحلة. وفي الساعة الثانية من صباح الخميس ٨ صفر، غادر الوفد القاعية قاصداً إلى المحطة التالية، وهي "الدوادمي".

---

(٣٦) العطف بالواو هنا غير مناسب، لأنه يقتضي أن يستشهد في سبيل حومة الوغى أيضاً ووضع حرف الجر(في) بدلاً من حرف العطف يزيل المحظور، ولو قال: " أو يموت في حومة الوغى، لاستقام التعبير (الدخيل).

إلى الدوادمي

غادرنا "القاعية" قاصدين إلى "الدوادمي" والمسافة بين المحطتين ٩٩ كيلو متراً، وقد يسر الله الطريق وسهله علينا فقطعنا هذه المسافة في مدة ساعتين، وكان الطريق كسابقه، سهلاً ميسوراً كشأن سهول نجد جميعها.

ولاحت للركب في ضحوة النهار من بعد شاسع، نقطة غائمة صغيرة، ثم أخذت تتبدد شيئاً فشيئاً حتى انجلت عن منظر نخيل ثبت لدينا بعدها أنها قرية "الدوادمي" ومازالت تدنو منا، وندنو منها رويداً حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام بناية ضخمة هائلة، قيل لنا: إنها القصر، أي القصر الملكي الذي يستريح فيه حضرة صاحب الجلالة الملك أثناء سفره بين مكة والرياض. ولكن هذا البناء الضخم الهائل، يشتمل على أشياء غير القصر، وإن كان التعبير شمل المكان كله بهذا الاسم.

ذلك أن السور الضخم الهائل الذي يراه الناظر من بعيد، فيحسب أنه سور على قصر واحد، إنما هو يكاد يشتمل على مدينة صغيرة! ففي واجهته الرئيسية قصر متواضع لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، يشرفه للاستراحة فيه أثناء سفره بين مكة والرياض، وحول هذا القصر من جوانبه الأخرى مبانٍ أخرى أعدت لنزول الضيوف من رجال الحاشية، ولغيرهم من النزلاء الذين يمرون بهذا الطريق في مختلف الظروف، وهي تشتمل على غرف فسيحة بنيت على الطراز العربي وأمامها فتحات سماوية مكشوفة تكسب المكان صحة الشمس والهواء، وتتوسط هذا البناء الضخم جملة أحوشة سماوية، وفي جانب منها جناح أرضي خاص أقيم فيه مركز للاسلكي، يستقبل الإشارات ويرسلها بين مكة والرياض، ومن ثم، بين جميع أجزاء المملكة، والعالم كله. والسيارات تدخل بحملتها إلى فناء هذا البناء، وقد أقام سواقوها[٣٧] ومهندسوها، وورشة صناعية صغيرة متواضعة في جانب من ذلك الفناء، تلجأ إليها كل سيارة في حاجة إلى الإصلاح مدة إقامتها في ذلك المنزل، وفي جانب آخر مستقل من ذلك البناء أقيمت محطة آلية

---

[٣٧] التشديد للمبالغة. قال الراجز: قد لفها الليل بسواق حطم (الدخيل).

للبنزين أسوة بالمحطات الأخرى المتناثرة في أجزاء هذا الطريق، تدخل إليها السيارات وتتزود منها بما تحتاج إليه من وقود.

فهذا البناء على الجملة يعتبر كالواحة الخصيبة للمسافر، بالنظر لما اشتمل عليه من توفير أسباب الراحة، وعلى الأخص وجود ذلك المركز اللاسلكي الذي يصل ما بين المسافر وما بين أجزاء العالم الأخرى التي يريدها، وأمام ذلك البناء من الخارج يوجد حانوت أو حانوتان لتبادل السلع بين البادية، وقد يتزود منها المسافرون بما يعوزون [٣٨] من حاجات. وكان أول عمل عملناه بعد وصولنا إلى الدوادمي، أن توجهنا إلى مركز اللاسلكي لنتصل بالعالم عن ذلك الطريق السريع، فرفعنا أنباء وصولنا إلى جلالة الملك المعظم، وصاحبي السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد، والأمير فيصل نائب جلالته، في برقيات متضمنة أفخم التحيات وأصدق آيات الولاء بمناسبة وصولنا إلى ذلك المكان في نجد، وفي الحال تلقينا من جلالته ومن صاحبي السمو الملكي الأميرين الجليلين برقيات العطف والترحيب.

وبعد ذلك اتصلنا جميعاً عن طريق ذلك اللاسلكي بأهلينا في مكة، فأبرقنا إليهم نبشرهم بوصولنا إلى الدوادمي ونسأل عن صحتهم، وكان سرورنا بذلك لا يحد، وغبطتنا بهذا الاتصال لا نهاية لها.

وانتهينا من شؤون اللاسلكي الذي كان الاتصال به أول غايتنا عند وصولنا مباشرة وجعلنا نبحث عن أمتعتنا وعن نزلنا، فعلمنا أنها نقلت إلى الطابق العلوي من القصر، إلى حيث أعد لنا مكان النزول، فصعدنا إليه، فوجدنا غرفة فسيحة الأرجاء، اتسعت لنا جميعاً، وقد كانت مفروشة بأحسن الأثاث البسيط، وعلى غاية من النظافة، وكانت الأمتعة قد احتلت جانباً كبيراً منها، وأخذ كل منا مكانه عند متاعه ومستلقياً للراحة أو للنوم! وقضينا سحابة ذلك اليوم في القصر بعد أن تناولنا فيه طعام الغداء، وبعد أن أغفت عيون الرفاق بعض الإغفاء.

---

(٣٨) يعوزون هنا بمعنى يحتاجون، ولا تأت في اللغة بهذا المعنى الذي أراده الرحالة، بل معناها: عدم وجود الشيء الذي يحتاجون إليه، وصعوبة الحصول عليه. انظر لسان العرب (عوز) (الدخيل).

وبعد صلاة العصر، أخذ كل فرد نصيبه من أعمال الاستعداد للرحلة، وفي الساعة العاشرة تحرك الموكب مستأنفاً السفر.

إلى مراة

كانت أول محطة للنزول والاستراحة بعد الدوادمي، محطة تسمى خف أو الخفيفية[٣٩] وكانت على مسافة(٦١)كيلو متراً من الدوادمي، وهي مرحلة صغيرة بالنسبة للمراحل المتصلة الأخرى التي قطعناها في أجزاء هذا الطريق، ولكن كان من المصادفات أن وقع عطل في إحدى السيارات جعلها عاجزة عن السير السريع، فتعطلت سيارات الرفاق لأجل إسعافها مجاملة للسيارة المعطلة!! ومن حسن الحظ أن هذا الجزء من الطريق هو الجزء الوعر من الطريق كله بين مكة والرياض، وأن مأموري الحكومة في الدوادمي اكتشفوا غيره طريقاً سهلاً بين الدوادمي وبين الخفيفية، وقد سلكناه في عودتنا من الرحلة.

وقد حدث أن إحدى السيارات الصغيرة أصيب فيها مخزن الماء بحجر شطبه فكان لا يمسك الماء، فكانت لذلك تحتاج كل مسافة قصيرة إلى مقدار من الماء لتبريد آلاتها، ونفد ما عندنا من الماء في لحظات قصيرة متتابعة، ولجأنا إلى الصحراء الناضرة المعشبة، نستنجدها على هذا الحادث، ونسألها أن تجود علينا ببعض ما في جوفها من المياه، ولم نكن على مقربة من منزل من المنازل، وليس هناك ما يشير إلى قرب وجود شيء من ذلك، ولكن الصحراء المطرة الخصبة، لم تضن علينا بطلبتنا، وأبت إلا أن تشاركنا في ضرائنا كما شاركناها في بهجتها في سرائنا، فإذا بالسائق يغادر السيارة ويتجول قليلاً بين تلك الأرض المعشبة، فيظفر في جانب منخفض من جوانبها بماء يتدفق استطعنا أن نغترف منه ما ملأ مخزن الماء في السيارة وأستأنفنا المسير، فلقينا من الله فرجاً يتلوه فرج، فالفرج الأصغر، وهو الأول أن قدمت إلينا سيارة من سيارات الرفاق محملة بالماء فقد سبقت إحدى السيارات الصغيرة إلى إسعافنا، وكانت دقة الترتيب التي اتخذت في

---

[٣٩] خف غير الخفيفية، وهما موضعان في إقليم السر بعد القرنة وقبل بلدة البرود، وهما الآن بلدتان مأهولتان (الدخيل).

كيفية المسير وإدارة الرحلة لا تسمح لسيارة ما بالانقطاع، وكانت كمية الماء التي وردت إلينا، كفيلة بتسيير السيارة بضعة أميال أخرى، لقينا عندها الفرج الثاني، الذي هو الفرج الأكبر، فقد جادت علينا الصحراء العطوف مرة أخرى وحدبت علينا بما لم يكن في الحسبان إذ انكشفت أمامنا وعلى حين فجأة عن ورشة صناعية متواضعة في قلب تلك الصحراء تابعة لشركة السيارات العربية، فكأن الله سبحانه وتعالى قد أوجد لنا ذلك كرماً منه وفضلا، وتفصيل ذلك أن إحدى سيارات الشركة العربية للنقل التي تعمل في هذا الخط، وقع لها خلل خطير اضطرت معه الشركة إلى أن ترسل مهندساً وسيارة إسعاف لإصلاح السيارة المعطلة، وكان ذلك قبل وصولنا إلى هذا المكان ببضعة أيام، وأخذ المهندس يباشر عمله في إصلاح السيارة المعطلة، حتى جاءت المصادفة الحسنة بوقوع الخلل في إحدى سياراتنا على مقربة من مقر المهندس الذي تشتمل أدوا ته على ورشة صناعية متواضعة! وتلك مصادفة حسنة لا شك، ولا أقصد بالمصادفة الحسنة بالطبع، وقوع الخلل في السيارة، وإنما أقصد وقوع الخلل على مقربة من وجود ورشة صناعية كاملة الأدوات، ماكان المقدر أن نصادفها في الساعة التي نحن أحوج ما نكون إلى ماهو دونها وأقل منها!

وسلمنا السيارة إلى المهندس وجلسنا حوالي ساعتين متكئين إلى جانب من الصحراء المقمرة الصاحية، نتناول الشاي ونتسامر حتى تم إصلاح السيارة، فركبنا وتابعنا المسير، إلى "الخفيفية" وقضينا الليلة كما قضينا سابقاتها مضافاً إليها فزع بعض الرفاق، وفي مقدمتهم كاتب هذه السطور من إشارة وردت في بيان الدليل الذي معنا عن وجود الهوام والحشرات بكثرة في هذه المحطة! وكان الحديث طويلاً في هذا الموضوع مصحوباً بالدعابات والفكاهات!!

و"الخفيفية" هذه واد مرتفع قليلاً يقع قبيل النفود التي سيأتي الكلام عليها فيما بعد وكأنها وضعت هذه المحطة لأهمية خاصة، ذلك بأن الوارد على النفود أو الصادر عنها، يحتاج قبل ارتيادها أو بعده للاستعداد لقطعها أو الاستراحة من عناء اجتيازها وهذه الأهمية بمكان. وليس في هذه المحطة أي شيء من معالم الحياة غير بئر ماء غير سائغ،

يرتاده أهل البادية من البدو الرحل ومنتجعي الكلأ وممن يطلبون المرعى ويقيمون حولها مدة الربيع الناضر.[٤٠]

قضينا الليل هناك، وكان علينا أن نغادر هذا المكان قبل شروق الشمس حيث كان أمامنا مرحلة صعبة المراس، عنيفة الاجتياز، هي مرحلة النفود، وبينها وبين هذا المكان سبعة كيلو مترات، والنفود هي عبارة عن سلسلة من الجبال الرملية الدقيقة الناعمة[٤١] كالكحل، تسفيها الرياح بين كل عشية وضحاها، وهذه الرمال تجشم السيارات وآلاتها الجهد الكثير من المشقة والعناء، وقل أن تنجو سيارة باجتياز هذا المكان دون أن تسيخ أقدامها في أعماق تلك الرمال، والويل كل الويل للسيارة التي يقدر عليها ذلك، فإن صعوبة استخراجها تفوق كل مجهود، وتصرع كل عزيمة، لهذا رؤي من الحكمة اجتيازهذه المسافة الرملية في ذلك الوقت الباكر حين تكون الرمال هاجدة نائمة، قبل أن تحركها الرياح، وقبل أن توقظها حرارة الشمس. وقد يكون من الغرابة بمكان أن يقال بأن ا لرمال ترقد في الليل وتهجد، والجواب الذي عرفناه من هذه التجارب، هو أن رطوبة الليل تغمر الرمال الناعمة فتخمدها، فلا تستيقظ إلا بفعل الرياح المتحركة وما تبعثه فيها أيضاً حرارة الشمس من الصحو!!

وكان من حسن حظنا ونحن نحاول اجتياز تلك المنطقة مستغلين غفلتها، على الصورة الآنفة الذكر، أنها كانت قد أمطرت قبل ذلك بأيام قليلة، وأن الجو مازال بارداً قارساً، وتلك كلها أسباب تعين على سهولة اجتيازها، وقد كان! ومنطقة النفود الرملية هذه يبلغ

---

(٤٠) يبدو أ ن المؤلف لم يذق طعم ماء (الخفيفية) فهو عذب، وكل مياه واديها (وادي القرنة) بهذه الصفة، ولهذا سحب الماء منه أخيراً لسقيا القرى البعيدة عنه كالدوادمي، والشعراء، وعفيف، وغيرها، وأصبحت الخفيفية قرية مأهولة (الجاسر).

(٤١) النفود وقد يكون أصل الكلمة (النهود) إذ النهداء هي الرمل المتراكم لا يوصف بأنه جبال من الرمل، بل حبال بالحاء المهملة تمتد متساوقة متناسقة وبينها أمكنة منخفضة واسعة قليلة الرمل، تدعى (الخبب) الواحدة (خبة) وقد يوجد في بعضها ماء كما في نفود (الزلفي) حيث تسمى (العقل) واحدتها (عقلة) ومنها ماهو ذو سكان، وتعرف هذه قديماً باسم (الجفار) يقال: حبل من رمل، وجبل من صخر، وفرق بين الكلمتين (الجاسر).

طولها (٢٥) كيلو متراً، والمسافة كلها من الخفيفية إلى مراة [٨٨] كيلو متراً كان يمكن اجتيازها في ساعة وبعض ساعة، ولكن نظراً لصعوبة الرمال الآنفة الذكر، فقد قطعنا المسافة في ساعتين كاملتين مررنا أثناءها ببحار متلاطمة الأمواج من تلك الرمال الدقيقة الناعمة التي كانت كالهضاب المرتفعة أو الجبال المتناثرة المتصلة، وقد حدثنا الكثيرون ممن اجتازوا هذه المنطقة في فصل الصيف وفي ضحوات أيامه المشمسة الحارة، أنهم كابدوا أشد العناء في اجتيازها، ومن الناس من ظل فيها يوماً أو بعض أيام، يكابد عناء قطعها بين حمارّة القيظ وشدة النصب. ولكننا اجتزناها ولله الحمد في مرحلة سهلة هادئة لا نصب فيها ولا لغوب.

ووصلنا إلى "مراة" في الساعة الثالثة صباحاً، وكانت هذه هي القرية الثانية التي نصادفها في طريق نجد، والقرية الأولى "الدوادمي".

تحقيقات تاريخية

كنت طيلة الساعتين اللتين أمضيناهما في قطع الطريق إلى مراة، وأنا منشغل عن الرفاق بخيال سبحت فيه، ثم قصصت نبأه عليهم في حينه، وتفصيل ذلك أنه قيل لي: إنني سأصادف في طريقي بلدة امرئ القيس الشاعر، وهي قرية مراة هذه، قرية حامل لواء الشعراء في الجاهلية، وسمعت كثيراً من مثل هذا الكلام من أصدقاء عديدين ممن ارتادوا هذا الطريق، فلما كنت على مقربة من هذه القرية، تذكرت تلك الأحاديث كلها، وسبحت منها في خيال أمير الشعراء وحامل لوائهم "امرىء القيس" وعللت النفس وأنا أشد ما أكون شوقاً بالوقوف على الأطلال الدوارس التي أنجبت ذلك الشاعر الفحل وأخذت من نفسي أتزيد التفكير في هذا الموضوع، واختلق له العلالات تأييداً لهذه الروايات التي سمعتها، وأول علالة اختلقتها لذلك، هي أنني بحثت في ذاكرتي شعر امرىء القيس وتذكرت من معلقته قوله:

فتوضح "فالمقراة" لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

وتوضح، والمقراة، هما أسماء أماكن يعنيها امرؤ القيس في قصيدته، فقلت: إن المقراة، هي نفس مراة، وقد حرفت على ألسنة الرواة من ذلك الزمن إلى اليوم وليس بكثير على أربعة عشر قرناً من الزمان أن تلحس "قافاً" واحدة فتحرف الكلمة من مقرات إلى مراة، وقد لحست هذه الأربعة عشر قرناً ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات وغيرهم من كائنات وجمادات، وزاد هذا الوهم في نفسي تأييداً الشطرالثاني من البيت، والذي يشير إلى عصف الرياح بهذه الأماكن[٤٢]، فقلت: إن الشاعر لم يذكر عصف الرياح إلى جانب اسم بلده هذه، إلا لما قام حولها من هضبات تلك الرمال التي اجتزناها قبل قليل، والتي قلنا: إنها تسمى "النفود" اصطلاحاً، فهناك إذاً تناسب يؤيد هذا الوهم ويكاد يحيله في نفسي إلى حقيقة ثابتة، مادام الأساس صحيحاً، وهو أن هذه بلدة امرىء القيس كما تقول ألسنة الرواة.

وقد ظللت غارقا في لجج عميقة من التفكير والتأملات، طيلة المدة التي أمضيتها في الطريق بين عفيف ومراة، وسبحت مع امرىء القيس وشعره وعصره، وقصيدته المعلقة وغير المعلقة!! وتصورت أنني قادم على القرية التي أنجبت حامل لواء الشعر، والتي احتضنته وليداً ويافعاً، ثم عوّلت على التجوّل في القرية فلا أترك فيها شبراً من الأرض علني أتلمس أثراً من آثار ذلك الفحل العظيم.

وما أفقت من لجج هذه التأملات إلا على صوت رفيقي في السيارة الشريف شرف رضا، وهو يقول لي: هذا هو الكميت، وفي البادية مثل شائع، يقول "أرني الكميت[٤٣]، أريك[٤٤] مراة" والكميت هذا هو جبل أحمر اللون - وهو غير حلبة الكميت بالطبع - ولعله سمّي الكميت لذلك، وأنه جاثم على صدر القرية يحتضنها، وهو أول ما يباده

---

(٤٢) انظر ص: ١١، الحاشية: ١ ، ص:١٢، الحاشية ٢ (الدخيل).

(٤٣) الصواب (كميت) بدون تعريف، الجبل المجاور لبلدة (مراة) والمعروف أن الأسماء لا تدخل عليها (أل) إلا سماعاً (الجاسر).

(٤٤) الصواب في الفصحى (أرك) لوقوعه في جواب الطلب (الدخيل).

المسافر بطلعته المهيبة القانية، فإذا رآه المسافر تباشر بالوصول إلى مراة وأيقن أنه بلغ غايته!

وصلنا إلى مراة فانتحى الجمع مكانا قصيا إلى جانب بئر للماء، وخرجت عن رفاقي لا ألوي على شيء قاصداً إلى جهة مجهولة لا أعلمها، والتقيت بفضيلة الشيخ عبدالله الشيبي أحد زملاء الرحلة، فقلت له: هذه بلدة "امرىء القيس" فهل لك أن نتجول قليلاً فيها؟ فقال لي أجل! ونحن في حاجة إلى معرفة الديار التي نسلكها في طريقنا، فهيّا! ومشينا معا متجهين ناحية البلدة، فوجدنا غلاماً يافعاً فقلنا له: نريد منك أن تجتاز بنا الطريق إلى القرية، فقال أو تريدون الغدير؟! وما كنا نعرف أن هناك غديراً، ولكننا أجبناه بالإيجاب، فسار بنا مسافة غير قصيرة وكانت تبدو أمامنا قبل اجتيازها وهي بمرأى منا أنها جد قصيرة، حتى أتينا جهة من جهات القرية، وهي مسورة بسور مرتفع البناء، ولكننا قبل أن ندخل إليها دخلنا إلى بناء آخر مرتفع من فجوة صغيرة فإذا بنا نحن أمام الغدير الذي أرشدنا إليه الغلام، والغدير المذكور يكاد يشبه بحيرة صغيرة قام على حافاتها شجر الأثل فظلله بأغصانه الوارفة الظلال، وانحنت عليه أغصانه المتهدلة كالحسان نشرن الذوائب وأرخين الشعور، وكان هذا أول غدير رأيته في بادية العرب فأعجبت بجمال منظره أيما إعجاب. وبعد لحظات قصيرة تركنا الغدير ولم نكد نبعد عنه قليلا حتى التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت لاشك أن هذا من أهل القرية!! فبدأته بالسلام، ثم قلت له يارجل أهذه قرية امرىء القيس الشاعر المعروف، فهل عندكم علم به؟! وكان هذا السؤال كافياً لإهاجة الرجل فتدفق كالبحر الزاخر، يدلي إليّ بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية، وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمي بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور، وأن الأول تميمي[٤٥] والآخر كندي، وأن امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال

---

(٤٥) تنسب مرأة (مراة) إلى امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم، سميت بالكلمة الأولى من اسمه، وكان أبناؤه قد اتخذوها سكناً، فنسبت إليه، معجم البلدان (مراة) ٥/٩٦. و صحة الاسم بالتاء المربوطة.

أما الشاعر الذي هجاه الشعراء فهو هشام بن قيس المرئي التميمي من شعراء العصر الأموي هاجي ذي الرمة واستطار بينهما الهجاء حتى دخل فيه جرير وزياد الأعجم واستمر الهجاء بينهما حتى توفي ذو الرمة عام

هجاه الشعراء، وهجوا البلدة لأجله،[٤٦] ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين، وشاع الخطأ على ألسنة الناس، ثم ذكر لي أن في البلدة بئر ماء تسمى بئر ابن الوليد، وأنها هي البئر التي وقف عليها خالد بن الوليد في خروجه من المدينة لغزوة وادي حنيفة، ومصاولة أهل الردة. وذهبت إلى تلك البئر فوجدتها تقع إلى جانب بستان صغير، ووجدت من يستقي عليها، فشربت من مائها وسبحت في لجج الذكريات التاريخية إلى ماوراء عشرات القرون من الزمان. وظل صاحبي هذا يواصل حديثه عن كثير من الذكريات الأدبية والتاريخية، ونحن في طريق عودتنا إلى حيث كان الرفاق ينتظرون، فلما دنونا من مكان نزلهم استأذن مني وانصرف فسألته عن اسمه، فقال: إنه عبدالرحمن بن زيد، وسألني بدوره، ثم قلت له إن لي في العودة معه حديثاً ومجلساً، وتوادعنا إلى اللقاء إن شاء الله بعد أن حملني سلامه إلى الأمير عبدالعزيز بن إبراهيم أمير المدينة المنورة سابقاً وعضو مجلس الوكلاء حالياً.

عدت إلى الرفاق، فوجدتهم في حيرة من غيابنا هذا، فقصصت عليهم أنباء مارأيت وما سمعت، وأظهرت لهم إعجابي بالبلدة ومشاهدها، وذكرت مشهد الغدير وقصة خالد بن الوليد، فقام سعادة السيد صالح شطا رئيس الوفد وقال، اصحبني إلى ما رأيت وذهبنا معاً إلى الغدير وإلى بعض أطراف البلدة ثم عدنا معجبين بما رأيناه.

١١٧هـ الأغاني (دار الثقافة) ٨/٥٤ - ٥٧، ١٧/٣٢٠ - ٣٢٤، وديوان ذي الرمة: ٢٤٩، ينظر فهرس الأعلام ص : ٢١٨٦ وأخبارهم الملحق بديوان امرئ القيس لحسن السفدوني: ٣٦٢-٣٦٥ (الدخيل).

(٤٦) أحسن المؤلف في نفيه توهم أن بلدة (مرأة) منسوبة إلى امرىء القيس الشاعر الكندي المعروف، ولكنه حين ذكر الرجل التي نسبت إليه، نقل عن محدثه أنه قال: "إن امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال، هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله" ومحدثه هو الشيخ عبدالرحمن بن زيد المتوفى سنة ١٣٦٤هـ وهو مؤلف كتاب "المنتخب في ذكر أنساب العرب" وقد يكون الخطأ من الناقل لا منه هو.

إن امرأ القيس التميمي ليس ذميم الخصال بصرف النظر عن الفرق بين كلمتي (دميم) و (ذميم) إذ الاولى يوصف بها الخَلق، والثانية يوصف بها الخُلق وهو لم يهجه الشعراء وقد عاش في الجاهلية الجهلاء وهجو تلك القرية حدث في القرن الأول الهجري، حين قامت بين شاعر هو: هشام المرئي وبين ذي الرمة مهاجاة حادة، فهجاه هذا الشاعر الفحل، حتى أخمل ذكره، وانظر خبر مهاجاة هشام المرئي مع ذي الرمة في "الأغاني" (الجاسر).

وفي عودتنا من الرياض إلى مكة كانت لي جولة أخرى في هذه البلدة ومصاحبة طريفة مع ذلك الرجل الذي هو من أهلها سنذكرها فيما بعد.

وأقمنا وسط النهار في مراة حيث تناولنا فيها طعام الغداء واسترحنا مدة من الوقت، إلى مابعد صلاة الظهر بساعة، ثم قمنا للتجول قليلاً والتمتع بمشاهدة ذلك الجبل الذي يحضتن القرية والذي قلنا: إنه جبل الكميت[٤٧] حتى تهيأنا للمسير، وبعد أن تزودنا من محطة البنزين بالوقود اللازم للطريق غادرنا المكان قاصدين إلى روضة الخفس.

وبالطبع، قد انهارت جميع التصورات الخيالية التي قامت في ذهني عن امرئ القيس وبلدته، وخياله وشاعريته، ومكانه وآثاره، وذهبت تلك الأوهام سدى بعد التحقيقات التي أجريتها في القرية، وتبادلت الحديث في هذا الموضوع مع زميلي في الرحلة وفي الشاعرية الأستاذ السيد عبيد مدني، الذي أخبرني بأنه قام في نفسه من الوهم والتصور مثل ما كان قد قام في نفسي حتى تبددت تلك الشكوك بما حل محلها من الحقائق.

إلى روضة الخفس

تقع قرية مراة هذه على مفترق الطرق، ففي جانبها طريق يؤدي إلى سدير والمجمعة وشقراء، وطريق آخر يؤدي إلى العويند ثم العيينة، ثم الجبيلة، ثم الرياض، وطريق آخر يؤدي إلى روضة الخفس حيث كان المخيام[٤٨] الملكي، تماثل هذا المقدار أيضاً.

قلت: إننا غادرنا "مراة" في الساعة الثامنة والربع، وعدلنا بالطبع عن طريق الرياض إلى طريق الروضة، أي إلى المخيام الملكي، وقررنا أن يكون المسير بتسهيل الله وتقديره، فلا نختار منزلاً ولا مبيتاً إلا حيثما يتفق لنا أن نكون! وتابعنا المسير مدة ساعتين إلى أن وصلنا إلى مكان يسمى شعيب السيل، وهو ممر للسيل تخلفت فيه رمال ناعمة دقيقة، جعلت اجتيازه من الصعوبة بمكان، وهناك وقفنا ننتظر استكمال وصول السيارات جميعها

---

[٤٧] الصواب (كميت) كما تقدم (الجاسر).

[٤٨] المخيام في هذه الصفحة وفي صفحات كثيرة، والصواب (المَخْيَم)، أو (المُخَيَّم) بتشديد الياء (الجاسر).

لنشرف على اجتيازها في ذلك المكان، ونطمئن على سلامتها. فلما اجتمعت بعد عشرات من الدقائق أخذنا نرقب اجتيازها واحدة فواحدة، وهي تخترق تلك البحيرة الصغيرة من الرمل الدقيق، حتى تم اجتيازها كلها في مدة غير قصيرة من الوقت، وغير طويلة أيضاً!!

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب، فاستأنفنا المسير ساعة بعد المغرب حيث وصلنا إلى مكان مجهول قررنا أن يكون المبيت فيه، لأن الرأي اتفق على ألا ندخل إلى الروضة ليلاً، وإن دخولنا إليها يجب أن يكون صباحاً مع ضوء النهار.

وتوقفنا عن المسير في سطح وادٍ مرتفع قليل تقوم حوله بعض الأعشاب وفي خلال مدة قصيرة من الزمن نصبت الخيام وأوقدت النار، وأضيئت الأنوار وجلسنا كعادتنا للسمر، وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاءنا زائر وثانٍ وثالث من عرب البادية. وكان بالطبع أول سؤال وجهناه إلى أولئك الزائرين، عن المخيام الملكي وروضة الخفس والمسافة من هذا المكان إليها، فعلمنا أن المسافة تقدر برحلة بالبعير أو مايساوي ساعة بالسيارة، فحمدنا الله على ذلك. وسألنا عن اسم هذا المكان الذي اخترناه للمبيت من غير قصد ولا معرفة، فقيل لنا: إن اسمه "روضة الذبحة" وفيه "مدج العود" والكلمة الأخيرة معناها ملتقى سيل العود، وهناك من آثار ملتقى هذا السيل ما يدل على موافقة التسمية للمسمى.

كانت هذه الليلة التي قضيناها في هذا المكان من الليالي الفذة في تاريخ الرحلة، فإذا قلت: إن النوم لم يطرق أجفاننا إلا لماماً، لما كنت مغالياً في التعبير، قضينا الشطر الأكبر من الليل في سهر وسمر ونحن نشعر بلذة لا تعدلها لذة، ونشعر بسرور لا يعادله سرور، ذلك بأن هذه الليلة، هي ختام ليالي السفر في الرحلة، ومطلع صبحها مقرون بأعظم ما كنا نتمناه من الله ونرجوه من فضله، وهو التشرف باجتلاء طلعة المليك المحبوب في مخيامه الملكي العامر. وهكذا سبحنا جميعا، أو سبح كل فرد منا في خيال تأملاته الحلوة العذبة اللذيذة، لذلك ماكادت أجفاننا تهوّم قليلا في آخر الليل حتى نفضت عن أهدابها عوامل الكرى وهبت مع تباشير الصباح إلى استقبال نسيمه العليل بعد أداء فريضة الصلاة مع الفجر- في حينها- ومن ثم انتشر الرفاق في ذلك السهل المصبح، والشمس لما تشرق بعد، يتنشقون أريج ذلك النسيم وما فيه من عبير ذكي، هو مزيج من عبق الجو المطر، وأرج الروضة المعطار، وقد بعث الله لنا من جاد علينا بوعاء كبير

مملوء بلبن النياق، من أحد أعراب البادية، فتقبلنا هديته وتقاسمها بعض الرفاق وكان بعضهم لم يعرف هذا اللبن ولم يشربه إلا منذ هذا اليوم!

وتناولنا بعد ذلك طعام الفطور وأخذنا نستعد لاستئناف الرحلة وليس منا إلا من هو مأخوذ بروعة اللقاء، مغمور ببهجة الغبطة والسرور حتى لكأن لحظات تلك اللذة الطريفة التي كنا نشعر بها ساعتئذ، من السويعات السعيدة التي قلما يصادفها الإنسان في حياته، اللهم إلا في مناسبات كهذه المناسبات إذا أتيحت، وهي قليلة المواتاة!

وبعد لحظات قصيرة حملت السيارات بما كان عليها تحمله[٤٩] من الأمتعة ولفت الخيام في مدارجها، وركبنا سياراتنا ويممنا شطر المخيام الملكي أو ذلك روضة[٥٠] "الخفس" وكان في صباح يوم السبت ١١ صفر سنة ١٣٦٠هـ، وجدت السيارات بنا المسير مدة ساعة من الزمن ونحن كلنا لهفة وتطلع، نضرب أبصارنا في طول الفضاء وعرض الأفق، كأننا نبحث عن شيء نتوقع أن نراه بين الفينة والفينة، وما هناك من شيء غير ارتقاب رؤية المخيام[٥١] الملكي العامر، الذي يتوج عرينه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله.

---

(٤٩) هنا خطأ مطبعي، صوابه (بما كانت تحمله) (الدخيل).

(٥٠) هنا خطأ مطبعي صوابه (ويممنا شطر المخيم الملكي في روضة الخفس) (الدخيل).

(٥١) الصواب (المخيم) كما تقدم (الدخيل).



في عرين الأسد أو المخيام[52] الملكي

قلت: إننا قطعنا ساعة من الزمن، في الرحلة من "مدج العود" أو "روضة الذبحة" التي بتنا فيها، ولكنها ساعة كادت تكون حيناً من الدهر لما أحسسنا به من طولها الذي أربى على ليل امرئ القيس أو ليالي النابغة الذبياني[53]، ومع أن ساعات السرور والغبطة لا تكون إلا قصاراً خاطفة تنقضي وتمضي في مثل لمح البصر، إلا أن ساعة سرورنا هذه كانت مقرونة بالتطلع والارتقاب فلهذا كانت طويلة ممضة، نفد معها الصبر كل النفاد، ونحن على حق في ذلك الشعور لأسباب كثيرة يكفي منها أننا أمضينا ستة أيام بلياليها في سفر متواصل وتنقل مستمر، وهذه غايتنا من السفر قد شارفت البلوغ، ولكن دون البلوغ إليها ستون دقيقة كان يصح أن تمر بنا أو أن نمر بها مر الكرام!! لولا أنه كان فيها بيت القصيد، ومنتهى الأمل، وأقصى الغاية، والأمل كل الأمل، والغاية كل الغاية، هي الحظوة باجتلاء طلعة المليك العظيم.

وتغلب الصبر على الضجر، وانقضت تلك الساعة الطويلة، ولاح لنا جبل في صدر الوادي كنا نحر إليه، ومازلنا نغذ إليه السير ونحن مساقون بخطوط الطريق، دون أن نعلم أن وراءه عرين الأسد حيث ربض ليث الجزيرة المغوار، واستدرنا استدارة حول الجبل بعد أن شارفناه، ثم انفتح الطريق مرة أخرى عن واد فسيح الجنبات زينت أرضه المترامية

---

(52) الصواب (المخيم) كما سبق (الدخيل).

(53) كان امرؤ القيس خير من شكا طول الليل في معلقته لقوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله	عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل	بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه	بكل مغار الفتل شدت بيذبل

والنابغة الذبياني حين شرده النعمان بن المنذر، شكا لياليه وطولها في أبيات منها:

فبت كأني ساورتني ضئيلة	من الرقش في أنيابها السم ناقع

بالأعشاب الناضرة الزاهية المتأرجة، والحصباء الملونة اللامعة كأنه ذلك الوادي الذي قيل فيه:

ووادٍ ترتــــعُ الأبصــــارُ فــــيه[٥٤]	ســقاه مُضَـاعَفُ الغيــثِ العميــم
نزلنــــا دوحَــــه فحنــــا علينــــا	حُنُــوَّ المرضعــاتِ علــى الفطيــم
يَصُــدُّ الشــمسَ أنَّــى واجــهتنا	فــيحجبها، ويــأذن للنســيم
تــروعُ حَصَــاهُ حاليُــة العَــذَارىَ	فتلمــس جــانبَ العِقْــدِ النظيــم

ومن وسط ذلك الوادي البهيج، خفقت القلوب، واشرأبت الأبصار، فقد لاح للعيون مرأى خيام بيضاء تناثرت كأجنحة الحمائم البيض، في نهاية ذلك الوادي الذي كنا نسير إليه. قلنا إنه المخيام الملكي من غير شك! وهنا توقف الركب عن المسير، ووقفنا لحظة نتطلع إلى رؤية المخيام، ونرمقه بأبصارنا، ونحن مأخوذون بعاطفة الفرح والبهجة والاغتباط، ثم عمدنا إلى تغيير ملابسنا التي كنا نرتديها في الطريق، ونصلح هندامنا بعد أن أزلنا عن وجوهنا غبار السفر برشاشات من الماء المعطر الزكي، كان يحمله معه رجل الأناقة والظرف الشيخ عبدالرؤوف الصبان الذي يمثل الشباب في الشيخوخة!! بما كان يحمله معه من كماليات التطرية في السفر، وأن هذا الماء المعطر الزكي فيما يحمل من تلك الأدوات الطريفة، وهو في زجاجة رشاشة لا تكلفك أكثر من تحريك لولبها حتى تغمرك بذلك الماء البارد المعطر الذي يزيل الأتربة في مثل لمح البصر، ويضع محلها ذلك العطر الزكي المنعش.

وبعد دقائق قليلة تعد على الأصابع وصلنا إلى المخيام، فسألنا أول شخص قابلناه عن خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فمضى بنا إليها، وكانت الساعة الثالثة صباحاً إلا قليلاً، ووصلنا إلى قرب الخيمة حيث علمنا أن جلالته لم يشرف بعد، وأن تشريفه إليها

---

(٥٤) الرواية المشهورة (وقانا لفحة الرمضاء وادٍ) وتنسب لحمدة بنت زياد المؤدب التي تلقب بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس، توفيت نحو ٦٠٠هـ وتنسب أيضاً لأحمد بن يوسف المغازي (ت ٤٣٧هـ) وفيات الأعيان ١٤٣/١، ونفح الطيب للمغربي ٢٨٨/٤ (الدخيل).

منتظر ومرتقب في ظرف دقائق قليلة معدودة، حيث كان الجنود قد اصطفوا بظاهر الخيمة في انتظار تشريف جلالته.

لاشك أن رؤية المخيام الملكي، وما فيه من روعة وضخامة في العدد، وما في نفوسنا من روعة اللقاء، كان له أكبر الأثر في نفوسنا، وقد كان لمنظر هذه الخيام التي لا يحصيها العد، والتي علمنا فيما بعد أنها تبلغ ١٧٥٠ خيمة، والتي هي كأجنحة الحمائم البيض المتناثرة، أو كأشرعة السفن المترامية التي تمخر عباب البحر، كان لذلك كله، بهجة في المنظر لا يسمو إليها الوصف ولا يحيط بها البيان، وقد تحرك شيخ الشعر في نفسي ولا أقول شيطانه!! فإذا بي أهمس وأتغنى بصوت خافت قائلاً:

ولما بدا المخيام للركب أشرقت خيام تفوق الأنجم الزهر في العد

تلوح مع الإصباح كالطير جثماً

ولم أدر أنني بمقربة من أحد، أو بمسمع من كائن من كان، وإذا بصوت يناديني من قريب، وإذا به صديقي الأستاذ عبد الرؤوف الصبان، يقول: لقد سمعتك أيها الشاعر تهمس وتتغنى، وسمعتك تقول "ولما بدا المخيام للركب" فأكمل ما تقول، وعبر عن شعورك وشعورنا بما تمليه عليك الشاعرية اليوم، وإننا منذ الآن سنسجل كل ما تقول،و سنحصي عليك أنفاسك وكلمك! فقلت له: حباً وكرامة، وأنشدته البيتين أو البيت ونصف البيت من الشعر الذي جاش في نفسيّ ومضى كل لطيته.

لم يطل وقوفنا أمام الخيمة الملكية العامرة، حتى أهلّ علينا جلالته مقبلاً من مخيمه الخاص في سيارته الملكية، وبعد دقيقة شرف جلالته، وترجل من السيارة، وكان قد رآنا فأقبل علينا، وهرعنا إلى جلالته مسلمين مقبلين يده الكريمة مستبقين بعوامل الشوق والولاء والإخلاص إلى تحية جلالته والسلام عليه، وقد تفضل فهش في وجوهنا بما في أخلاقه من مكارم، ثم شرف إلى خيمته ودعانا إلى الدخول في معيته الكريمة، وأخذ مكانه من صدر المجلس، وكانت الخيمة تتألف من صالون فخم، فرشت بالبسط النفيسة، كما صفت إلى جوانبه المقاعد الوثيرة، ولم يتميز كرسي جلالته عن بقية الكراسي الأخرى بشيء ما، بل هي كلها طراز واحد وإن اختلفت في الشكل

والصنعة، وقد شرف السرداق أيضاً حضرتا صاحبي السمو الأمير سعود ولي العهد، والأمير فيصل نائب جلالته، كما حضر رجال البلاط الملكي وكبار رجال الحاشية، وقد تجلت مكارم أخلاقه التي نعرفها كل المعرفة، في تفضله بسؤالنا عن أحوالنا، وعن صحتنا وراحتنا وما عسانا أن نكون صادفناه من مشقة السفر في الطريق، فأعربنا لجلالته عن الشكر العميق، وخالص الولاء والدعاء على تفضله بهذا العطف السامي، وشكرنا الله على نعمة اللقاء بجلالته في هذه المناسبة السعيدة، ونقلنا إلى جلالته صورة مصغرة عن شعور البلاد كلها نحو هذه الرحلة وشمولها بالعطف الملكي السامي، وشعور الجميع نحو جلالته بالمحبة وخالص الولاء والتقدير، ثم استأذنا من جلالته بالسماح في إلقاء كلمات مناسبة تترجم عن هذا الشعور جهد المستطاع فأذن حفظه الله، وكان الترتيب قد تم بالاتفاق بين أعضاء الرحلة على أن يلقي فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي خطبة أعدت لهذا الغرض، وأن يلقي كل من شاعري الرحلة السيد عبيد مدني شاعر المدينة المنورة، وكاتب هذه السطور قصيدته التي أنشأها لهذا الغرض.

فلما تفضل جلالته بالإذن ، نهض فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي وألقى كلمة جامعة ثم قفى عليه السيد عبيد مدني فألقى قصيدته، ثم قفى عليه كاتب هذه السطور وألقى قصيدته أيضاً. وقد علق جلالته على هذه الخطب والقصائد بكلمات رقيقة بليغة فيها الشكر وفيها منتهى التواضع الإسلامي والثقة بشعبه وأمته، وقال إن هذا الشعور هو عندي حقيقة ثابتة معروفة لدي ولدى الجميع، ثم أردف جلالته بكلمات كلها عطف من ملك رحيم بار على شعب مخلص يتفانى في الولاء لجلالته.

وعاد جلالته فتفضل بإعلان عطفه علينا جميعاً، وأذن لنا في الانصراف إلى المخيام الذي أعد لنزولنا، مشفقا علينا من مشقة الرحلة، وإننا لم نأخذ قسطنا من الراحة.

وتفضل جلالته فبالغ في الحفاوة بنا وإكرامنا، وقال: إنكم الآن عندي في دياركم، وقد أمرت بإعداد كل معدات الراحة لكم، ومعذرة إذا بدر تقصير فنحن في صميم الصحراء، وكانت هذه العبارة من جلالته تحمل أسمى معاني التواضع بالنسبة لما كان متخذاً من ترتيبات الإقامة لنا تسهيلها وتيسيرها وإحاطتها بأكبر وسائل الراحة والرفاهية، ثم تفضل جلالته ونادى "ياعباس" وهو الشيخ عباس قطان أمين العاصمة، وقال

له :ماذا تشتغل في مكة؟ فقال له أطال الله عمر جلالتكم إنني رئيس بلدية مكة، فقال جلالته: أنت رئيس بلدية هذا الوادي مدة وجودكم فيه، فأنت المسؤول عن راحة صحبك وعما يلزمهم من كل شيء، وأنت وكيل عليهم، فتفقد راحتهم وبالغ في إكرامهم.

وبعد ذلك نهضنا مستأذنين من جلالته وسلمنا. ثم غادرنا السرادق الملكي العامر، ونحن عاجزون عن النطق بالشكر، على مالاقيناه من لدن جلالته من ذلك العطف السامي، ومن تلك الأخلاق الفذة التي لا تعرف في أبناء هذا الزمان، في أي صقع أو مكان!

وذهبنا إلى المكان الذي أعد لنزولنا، فإذا هو مضارب من الخيام الفخمة الوثيرة نصبت على مقربة من الغدير الذي يستقي منه المخيام، ووجدنا هناك الشيخ عبدالرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية موفداً من قبل جلالته للمبالغة في العناية بنا وترتيب شؤوننا كلها، وقد بالغ سعادته في إكرامنا والترحيب بنا وإظهار الحفاوة التي تليق بمكارم أخلاق الملك العظيم، وجلس معنا ساعة من الزمن يؤنسنا بحديثه العذب ويسألنا عن كل ما يؤمن راحتنا، ثم انصرف مشيعاً منا بالحفاوة والإكرام.

جولة حول الأشبال

وكان همنا بعد هذه المقابلة الملكية الكريمة التي كانت منى النفس وغايتها، أن نتشرف بالسلام على حضرات أصحاب السمو الملكي الأمراء جميعهم، وفي مقدمتهم حضرتا صاحبي السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد المعظم، والأميرفيصل نائب جلالته المحبوب، وقد سألنا أحد رجال حاشية جلالته في ذلك فأشار إلى مخيامهم وأمر أحد الأتباع أن يكون دليلنا إليهم، وبعد قليل من الدقائق وصلنا إلى مخيام سمو الأمير سعود ولي العهد.

وقد تفضل سموه بإكرام وفادتنا بما طبع في نفسه من مكارم الأخلاق، وشمل الجميع بعنايته الخاصة، وأعرب عن اغتباطه بوصولهم إلى هذه الديار، وقد قضينا في حضرته مدة غير قصيرة من الوقت، كانت كفيلة بإشاعة السرور في نفوسنا، وإطلاق ألسنتنا بالثناء على مكارم أخلاقه وما حباه الله من كريم الخصال التي هي سجية من سجايا والده العظيم.

والأمير سعود، شخصية محبوبة جذابة، كسيت أعظم حلة من المهابة، فهو صورة من والده العظيم في إشراق الطلعة وما منحهما الله من بسطة في الجسم ورجاحة في العقل، وهو لهذا مهيب الجانب كما قلنا لما فيه من الشخصية العظيمة الرائعة، ولا تفارقه هذه المهابة مطلقاً حتى في أحاديثه العامة والخاصة، وحتى في ضحكه وسروره ومزاحه الموقر ودعاباته الرزينة، ذلك بأن بعض الشخصيات الكبيرة قد تكون المهابة فيها موقوتة بحالة من الحالات النفسية أو مقرونة بسمة من سمات الصناعة والعمل، فإذا زالت تلك الحالة المعينة، زال عنها ثوب المهابة والوقار، ولكن جلالة الملك عبدالعزيز وصاحبي السمو الملكي ولي عهده ونائبه المحبوبين من الطراز الأول والذي قلنا: إن المهابة والوقار فيهم، سجية من السجايا التي خلقها الله في طبيعة نفوسهم، وطبيعة النفس شيء غريزي لا يتغير ولا يتبدل.

وقصدنا بعد ذلك إلى مخيام حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، وبعد دقائق قليلة، وصلنا إلى سرادق فخم قريب الشبه من سرادق سمو ولي العهد المعظم، فعلمنا أننا وصلنا إلى غايتنا، من رؤية الأمير فيصل المعظم، الذي هو نائب جلالة الملك، والذي هو الحاكم المباشر على البلاد التي نعيش فيها، والذي نعرف من شخصيته وطباعه، وأخلاقه وسجاياه، ما جعله حبيباً إلى كل القلوب، لا بالنسبة لأشخاصنا وأشخاص الخاصة من الذين يعرفون سموه معرفة شخصية متصلة عن كثب، بل بالنسبة لجمهور العامة الذين لا يعرفون عن سموه إلا ناحيته العامة، ولم تجمعهم به أية صلة من الصلات غير ما خبروه بصفة إجمالية عن مكارم أخلاقه وسمو سجاياه النبيلة.

تشرفنا بالدخول إلى السرداق، وتفضل باستقبالنا بما نعرفه فيه ونعهده من البشاشة والإيناس، وشملنا بعطفه الغالي، حتى انطلقت ألسنة الجميع بالدعاء لسموه والثناء على ما منحه الله من تلك الأخلاق العالية التي غدت مضرب الأمثال بين البادية والحاضرة، وبين العامة والخاصة.

وقضينا مدة أخرى من الزمن، في حضرة سموه، لقضاء حقوق الوجد والوجدان، وتشرفنا باجتلاء طلعة أميرنا المحبوب الذي أسعدنا الله بوجوده على رأس هذه الرحلة، فلم يكن سموه يفارقنا في مكة، إلا إلى لقاء عاجل في نجد، ولم يكن سموه يفارقنا إلا ريثما

يكتب الله لنا شرف اللقاء به، وتلك أمنية كانت في نفوسنا جميعاً، حققها الله لنا على أحسن حال، فهي إذن أمنية كانت غالية بعيدة المنال. لولا أن أذن الله بتحقيقها، وما كل ما يتمنى المرء يدركه!!

ونهضنا بعد ذلك للانصراف، ونحن لم نقض من حق الوجد والشوق ما يجب، ثم غادرنا سرادقه العامر، وفي النفس ما فيها من ذلك الحق وما يقابله من واجب، وحمدنا الله على نعمة هذا اللقاء وقلنا، أو قال كل في نفسه: إلى اللقاء القريب إن شاء الله تعالى.

وأردنا أن نطوف على خيام الأمراء أنجال جلالة الملك المعظم، فعلمنا أنه لم تبق فسحة في الوقت، وأنهم نهضوا من خيامهم إلى الغداء، فأجلنا ذلك إلى اليوم التالي، ورجعنا إلى مخيامنا كذلك لتناول طعام الغداء والاستراحة.

الأدب السعودي

لا أجد مناسبة خيراً من هذه المناسبة، لتسجيل موضوع طالما حرصت على الكتابة فيه، فقد أتيح لي أن أشهد بعيني رأسي لوناً بهيجاً رائعاً من الأدب الإسلامي وددت كثيراً أن أسجل صورته؛ لتكون قدوة للناس أولا، ولتكون مظهراً رائعاً من مظاهر الأدب الإسلامي المفقود، في هذا الزمان الذي طغت فيه المظاهر المادية على أذواق الناس وأخلاقهم في كثير من الأمكنة والأصقاع، وفي كثير من البيئات والجماعات.

فالأدب الإسلامي، هو الأدب الذي أدب الله به نبيه، وشرعه في كتابه الحكيم ليتحلى به المسلمون، وليكون ميزة لهم على سائر البشر، وحلية رائعة في أجيادهم تبهر أنظار العالم، وترفع من أقدارهم في أبصار غيرهم، بل هو في الجملة المثل العالي لصفات المسلم الكامل وأخلاقه ومعاملاته مع نفسه، ومع سائر الناس.

والأدب الإسلامي هذا، هو الحلقة المفقودة بين الناسن إذ قل أن تجد بينهم من هو مطبوع عليه، أو مقيد به، أو سائر على منواله، سواء كان بوازع من دين أو بوازع من فطرة، أو بوازع من تطبع! حتى إن بعض الأمم التي أمعنت في المدنية والتقدم العلمي الصناعي،

زعمت لنفسها أنها بلغت الغاية القصوى من الدساتير الأخلاقية بينما هي بلغت في هذا المضمار شوطاً عكسياً دفعها إلى الحضيض!!

لذلك لم يكن غريباً على رجل له صلة بشؤون الاجتماع والمجتمعات، أن يلحظ هذه الظاهرة في أخلاق الأمم، ولم يكن غريباً عليه أيضاً أن يسجل في أعماق نفسه، ظاهرة يراها غريبة بين الناس في هذا الزمان، وهي ظاهرة هذا "الأدب السعودي" ثم يعمد إلى تسجيل هذه الصورة فيما يبرزها من حيز نفسه إلى حيز التسطير والتسجيل!

وإذا قلت "الأدب السعودي" فإنني أقصد الأدب الإسلامي الذي ذكرت بعض صفاته فيما تقدم، وإنما عمدت إلى هذا الوصف للتحديد والتمييز، ولأذكر ما أنا بصدده من التسطير والتسجيل. فقد انفردت الأسرة السعودية بلون من الأدب الإسلامي تميزت به عن سائر الناس حتى غدا مضرب المثل، وأصبح موضع إعجاب كل من شهده من قرب أو بعد، وقد تحلت هذه الأسرة بهذا الأدب الرائع بحيث أصبح علماً على كل فرد من أفرادها، والقدوة الحسنة في ذلك، والمثل العالي إنما هو حضرة صاحب الجلالة الملك أولاً، ثم نجلاه الوقوران الأمير سعود ولي عهده، والأمير فيصل نائبه، ثم جميع أنجاله الأمراء، وبقية أعضاء هذه الدوحة المزهرة اليانعة. وإنك ليستولي عليك الدهش والإعجاب إذا أتيح لك أن تتصل بهم عن قرب، وأن ترى معاملاتهم بين بعضهم، ومعاملاتهم مع الناس، وكيف يوقر صغيرهم كبيرهم، وكيف يحنو كبيرهم على صغيرهم، وكيف يساوون أنفسهم برعاياهم، وكيف يجدعون أنف الكبر والكبرياء، بما يبدونه من التواضع الجم الذي يزيد من مهابتهم ولا ينتقص من علوهم الرفيع، ويكسبهم أعمق آيات المحبة، وأخلص أصناف الولاء والتقدير.

أجل لقد شهدت في هذا الباب من الفصول الرائعة، والمرئيات الباهرة طيلة الحقبة التي تشرفت فيها بالاتصال بأعضاء هذه الأسرة الكريمة ما كان يحملني على إبراز ما شهدته، ويدفعني برغبة خالصة إلى إشراك الناس معي في التمتع بلذة ما علمت ومشاهدة

ما رأيت، وما أنا والله في ذلك بمسرف أو مبالغ، في زمن تعجرفت فيه الصعاليك، واستنسرت فيه البغاث[٥٥] وتصعرت فيه خدود صدق في وصفها القائل:

وكم صَيَدٍ بدا لك من ذليلٍ   كما مَالَتْ من المَصْلُوبِ عُنْقُ[٥٦]

وما لا يتسع المجال لوصفه من أماثل هذه الصفات.

فهذا الملك الذي توجه الله بتاج الملك، وقوة الإيمان، وأصالة الرأي، وبوأه بسطة في الجسم، ومنحه رجاحة في العقل، وتوفيقاً في أقوم أساليب الحكم، وشرفه بولاية أقدس بقاع الدنيا قاطبة، هذا الملك الذي يتقلب في أعطاف هذه النعمة الإلهية الجزيلة، مضافة إلى نعمة محبة الناس له بولاء وإخلاص لا في مملكته ومن رعاياه فحسب، ولكن في سائر الأمم العربية والإسلامية ومن مختلف الأجناس والشعوب لم تأخذه من ذلك مثقال ذرة من غرور، ولم يغير خلقه شيء من ترف تلك النعمة، وإنما يقابل كل خير بشكر الله وحمده، ويقابل كل سوء بالاستعانة بالله[٥٧] ويمضي في طريقه عابداً مصلياً مبتهلاً إلى الله سبحانه بالعشي والآصال، وبذلك كان جلالته أرفع مثل في أمته لما يجب أن يكون عليه الإنسان من مكارم الأخلاق، وإذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بملك كبير تلك بعض صفاته، فما بالك بمن هم دونه من سائر الناس.

فجلالته هو القدوة الحسنة في أمته لمكارم الأخلاق، وهو المثل العالي والنبراس المضيء في التحلي بالآداب الإسلامية الرفيعة، وحريّ بأن ينسخ على منواله، ويتخذه قدوة حسنة

---

(٥٥) أخذه من المثل (إن البغاث بأرضنا يستنسر) البغاث: طير ضعيف واستنسر: صار كالنسر في القوة عند الصيد، يضرب المثل للضعيف يصير قوياً وللذليل يصبح عزيزاً بعد الذل مجمع الأمثال محمد محيي الدين عبدالحميد: ١/١٠ (الدخيل).

(٥٦) البيت لأحمد شوقي الشوقيات: ٢/٧٥، الصيد : ميل العنق، يكنى به عن السيادة والعزة (الدخيل).

(٥٧) جلالة الملك عبدالعزيز، يستقبل كل خبر سار، وكل حادث سعيد، بحمدالله تعالى وشكره والصلاة والسلام على نبيه، ويستقبل نبأ سيء أو حادث مزعج بالاستعانة بالله، وذلك بقوله: "الله المستعان". وقد سمعت هذا وشهدته مراراً من جلالته وهي ملاحظة جديرة بالتسجيل.

صالحة للعمل بها والاقتداء بهديها، ذوو عشيرته الأدنون، ومن هم أقرب الناس إليه من كرام أسرته، وليس هناك أجدر بقدوة التابع للمتبوع من اقتداء الابن بأبيه، ولذلك كان أنجال جلالته الأمراء هم أول المقتدين به وهم خير المترسمين لخطاه والعاملين على نهجه، وقد شهد لهذه الأسرة بالأدب الرفيع، كل من أتيح له شرف الاتصال بها من كبار الشخصيات من مختلف جنسيات مسلمي العالم، فكم من كبار المسلمين الذين وفدوا إلى البلاد المقدسة في موسم الحج أو في غيره سمعت منهم عبارات الثناء والإطراء، يندفعون في تنميقها من غير تحفظ ولا تقيد ويطربون بتناقل شواهد آياتها ومضارب الأمثلة منها، بحماسة متدفقة كالسيل، وبعاطفة متأججة كالأتون، وبشعور مندفع كالأُتِيِّ المزبد[٥٨]، وكم من زعماء المسلمين، وكم من كبار رجال أوروبا بهرتهم شخصية هذا الملك الفذ، مثلما بهرتهم سيرته الرائعة وبطولته الشامخة، وآدابه العالية، فانطلقوا يروون فيه الروايات ويحيطونها بهالات رائعة من آيات التقدير والإعجاب ويزفونها في ثوب فضفاض من الزخرفة وجمال النقش، وإنهم باعترافهم لجد عاجزين عن وصف الحقيقة وتسجيلها على مايشتهون، ولا أبالغ إذا قلت: إنه لم يكتب عن أية شخصية عظيمة سواء في الملوك الفاتحين والزعماء وكبار الرجال، مثلما كتب عن شخصية هذا الملك وآدابه وسيرته ومكارم أخلاقه، لا في القديم ولا في الحديث!

وإذا كان جلالته هو أصل هذه الدوحة العصامية اليانعة الباسقة فحريّ بأبنائه الأدنين الأقربين أن يكونوا صورة من والدهم العظيم، وهذا ما قد كان، وذلك ما أراده الله تعالى أن يكون. ونحن إذا ذكرنا أبناء جلالته فالمفهوم سريعاً أننا نقصد نبراس أولئك الأبناء ومصباحهم اللامع والوهاج، وهما شخصية كل من حضرتي أصحاب السمو الملكي الأمير سعود ولي عهده، والأمير فيصل نائبه. وكلاهما كان له اتصال مباشر بكثير من رجال العالم، وكلاهما انتزع الإعجاب انتزاعاً من براثن أولئك الرجال الذين يزنون الأمور بقدرها وقلما يخطئون! فالأمير سعود زار القطر المصري عام ١٩٢٤ميلادية للمرة الأولى وقابله هناك سعد زغلول باشا، وهو من أعاظم الشخصيات في مصر فلم يخف إعجابه بسموه نشر ذلك الإعجاب في كثير من المناسبات وإعلانه على رؤوس

---

[٥٨] السيل الأتي: الغزير الذي يأتي من مكان بعيد (الدخيل).

الأشهاد. ثم زار سموه بعد ذلك أقطار أوروبا والهند فكان موضع إعجاب كل من شهده أو اتصل به، وقد أفاض في بيان صفاته ومحامده وإعلان الإعجاب لسموه في كافة نواحيه الخلقية والخلقية[٥٩] كل من اتصل به في العالمين العربي والأوروبي.

أما الأمير فيصل فقد زار أوروبا يافعاً وهو في سن مبكرة من الشباب، ثم زارها مرات أخرى، وكان موضع إعجاب كل من رآه من كبار الشخصيات في كل مملكة زارها، وفي كل صقع مر به، ثم زار سموه القطر المصري في طريقه إلى لندن؛ ليقوم بتمثيل والده الملك المعظم في مؤتمر فلسطين المنعقد في لندن في أوائل عام ١٣٥٨هجرية - ١٩٣٩ميلادية، وقد أعجب بسموه في جميع البلاد التي زارها كبار رجالها من زعماء وسياسيين وعلماء وأدباء وشعراء، وكان موضع تقديرهم وإعجابهم، وكان سموه قطب ذلك الرحى، وملتقى تلك المجامع، وموضع حديث أولئك الأقوام وتقديرهم على مختلف جنسياتهم ومراتبهم الاجتماعية، وأقدارهم العامة.

والحديث في هذا الصدد يساق إلى سعادة الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان سموه والذي كان في معيته في تلك الرحلة وما كان يفيض به علينا بعد عودته من روايات التقدير والإعجاب التي صادفها سموه في كل خطوة من خطوات رحلته، يضاف إلى ذلك ما لهجت به الصحف في جميع تلك الأصقاع من القصص والروايات، والأحاديث والمقالات عن أخلاقه وآدابه وحسن معاشرته ولطفه وإيناسه وتقدير مواهبه السامية وسجاياه الغالية ومزاياه الرفيعة.

ولقد زار سموه بلاد أوروبا بعد ذلك في مناسبات عديدة أهمها تمثيله حكومته في هيئة الأمم المتحدة وما برز به من الشخصية الفذة في تلك المجامع العالمية الحفيلة حتى غدا بحق ملتقى الأبصار ومحل التقدير والإعجاب.

والكلام عن آداب هذه الأسرة وأعضائها يطول، ولو أردنا تقصيه بالأمثلةوالشواهد لاحتجنا إلى كتاب خاص لافصل من كتاب، وإنما أردنا بهذه المناسبة المتاحة أن نذكر

---

(٥٩) صواب العبارة (في نواحيه الخَلْقِيّة والخُلُقِيّة كافة) (الدخيل).

ما يمكن ذكره من آداب الأسرة السعودية الكريمة، وأن نميز تلك الآداب المنفردة في هذا الزمان، فطبعها بالطابع العربي السعودي الخاص فقلنا عنها: إنها "الأدب السعودي"، وذلك لقلة ما تشاهد من هذه الصفات الفريدة الوحيدة في هذا الجيل!!

وهناك خلاصة أخرى نريد أن نشيد بها ونشير إليها، وهي المثل العالي الذي يجب أن يستخلص من هذا، وهو اتخاذ القدوة الحسنة المثل المقتدى به من تلك الأخلاق لتكن نبراساً يهتدي به الضالون المضلون، الذين يسرفون في التأله وفي حب الأثرة وفي الكبرياء والغطرسة إلى درجة تحمل الناس على احتقارهم والازدراء بهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون!

وهذه اللمحات العابرة عن الأدب السعودي سجلناها في هذا المكان من الكتاب، ولكن القارىء سيجد في الصفحات الأخرى المبعثرة المتناثرة، أمثلة عليا رفيعة من الأمثلة في هذه الخصال، تركناها لنذكرها في مكانها المناسب، لأننا لم نقصد إلى أن نحصي هذه الحسنات في مكان واحد، ولم نقصد من وراء ذكرها إلا مجرد العظة والعبرة والقدوة الحسنة.

روضة الخفس - ورياض نجد

تقع روضة الخفس في وادٍ يشرع عليه جبل شامخ متصعد إلى الأعنان، يسمى جبل طويق[٦٠] وهو في الجانب الغربي من الوادي، وفي الجنوب منه سلسلة من الهضبات الرملية الدقيقة الصغيرة، التي هي أشبه بالنفود وإن كانت ليست من النفود حقيقة، ذلك بأنها[٦١]

---

(٦٠) ينطق أهل نجد باسم الجبل "طويق" مجرداً من أداة التعريف، وقد ورد في بعض المعاجم وفي كتاب فؤاد بك حمزة "الطويق". والصواب نطقها مجردة من أل، لأن الأسماء لا تدخلها أل التعريف إلا سماعاً كما وضح من قبل (الدخيل).

(٦١) قال سعادة فؤاد حمزة باشا في كتابه قلب جزيرة العرب: "معنى النفود الرمال الكثيفة الصعبة المرور التي تسفيها الرياح فتؤلف كثباناً متسلسلة، ولم نجد لهذا الاصطلاح أثراً في اللغة العربية القديمة، ولكننا نعتقد أنه حديث مأخوذ من نفد أي سار إلى الهلاك."وأما الرمال التي يطلق عليها اسم النفود في الوقت الحاضر، فقد كانت تعرف بأسماء أخرى في القديم، فالنفود الكبير الشمالي بين الجوف وجبل شمر

بحر متلاطم من أمواج الرمال الدقيقة التي تذروها الرياح بين كل إصباحية وأمسية، ويصطلحون على تسمية هذه الرياح الرملية المتعاقبة بـ "المج" وهي تسمية مفهومة إذ كان المقصود منها "العجاج" وفي أطراف من شواطىء تلك البحار الرملية تقوم روضات متناثرة عديدة لا تحصى، تتفاوت مساحتها وتتقارب من ميل واحد إلى خمسة أميال وإلى أكثر من ذلك أحياناً، وقبل أن تتاح زيارة نجد ماكنت أعرف السبب الصحيح لتسمية عاصمتها بالرياض، حتى كانت هذه الرحلة التي أفهمتني أن المقصود من الرياض هو جمع تلك الروضات بالنظر لكثرتها وشهرتها وأهميتها في تلك الأصقاع، فالواحدة من هذه الروضات، أو الواحد من هذه الرياض، مكان معشب، كثير النبت، مختلف الألوان والأشكال، موشى بأصناف الأزهار اليانعة الباسمة، ذات الأرج الفياح، والعبير الزكي الفياض، فأنت إذا أقدمت على الروضة سبقها إليك طيب العبير بعرف زكي يصل إلى القلب من غير حجاب، فيبعث فيه النشوة والسرور، وإذا طالت المدة التي تقضيها بين أرج ذلك الروض ازداد الشعور بالانشراح والسرور، لما يحمله النظر من حسن المنظر، ولما يهيج النفس من زكى الرائحة.

وطبيعة النباتات والأزهار في بوادي نجد وحواضرها، تختلف، عن غيرها في كثير من الجهات وغيرها من بوادي الحجاز أيضاً، فالمعروف لنا في أكثر النواحي المأهولة من بادية الحجاز، كالطريق بين مكة والمدينة وجدة وعرفات والطايف وما حولها من الجهات الأخرى أن عشبها المألوف لا يتعدى بضعة أصناف تعد على أصابع اليد الواحدة، ففي الأرض الباردة تقوم الغابات الشوكية والسلم مقام الزرع، وفي الأرض الحارة ينبت شجر الحنظل والعشر السنامكي. دون غيره من الأعشاب الأخرى.

أما بوادي نجد، فقد امتازت بتلك الرياض الطبيعية التي لم تعملها يد إنسان، ولم ينمقها عقل بشري، وإنما عملتها صنعة الله، ووشتها قدرته جل وعلا، فجاءت - ولله المثل الأعلى

كان معروفاً باسم "عالج" والنفود الجنوبي المسمى بالربع الخالي كان معروفاً باسم رملة "يبرين" وإذا أطلقت كلمة النفود شملت جميع الأراضي الرملية الكثيفة فهي تشمل الدهناء مثلما تشمل الأحقاف أو الأنفاد الأخرى في البلاد العربية". أهـ

-خير مثال على قدرته العالية، وكمال صنعه وجلال قدره، ذلك بأن الروضات في نجد - وفي هذا الربيع على الأخص، وهو الربيع الفذ الذي لم تشهده منذ ربع قرن من الزمان كما قلنا - ذات منظر عجب خلاب يبعث الفكر على التأمل في جمال صنع الله، فأنت تشهد بعينيك مساحة كبيرة من العشب الناضر المزهر على جملة مشاهد مختلفة تبعث في نفسك الإيمان العاجل بأن هذا الصنع ليس من صنع البشر، وليس هو في مقدور الإنسانية، فقد ترى روضة طال العشب فيها إلى ارتفاع متر متصعد في الفضاء، وهي كلها من زهر واحد ذي لون واحد وعبق زكي واحد، فهذه روضة تتجول فيها على سيارتك عشرات من الدقائق، وكلها ذات زهر متشعب الأوراق في نظام دقيق واحد جل من أبدع صنعته، وتلك روضة أخرى كبيرة المساحة، ذات لون واحد كله أبيض ناصع البياض، زكية الرائحة تطالعها فكأنما تطالع أرضاً كسيت بقطع الثلج الزاهر المشرق، أو كأنما نثرت فيها الأقطان يد النداف الصناع، فأشرقت من صناعته البقاع!

وهناك روضة ثالثة ليست البيضاء ولا الصفراء، فهي زرقاء اللون من طراز واحد جلت يد المبدع الذي صنعها وتعالت عظمته، روضة كبيرة المساحة لا يدرك الطرف أولها، ولا يبلغ السير آخرها، لولا جهد السيارة وأننا نطوي الأرض على غير الناقة والبعير، فسنظل نمشي مسافة غير قصيرة ونحن مأخوذون بجمال ما نشهد من منظر رائع فتان، زهر أزرق اللون، دقيق الصنع، قد نمقت أزهاره في أغصانه تنميقاً منظماً كأنما هو مقصود أن يكون على ماكان، تفوح منه رائحة زكية منعشة، فهو سرور في المنظر والمخبر، وذكرى عاطرة في المغيب والمحضر.

وهناك روضة رابعة! ليست بالبيضاء ولا الصفراء، وليست بالزرقاء. فهي بساط سندسي رائع أخضر اللون، كأنما فرشت أرضه ببساط أنيق أينعت فيه الخضرة وزهت ونمت وأربت، فطال نبته واستطال، وبلغ من غايته كل منال! تعالى العشب فيها إلى ذلك القدر الباهر من الطول، وراح النظر يسرح فيها غير ملول!

وهناك روضة خامسة ليست بالبيضاء ولا الصفراء، وليست بالزرقاء ولا الخضراء فهي خليط نثرته قدرة الله في مكان واحد، وجعلته معجزة القدرة بذلك التنويع الجميل، إذا ترى فيها النبت فيها ألواناً وغير ألوان، صنواناً وغير صنوان، فمن كل شجرة زهرة، ومن

كل زهرة شجرة، وقد تصادف غصناً واحداً يحمل جميع الألوان وقد تصادف لوناً واحداً مبعثراً في أغصان!! فأنت من ذلك الخليط الرائع في بستان، ومن حسنه في جمال فتان، فسبحان من صنعته يداه، وتوجته قدرة الإله، تعالى الله عما سواه.

هذا الوصف الدقيق، هو بعض ما في ربى نجد، أو هو بعض رياض نجد، وهذا الوصف الذي أطلقناه على بعض الروضات أو الرياض، هو من غير شك وصف عام لما شهدنا، ولما لم نشهد من رياض نجد، فقد يقوم وصف البعض عن الكل مقام التعميم، وقد يغني التخصيص بما يفيد أداء المعنى الكامل حين تعجز الحيلة عن غير ذلك، وقد أردت بهذا أن أكفى نفسي عناء تفصيل وصف كل روضة من رياض نجد، بما تستحق من الإفاضة والتوضيح، لأن ذلك التفصيل شيء غير مستطاع إطلاقاً، ومع ذلك فإنني لا أحجم عن إطلاق العنان للقلم في كل مناسبة تعرض لإيفاء ذلك الوصف حقه كلما سنحت المناسبة في خلال الوصف، مثلما كانت تسنح علينا تلك الهبات العليلة السليمة، والصاحية السقيمة، بين أجزاء الرحلة وتنقلاتها في فتراتها المختلفة من رياض ذلك الوادي الفسيح الأريج أو تلك البادية الضاحية المشرقة اللامعة.

وفي روضة الخفس هذه غدير ماء يستقي منه الوارد ويستقي منه القطان، فهو مورد للمقيم والظاعن، ويسمى غدير "الخويبي" ويقع في مساحة من الأرض طولها خمسون متراً وعرضها عشرون، فهو شبه بحيرة صغيرة، وقد ركبت في أحد جوانبه (طلمبة) يدوية لتمتص الماء وتقذفه بواسطة خرطوم كبير إلى خارج الغدير حيث ينقله الوارد في سيارات نقل الماء أو في غيرها من الأوعية والأواني، وهو إلى جانب ذلك متنزه للناس حيث يقصده الكثيرون في الأصيل للتنزه والجلوس على حافته، ويوجد إلى جانب هذا الغدير الرئيسي، غدير آخر فرعي بينه وبين الأول مسافة ميل واحد وهو أصغر من الأول من حيث المساحة وعمق الماء، وكلاهما يتكون من مياه الأمطار والسيول، وبقدر خصوبة الأرض، وجودة الربيع، ونزول الأمطار تطول مدة وجود المياه في هذه الغدران والعكس بالعكس.

والغدير الصغير يقع في وسط روضة غناء جميلة وارفة الظلال[٦٢] يحتضنها جبل طويق، وهي تختلف عن غيرها من الروضات الأخرى بوجود عدد كبير من الشجيرات الوارفة الظلال، فأرضها مفروشة ببساط أخضر سندسي من النبت الزاهر الرائع، وعلى حافة ذلك البساط قامت المظلات الإلهية الجميلة التي هي شجيرات باسقة يستظل بها الجلوس المتنزهون، ويكثر ورود الطير الصالح للصيد على هذا الغدير، فهو مورد للاصطياد علاوة على أنه متنزه جد جميل. وقد كان لنا في المدة التي قضيناها في روضة الخفس جولات يومية في هذا المتنزه العامر الجميل خصوصاً في ساعات الأصيل وليالي القمر، وكانت نزهتنا في هذه الروضة وعلى حافة ذلك الغدير باقتراح من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، الذي هو أعلم بما في بادية نجد من مصادر للجمال والنزهة والتمتع، وقد تفضل جلالته باقتراحه ذلك علينا للتمتع بالنزهة الجميلة في ذلك المكان الجميل.

وهناك حول هذا الوادي الذي اصطلح على تسميته بروضة الخفس، جملة روضات جميلة متناثرة في شرق الوادي وغربه وفي شماله وجنوبه، ويقع المخيام الملكي في وسط الوادي، كما يقع مخيام الأسر إلى الجنوب الشرقي منه على مسافة بضعة أميال، والروضات الآنفة الذكر مبعثرة مترامية بين أجزاء مختلفة من الوادي والمخيام، وفي روضة من هذه الروضات، يقوم حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بنزهاته اليومية وبنزهات الصيد في مواعيد منظمة معينة لا تختلف. وهناك روضات أخرى في غير هذا الوادي، مثل روضة التنهات وغيرها منتشرة ومبعثرة في كثير من أنحاء نجد، وبادية نجد ورباها الخصبة العامرة.

---

(٦٢) قال سعادة فؤاد بك حمزة في كتابه قلب جزيرة العرب:

"ويقسم نجداً سلسلة تسمى العارض تتجه من الشمال إلى الجنوب بشكل مقوس نوعاً، وتقوم عليها وفي أطرافها الدساكر النجدية المهمة وهي منطقة سدير، وبعد أن تجتاز السلسلة هذه المنطقة تنقسم إلى شعبتين: شعبة شرقية تتجه إلى الجنوب الشرقي إلى أن تغور وسط الصحراء وتسمى العرمة، وشعبة غربية تمتد إلى الجنوب وتسمى الطويق.

وفي الحقيقة أن البلاد النجدية يمكن اعتبارها كسلسلة من الواحات المتشابهة في التشكيل المختلفة في الكبر والمساحة تمتد من القصيم إلى وادي الدواسر على أطراف سلسلة جبل طويق".

نظام الإقامة - أو أيام الروضة

قد يعجب القارىء من هذا العنوان لأنه لاصلة بين الرحلة وبين "نظام الإقامة" حين يحسب أننا نقصد النظام الموضوع في المملكة العربية السعودية للإقامة!! ولكننا نبادر أولاً بإزالة هذا الالتباس اللفظي وشيكاً لأننا لانقصد "نظام الإقامة" الرسمي الذي تقوم بتطبيقه إدارة الأمن العام!! بل نقصد نظام الإقامة الذي أمر به صاحب الجلالة، في إقامتنا بروضة الخفس، وما في ذلك النظام من الدقة البعيدة التي كفلت لنا منتهى الراحة وأقصى غايات التمتع والتنزه.

إن صاحب الجلالة الملك، هو رجل النظام الأول في هذه المملكة، لا لأن جلالته يسن الأنظمة أو يفرضها أو يأمر بتنفيذها على رعاياه، بل لأن جلالته يعيش في حياة كلها نظام إذ هو يضع لنفسه الأنظمة التي يسير عليها ولا يحيد عنها قيد أنملة، فحري بنا ونحن نقيم في ضيافة جلالته، أن نكن في كنف النظام عاملين به في كل حركة من حركات السفر والإقامة، ولا أبالغ في القول إذا قلت: إن من أسباب النجاح الذي هيأه الله لجلالته في أعماله، هو ذلك النظام الفطري المطبوع في نفسه والذي هو جزء لا يتجزأ من حياته الغالية الثمينة!

فقد أمر جلالته بتنظيم إقامتنا طيلة المدة التي قضيناها هناك سواء أكانت قصيرة أم طويلة. ومن ذلك أننا بموجب ذلك الترتيب كنا نستيقظ في الصباح الباكر من كل يوم، أي من الفجر أو من قبله أحياناً، فنؤدي الصلاة في وقتها، وبعد استراحة قصيرة يباكرنا الخادم الذي يحمل إلينا إناء من لبن الإبل لا يقل ما يحمله عن مقدار صفيحة من الماء، وكان بعض الرفاق لا عهد لهم بتناوله من قبل، وبعضهم يحبه ويقبل عليه، ولم يمض غير تمرينات بسيطة في يوم وبعض يوم حتى كان الرفاق حين يصبحون ويصلون، ينتظرون في شوق ولهف قدوم اللبن فيغترفون منه بالأكواب الكبيرة ما يشاؤون ويستبقون بعضهم في تناولها والتزاحم عليها. والكلام على لذة تناول لبن النياق في الصباح الباكر يطول لو أردنا استقصاءه لما كان فيه من طرافة ولأن بعض الرفاق كان يتأباه ويتجافاه، ثم عاد يقبل عليه بنهم وشراهة!! وبعد الانتهاء من حفلة هذا اللبن ينصرف الرفاق إلى التنزه في الصحراء واجتلاء مباهجها، مستعينين على برد الصباح بشتى أساليب الدفء، فمنهم

كالسيد علي فضل، الشيخ الذي يأبى أن يعترف بالشيخوخة ولا يريد أن يظهر إلا مظهر الشباب، يعمد إلى الخروج بملابس رقيقة خفيفة، حتى لا يتهم بالشيخوخة، ولا يفجع في شبابه، ويطلب الدفء من وراء حركات رياضية هي الإمعان في السير السريع الذي يبعث الحرارة في الجسم.

ومنهم من يتدثر بالمشالح السميكة الوثيرة!! أو بكل ما عنده من الملابس، ومنهم من يتزمل برداء الخيمة ويحتضنها ولا يرى من الخير مفارقتها في ذلك الجو البارد والوقت الباكر مثل السيد عبيد مدني الذي كان يدين بهذا الرأي ويعمل به. أما فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي فقد كان في الشيوخ مثال النشاط في الشباب، وكان يسهر ويسمر إلى ما يقارب منتصف الليل أو يزيد عليه أحياناً، ولكن ذلك لم يكن يعوقه مطلقاً على اليقظة قبل الفجر بساعتين، ويكون الماء الحار قد عبئ لوضوئه وأحياناً لم يكن عبئ فيلتظي[٦٣] بلذعة الماء البارد في الوضوء، ثم يقوم إلى الصلاة متهجداً مدة الساعتين قبل الفجر، حتى إذا ما أذن مؤذن الصلاة للصبح، نبه رفاقه في خيمته أو خرج إلى خيمة المسجد فصلى مع الجماعة أو بالجماعة. أما فضيلة السيد صالح شطا فقد كانت له مهمة أخرى، هي أنه يقوم لصلاة الصبح في ميعادها، ثم يسأل عن الرفاق من حضر منهم ومن لم يحضر وعمن استيقظ منهم ومن لم يستيقظ، فإذا علم أن واحداً منهم لم يستيقظ ذهب وفي يده إبريق مملوء بذلك الماء البارد، فيوجه إليه إنذاراً باليقظة حالاً، وإلا فالماء البارد، خير كفيل بإيقاظه قبل رجع الطرف وقد ذاق كاتب هذه السطور - وغيره أيضاً - مرة واحدة جرعة من ذلك بالماء في وجهه فكانت الأولى والأخيرة ولم يقع بعدها ولله الحمد ما يوجب غيرها!

وكان فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي حين يخرج للتنزه في ذلك الصباح الباكر يستصحب معه حاجتين من أدوات التسلية، الأولى ولده "زيني" الذي كان يسليه بالحديث فيقطعان به الطريق، والثانية "بندق الصيد" يتلمس بها صيداً يضربه ليعود إلينا مرفوع الرأس عالي

---

(٦٣) يلتظي: يتقد. ولفظتا (يلتظي) و (لذعة) يوصف بهما الماء الحار لا البارد. سورة الليل، انظر اللسان (لظي) (الدخيل).

الصدر، ولكنه بما منحه الله من نفس وادعة، مشربة بحب الدعابة البريئة والفكاهة الموقرة، كان دائماً يعود إلينا مرفوع الرأس عالي الصدر، حتى ولو لم يرسل الله الطيور لتترامى تحت سلاحه! وهو مع ذلك لا يضن كل يوم بطلقة أو بطلقتين يرسلهما من فوهة بندقه في طلب الطير، وليس عليه أن تتم المطالب كما يقول الشاعر، وكان سبيله في طلب الدفء أن يتدثر بملابس كان يدخرها لهذه الحاجة، قد تبلغ في مجموعها مجموع ما يلبسه زملاؤه في الرحلة.

وبعد الانتهاء من هذه الجولة الصباحية الباكرة، وانهضام ذلك اللبن الذي تساقينا كؤوسه المترعة، وشعورنا بالحاجة إلى الطعام، نعود إلى المخيام ونحن أشد ما نكون شعوراً بالحاجة إليه، فإذا بالطعام يكاد يسبق أيدينا إلى أفواهنا، وإذا بنا ننهال عليه كما تنهال الأسد على فرائسها، وما هي إلا لحظات حتى نكون قد فرغنا منه إلىتناول الشاهي والقهوة العربية، ومن ثم نتهيأ لارتداء ملابسنا وبعضنا من شيوخ الشباب من ينصرف إلى التجمل وتجميل رفقائه بما عنده من مواد التطرية والتعطير. فإذا كانت الساعة الثالثة (عربية) كان رسول حضرة صاحب الجلالة الملك بالمخيام، جاء ليدعونا إلى التشرف بمقابلة جلالته فيقول: "الربع بهذا" ؟ ! أي الرفقاء بهذه الخيمة، ثم ينادينا بأسمائنا وقد عرفها وحفظها عن ظهر قلب! هيا ياعباس، هيا يافلان، فلا نكاد نسمع صوته حتى نكون قد أخذنا أمكنتنا من السيارات، ونجيبه على تساؤله بأن "الربع بهذا أبشر أبشر" ويسرع الرسول فيمتطي أول سيارة متحركة، ويقفز على رفرفها لمصاحبتنا إلى المخيام الملكي العامر.

فلما نصل إلى المخيام نتشرف فوراً بالدخول إلى خيمة جلالة الملك ونحظى بلثم يد جلالته ومصافحته، ونأخذ أمكنتنا من الجلوس في الأمكنة التي تعودنا الجلوس عليها منذ أول يوم وصلنا فيه إلى المخيام، ويكون جلالته إذ ذاك قد انتهى من مطالعة البرقيات الواردة إلى ديوانه من كافة أنحاء المملكة في شؤون الحكم والرعية، أو من غير المملكة في شؤون الدولة السياسية، وذلك أول عمل يزاوله جلالته في الصباح إذ ليس هناك من الأهمية عنده أكثر من الاطلاع على البرقيات الواردة أو انتظار أجوبة ما يرسل من البرقيات، وإصدار الأوامر البرقية بالفصل في الشؤون العاجلة السريعة وقد يكون بين

تلك البرقيات ما لا قيمة له في نظر غيره كأن تكون البرقية صادرة إلى جلالته من أحد العامة من رعاياه، ولكن جلالته يرى بكل برقية تصل إليه قيمة وأهمية حتى ولو كانت من الطراز الآنف الذكر، أو من صغير يتظلم فيها من كبير، ويتفضل جلالته بالفصل والإجابة حالاً على كل شيء من هذا القبيل من غير تردد ولا إبطاء، بل إن جلالته لا يتردد في عقاب من يثبت عليه إهمال أو إبطاء في شيء من ذلك.

ويتفضل جلالته باستقبالنا هاشاً باشاً، باسماً مرحباً بوجه تشرق منه أنوار الإيمان، وتنبعث منه أسارير البشر والاطمئنان ويبتدىء جلالته الحديث مبتسماً بالسؤال عن أحوالنا الخاصة والعامة، وعن راحتنا ووفرة صحتنا، وما إلى ذلك من الأسئلة التي تشتمل على أدق معاني اللطف وسمو الذوق وكرم المجاملة وإكرام الوفادة.

ويدور الحديث بعد ذلك في المجلس بإدارة جلالته في شتى المواضيع من خاصة وعامة، وفي شتى الأبحاث والنواحي، من دينية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وأدبية، ولا يفوت جلالته اقتناص الفرص المتاحة في سياق الحديث، لإيراد الطرف الأدبية الرائعة البريئة، وهو يصغي ويتقبل بصدر منشرح، ما يعرض في سياق الحديث من الأحاديث التي يليق التندر بها في مجالس الملوك، وقد يحدث في سياق الأحاديث ما يستثير اهتمام جلالته من المواضيع الهامة، وعلى الأخص إذا كانت متعلقة بالدين أو الأخلاق أو الآداب العامة، فيرتجل جلالته الخطاب ارتجالاً رائعاً في حماسة وإفاضة وقوة منطق وسعة حجة وتدفق بيان.

فإذا ما انقضت تلك الأحاديث الطريفة وجاء الميعاد المحدد، دخل إلى الخيمة أحد موظفي الإذاعة[٦٤] ويقرأ في المجلس نشرة الأخبار مأخوذة من جميع الإذاعات. وقل أن يمر خبر من

---

(٦٤) في قصر جلالة الملك موظفون مثقفون يكتبون الأخبار التي تذاع بالعربية وبغير العربية يترجمونها ويقرأونها في مجلس جلالته ثلاث مرات في اليوم قبل الظهر وبعد صلاة العصر وحوالي منتصف الليل، وقد كان موظف الإذاعة في أثناء هذه الرحلة هو الأستاذ عبدالعزيز ماجد، أما موظفو الإذاعة في الوقت الحاضر فهم الأستاذ أحمد خليل عبدالقادر وقد نقل إلى منصب سكرتير أول في مفوضية المملكة العربية السعودية في واشنطن والأستاذ عبدالله عمر بالخير، والأستاذ علي النفيسي، والأستاذ عبدالله بن سلطان.

هذه الأخبار من غير أن يتفضل صاحب الجلالة بالتعليق عليه أو إبداء الملاحظات بشأنه، سواء من ناحية التفكير والتعليق، أو من ناحية التاريخ والاجتماع، أو من أية ناحية تفرضها المناسبة ويستوجبها الظرف. وبعد ذلك يستأنف جلالته الحديث في أية مناسبة كانت، وفي خلال ذلك تدار القهوة العربية الجميلة، وجلالته مغرم بتناولها وهو بين كل دقيقة وأخرى يأمر بها، ففي قصره العامر يضع إصبعه على الجرس الخاص بها فلا يكون جواب ذلك إلا حضورها على أيدي سقاتها، وفي المخيام، يكفي أن يقول جلالته "قهوة" فيبادر الخدم إلى إبلاغ طلب "القهوة" بصوت جهوري واحد، إلى المكلف بتقديمها، فتقدم إلينا في خلال دقيقة واحدة، والقهوة العربية النجدية، أو القهوة الملكية على التحديد وبصفة أخص لاريّ من ظمئها، وشاربها لايشبع[٦٥] منها أبداً، فهي من حسنها وطيب نكهتها، ولذة ذوقها لاتكاد النفس تشبع منها، وهي إلى جانب ذلك، ذات دلال وتمنع، فوصلها أمنع من وصال الحسناء ليلة جلوتها، إذ إنها علاوة على ما انفردت به من الحسن ومن تلك الصفات المحببة، يضعها الساقي في كوبها الصغير، رشفة صغيرة كأنها حسوة الطائر المستوفز، أو لقطة العجلان، فإذا بك ترشف منها رشفة أو رشفتين على الأكثر، وأنت من وصالها في مطمع أو مزيد، كأنما عناها الشاعر في قوله:

رشفة بعد رشفة والتفات   كالتفاتِ القَطَا على الغدرانِ

ثم يطلبها مرة أخرى حضرة صاحب الجلالة، فتحضر لك وأنت أشد ماتكون شوقاً إليها بعد ماذقته من لذتها الأولى، لخفتها وذوقها،[٦٦] وهكذا دواليك، وليس في هذا الذي أقوله مبالغة أو تهويل، فهو شعوري، وشعور من اتصلت بهم من كثير من الأشخاص العالميين الذين أتيح لهم شهود مجلس جلالته، وتناول قهوته، والسبب في ذلك يرجع إلى دقة طهيها وبراعة إتقانه، وما فيها من الحاجات، وهناك دليل أكبر يؤيد إعجابي هذا، وهو كثرة ما يتناول جلالته منها في كل لحظة وأخرى، وليست هذه الكثرة إلا دليل

---

(٦٥) الصواب أن يقول (لايروى منها أبداً) (الدخيل).

(٦٦) الصواب أن يقول (ولذة مذاقها) (الدخيل).

الإعجاب من جانب جلالته، وليس وراء ذلك غاية لمستزيد، أو حاجة في الشهادة إلى تأكيد!

ثم يتفضل جلالته فيأمر بإحضار الشاهي، فيحضر الشاهي في أكواب لامعة مشرقة، فنتناوله ونحن في ظمأ إليه، وجلالته لا يشرب منه وإنما يأمر به إكراماً لضيوفه ولما يعلمه عن عادة المكيين في شرب الشاهي برغبة خاصة، ثم يأمر جلالته بإحضار مباخر العود والند، ومرشات ماء الورد فتدور على الحاضرين للتبخير والتعطير، وهذا يعتبر إذناً للحاضرين بالانصراف، وهو عادة تستعمل في نجد عند الخاصة والعامة ولهم فيها أقوال مشتملة على شعر ونثر وأمثلة، منها قولهم "مابعد العود قعود".

وفي الواقع أن إطلاق البخور في ختام المجلس إيذاناً بانتهائه، عادة من أظرف التقاليد التي تحل المشكلات، وبها يرتاح الضيف والمضيف، ويستريح كلاهما!!

وننصرف من حضرة جلالته بعد ذلك، حيث يعكف على أعماله العامة والخاصة ثم نقصد إلى التشرف بزيارة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد في مخيامه الخاص، ثم إلى مخيام حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك، فنتشرف بالسلام على سموه أيضاً، ونقضي في حضرة سموه مدة كالتي أمضيناها في مخيام ولي العهد المعظم، وقد تفضل الأمير فيصل منذ أول يوم تشرفنا بزيارة سموه في مخيامه الخاص، فأمر بأن تقدم إلينا أوعية كبيرة من لبن الإبل، فيأخذ كل فرد منهم إناءه، ويتبارى الرفقاء في تجرع تلك الكميات الكبيرة التي ماكان يمكن استساغة تناولها لولا ما في جو البادية من نشاط جعل الشهية تقبل من غير وعي ولا تدبر، على تناول تلك الكميات من الألبان والأطعمة واللحوم وقد تعودنا تناول تلك الكمية من اللبن ظهر كل يوم في تشرفنا بزيارة سموه، وأصبحت راتباً لا ينقطع، وكان لها أكبر الأثر الصحي في نفوس الرفقاء جميعاً.

وبعد أن ننتهي من التشرف بزيارة سموه ننصرف من لدنه، فإذا كان في الوقت سعة نقصد إلى زيارة من يتسع الوقت لزيارتهم من حضرات أصحاب السمو الأمراء، وإذا كان

الظهر قد حل وحلت بذلك مواعيد انصرافهم إلى الغداء، نعود أدراجنا إلى مخيامنا للاستراحة وتناول طعام الغداء والقيلولة.

أما كيف يقضي حضرة صاحب الجلالة بقية يومه بعد منصرفنا من مخيامه العامر، فإن جلالته يظل يصرف أمور الدولة فيما يعرض على أنظار جلالته من البرقيات والمعاملات الحكومية والرسائل، حيث يستدعي كبار موظفي قصره العامر: فهذا سعادة الشيخ محمد بن دغيثر أمين سر جلالته، ورئيس ديوان البرقيات يعرض على أنظاره ما لديه من ذلك، وهذا سعادة الشيخ عبدالله بن عثمان رئيس الديوان العالي يعرض على أنظار جلالته أوراقه، وهذا سعادة الشيخ إبراهيم بن عيدان رئيس شعبة الأرزاق، يقدم إلى جلالته ما في يده من أوراق، وهذا سعادة الأستاذ رشدي ملحس يلتقط الخطى حول جلالته لتقديم أوراقه أيضاً ثم هؤلاء أصحاب المعالي والسعادة مستشارو جلالته وكبار رجاله، الشيخ عبدالله السليمان، الشيخ يوسف ياسين، الشيخ خالد أبو الوليد، الشيخ بشير السعداوي، السيد حمزة غوث[٦٧]، يلتفون حول جلالته، مجتمعين أو منفردين، ويظل العمل متصلاً مستمراً بإدارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم إلى مابعد الساعة الخامسة بقليل، فإذا كان الظهر على مقترب، نهض جلالته وامتطى سيارته الخاصة، وسار في معيته بعض رجال الخاصة، ثم يلحق بجلالته أنجاله الأمراء، ويقصد إلى روضة من رياض ذلك الوادي، وهناك يكون لبن الإبل قد هيىء لتقديمه إلى جلالته مع قليل من التمر، فيتناوله جلالته كغذاء له[٦٨]، وذلك فقط هو غذاؤه طيلة النهار، بعد تلك الأكواب العديدة التي يتناولها من القهوة في أجزاء مختلفة من أوقات اليوم والليلة، وقليلاً ما يشتهي تناول طعام الغذاء[٦٩] الآخر من اللحم والأرز في وسط النهار، وبعد استراحة قصيرة ينهض جلالته فيمتطي سيارته قاصداً إلى الصيد والقنص والتجول في الرياض المحيطة بالوادي، فيمضي في ذلك مدة ساعتين أو ثلاث، إما في الصيد أو التنزه، وإما أن تطوف برأس

---

(٦٧) في أوائل هذا العام صدر أمر جلالة الملك بتعيين طبيبي جلالته الدكتور رشاد فرعون والدكتور مدحت شيخ الأرض، مستشارين لجلالته.

(٦٨) الصواب (غداء له) (الدخيل).

(٦٩) الصواب (الغداء)، لأن الغذاء كل طعام يتغذى به الجسم في أي وقت (الدخيل).

ذلك الأسد المغوار سنة من النوم، فيطبق أجفانه ويستسلم إلى تلك الغفوة العاجلة، مدة قد تطول وقد تقصر، يصحو بعدها جلالته متجدد النشاط، كأنه استجم في تلك الإغفاءة واستراح بها من عناء الأعمال، وبعد أداء صلاة العصر يعود جلالته إلى مخيامه العام فيشرفه في تمام الساعة الحادية عشرة أي قبيل صلاة المغرب بساعة كاملة، فيستريح قليلاً، ثم يكون طعام العشاء قد تهيأ وأعد، فيتناوله جلالته وفي معيته بعض أصحاب السمو الملكي أنجاله الأمراء، ورجال الحاشية وكبار موظفي الديوان العالي. ثم ينهض جلالته إلى أداء صلاة المغرب، ومن ثم ينصرف إلى مخيامه الخاص ليقضي بين أسرته وأنجاله الأمراء الصغار فيه ساعتين فإذا حان وقت العشاء أدى فريضتها وعاد إلى مخيام العمل.

ونظام العمل في الليل، هو أن جلالته يشرف إلى المخيام بعد صلاة العشاء، ويكون فضيلة الشيخ عبدالرحمن الجويز[٧٠] إمام جلالته حاضراً فيمضي مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل في تلاوة جزء من التفسير، وجزء من الحديث النبوي ويصغي جلالته بانتباه تام إلى ما يسمع من القراءة، وكذلك جميع الحاضرين وبعد انتهاء القراءة يتشرف الجميع بالسلام على جلالته، وتكون الساعة قد بلغت الثالثة، ويلتفت جلالته إلى ضيوفه، فيبتسم لهم، ويهش في وجوهم، ويسألهم عن أحوالهم وصحتهم، وكيف قضوا يومهم، وقد يتلطف جلالته في مداعبتهم والتبسط في الحديث معهم. ويأمر بإحضار الشاهي والقهوة، ثم يدخل الموظف المختص بأخذ أنباء الإذاعات اللاسلكية في آخر النهار وأول الليل، فيأمره جلالته بأن يقرأ مافي جعبته من الإذاعات فيقرأها وقد يتفضل جلالته بإبداء ما يعن له من الملاحظات على الأخبار ويدور الحديث بضع دقائق في أي موضوع كان تدور معه أكواب القهوة، والشاهي.

وبعد ذلك نمضي في حضرة جلالته مدة نصف ساعة مصغين إلى ما ينثره من روائع حكمه، وجوامع حكمه، وتدور الأحاديث مختلفة الطرائف والمواضيع، حسبما توجيه

---

(٧٠) الصواب (عبدالرحمن القويز) بالقاف لا بالجيم مقرئ الملك عبدالعزيز من سنة ١٣٤٩هـ إلى حين وفاته، من أسرة (القوزة) الأسرة الكريمة المعروفة في الرياض (الجاسر).

المناسبة فقد يكون الحديث عاماً وقد يكون خاصاً، وقد يتعلق أحياناً بتاريخ البلاد العربية أو بتاريخ جلالته أو بتواريخ الحوادث العامة، وما إلى ذلك من مختلف طرائف الأحاديث وسبلها الكثيرة - والحديث ذو شجون[٧١]- كما يقول الدكتور زكي مبارك صاحب هذا العنوان ومحتكره ومن الحق أن نذكر بالإنصاف دقة ما يبدو من جلالته من الملاحظات العامة أو إيراد الروايات التاريخية المعضلة المقرونة بالأرقام -إذا عرضت مناسبات لذلك - فيما يتعلق بالحوادث القريبة أو البعيدة، مما قد يعجز أقوى الذاكرات عن استيعابها والمحافظة عليها.

وتدور بعد ذلك مرشات ماء الورد ومباخر العود والند، فننهض من حضرة جلالته مستأذنين، ونعود إلى مخيامنا فنقضي الليل في سمر ممتع طويل إلى ما يشارف منتصف الليل، أو قبله بقليل أو بعده بقليل، حسبما تكون الظروف وتكون المناسبات، وقد يحضر إلينا من يزورنا من الأصدقاء في ذلك الوقت فيشاركنا ما نحن فيه من سمر وسهر.

أما حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فيظل في خيمة عمله إلى الساعة الخامسة ليلا، وهي قد تصادف منتصف الليل في بعض الفصول ويقضي جلالته ذلك الوقت كله في تصريف شؤون الدولة للفصل فيما يعرض على جلالته من الأعمال،وبعد الانتهاء من ذلك، ينهض فيغادر مخيام العمل، مشيعاً بأكرم تحية من رجال ديوانه وموظفيه وحاشيته قاصداً إلى مخيامه الخاص، وبعد استراحة قصيرة يستسلم للنوم،فينام نوماً هادئاً متصلا إلى الهزيع الأخير،وقد تتراوح مدة نومه ما بين الساعتين إلى الثلاث ساعات حيث يستيقظ جلالته قبل الفجر بساعتين فيتوضأ ويقوم إلى الصلاة متهجداً عابداً في غسق ذلك الليل البهيم الحالك إلى أن يحين الفجر، وينصرف بكليته إلى الاتصال بالله تعالى اتصالاً روحياً رائعاً في تلك العبادة الخاشعة،ثم يترقب حلول الفجر من خلال ساعته الصغيرة التي يحملها في جيبه والتي يعنى كل العناية بضبطها لإقامة الصلوات على مواقيتها، فإذا علم

---

(٧١) من أمثال العرب. قيل : إن أول من قاله ضبة بن أد بن طنجة بن إلياس من مضر وشجون: طرق. يضرب المثل في الحديث الذي يبعث على تذكر غيره انظر إلى مجمع الأمثال للميداني ١/١٩٧ (الدخيل).

أن الفجر قد حان، أمر بالأذان، فيخرج المؤذن صائحاً ويسمعه الناس في المخيام فيهبون جميعاً من سباتهم هبة رجل، وترتفع الأصوات بالأذان في كل جانب من جوانب المخيام، وتدوي بها الأرجاء من كل حدب وصوب، فإذا المخيام كله مسجد كبير يتألف من مجموعة مساجد بالنظر لاتساع رقعة الوادي وامتداد مداه، وإذا الناس كلهم قائمون بالصلاة جمعاً فجمعاً. وبعد أن ينتهي جلالته من الصلاة والعبادة والاستغفار والدعاء يظل في مكانه إلى مابعد طلوع الشمس، ثم ينهض فيصلي صلاة الضحى، ويضطجع بعد ذلك قليلاً فيستسلم إلى النوم مدة ساعة، فيغادر بعدها مخيامه لخاص إلى مخيام العمل.

وهذا الوصف الذي ذكرناه عن عادة جلالته في النوم والصحو والعمل والطعام هو العادة المتبعة التي لا يحيد جلالته من اتباعها في جميع الأوقات، إلا ما تقتضيه المناسبات أحياناً من تعديلات طفيفة ضرورية في الأسفار وأمثالها من الظروف.

نظام الروضة - أو أيام الإقامة

كان أول ما فعله الرفاق بعد أن أدوا واجباتهم المفروضة الآنفة الذكر، أن فكروا في الواجبات الأخرى التي تلي ما تقدم، فماذا يفعلون؟! ليس هناك غير الاتصال بالأهل والعشيرة، وذوى القرابة الأدنين في مكة، فلنتصل بهم برقياً لنطمئنهم على سلامة وصولنا، ولنطمئن من أجوبتهم المنتظرة على سلامة وجودهم! فقد انقضى منذ مفارقتنا إياهم سبعة أيام كاملة، يخلق الله فيها ما يريد، ويحيي فيها من الأنفس ويميت ما تريده مشيئته، فلنتصل بهم إذاً عن طريق ذلك البرق لنطمئن وليطمئنوا !! ولكن، هناك واجب هو بقية الواجبات، فقد ذكرنا إلى جانب أهلينا وذوى قرابتنا الأدنين، أولئك الذين تجشموا عناء المشقة لوداعنا، واهتموا بأمرنا كل الاهتمام من كافة طبقات الأصدقاء.[٧٢]

وفي الحال أرسلنا برقية تحمل الشكر الجزيل إلى صفوة أولئك القوم، لينوب بعضهم عن بعض في أداء ذلك الواجب باسمنا جميعاً، ثم توجهنا وجهة واجب آخر، هو الواجب

---

(٧٢) الصواب (من طبقات الأصدقاء كافة) (الدخيل).

الشخصي، فأبرق كل منا برسالة أو رسالتين إلى أهله وذوي قرابته الأدنين، وانصرف الرفاق بالخلوة إلى أشخاصهم في ساعة روحية وجدانية ممتعة، وتمثل كل منهم أقرب من يمت إليه بأوثق الصلات، وأخذ يناجيه بالقلم مناجاة الشوق والوجد ويملي عليه من أثر الوحشة في نفسه ما استطاع، وجمعت تلك الرسائل ووجه بها إلى مركز اللاسلكي ثم إلى من أرسلت إليهم، وسبحت أرواحنا معها نتخيل وصولها واستلامها[٧٣] وأثر قراءتها في نفوس الأهل والعيال!! ثم انتظار وصول الردود عليها أيضاً في أقرب وقت وأقصر آن!!

وانقضى اليوم الأول، أو الشطر الأكبر منه على المنوال الآنف الذكر، ونحن مانكاد نفيق من لذة ما نحن فيه من نشوة! أولاً: لسلامة الوصول إلى الغاية المقصودة والتشرف برؤية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وما غمرنا به من عطفه السابغ، ولما للديار من لذة الجدة والطرافة، فهذه هي نجد، وهل نحن حقيقة في نجد؟! أجل هذه نجد فسائل ربي نجد... وكذلك من كان في رفقتنا من الحاشية والخدم، كان الطرب يرقصهم بنشوة ماهم فيه من لذة الجدّة والطرافة، وكانوا يتبارون في سرور ومرح إلى قضاء ماهو في أعناقهم من واجبات.

وفي الأصيل أخذنا نترقب زيارة من نحب من الأصدقاء، وكرام الإخوان المحبين ممن هم في خدمة حضرة صاحب الجلالة من الحاشية، وكبار الموظفين، وكنا قد أنشأنا مسجداً أمام مخيامنا نجتمع فيه من بعد صلاة العصر إلى أن نصلي فيه المغرب والعشاء، أو نخلص منه إلى خيمة كبيرة خاصة "سرداق" أعددناه لاستقبال الضيوف ولأداء صلاة الصبح -حين يكون البرد شديداً- فكان كلا الموضعين مسجداً ومضيفاً، أحدهما للصيف والآخر للشتاء حسبما تكون عليه ظروف الجو، من الحر أول القر!! ولم يطل بنا المقام، حتى خف إلى زيارة مخيامنا زمرة من أولئك المحبين الأصدقاء،وفي مقدمتهم أصحاب المعالي والسعادة الشيخ يوسف ياسين، والسيد حمزة غوث، وبشير بك السعداوي، والأستاذ رشدي بك ملحس، وغيرهم من كرام الأصدقاء وكبار الرجال. أما الشيخ عبدالرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية فقد كانت زيارته لنا لاتنقطع بين إصباح

---

(٧٣) الصواب (وتسلمها) (الدخيل).

وإمساء، إما ليؤدي واجبه الشخصي أو واجبه الرسمي في الزيارة والوقوف على شؤون راحتنا، وإكرام وفادتنا، وتكرير الترحيب بنا، وانتظمت بعد ذلك الزيارات وتكررت بيننا جماعات وأفراداً، وبين أولئك الأصدقاء طيلة مدة الإقامة في الروضة، وكان أكثرهم اختلاطاً بنا بعد ذلك الطبيب الماهر المجاهد الدكتور محمد علي الشواف[٧٤] وكان منتدبا للعمل هناك يومئذ وهو يشغل منصب مدير صحة المدينة المنورة الآن.

وظلت إقامتنا في روضة الخفس مستقة على هذا المنوال، صلاة الفجر حين يحل وقتها، وتنزه في الصحراء مع الصباح الباكر، والعودة العاجلة إلى انتظار حليب الإبل والتسابق إليه أو التهافت عليه، ثم التعريج إلى تناول الشاهي، والفضل فيه لسعادة الشيخ عباس قطان، حيث وكل به موظفاً أخصائياً من قبله يجيد طهيه وتقديمه، كما كان بطل حليب الإبل، والبراعة في تناوله، واليقظة في تقسيمه فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي، سليل البادية، وسليل العروبة، وسليل الصحراء. ثم تناول طعام الإفطار، واستراحة قصيرة تذهب بعدها إلى السرادق الملكي للتشرف بزيارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، وأصحاب السمو الملكي أنجاله الأمراء إلى الظهر، ثم العودة إلى المخيام وتناول طعام الغداء والقيلولة إلى العصر، ثم استقبال من يفد من الأصدقاء للزيارة، أو الخروج إلى الصحراء والرياض للتنزه، ثم تناول طعام العشاء، بين المغرب والعشاء والذهاب إلى خيمة

---

(٧٤) كان الدكتور محمد علي الشواف، قد أهدى إلي في محرم عام ١٣٥٢هـ صورته، وقد كتب تحتها بخط يده الأبيات الآتية:

إلى وادي "حماة" يحن قلبي ... حنين المرضعاتِ إلى بنيها

فأعشى إن ذكرت الدار شجو ... أوتحسر مقلتي فأزيد تيها

فعكس الشمس يظهر ما بنفسي ... من الشوق العظيم إلى ذويها

ويهديها التحية من معنّى ... يكابر أن يرى الأغيار فيها

فكتبت له تحتها هذه الأبيات

سل الشوق عن حب الديار فإنه ... مثارُ حنينِ النازح المنطوح

سبتك "حماة" بالحنين وطالما ... سباتي إلى "البيت" الحنينُ البرحُ

لم أجد البيتين في وحي الفؤاد، وفي البيت الثاني إقواء (الدخيل).

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم والعودة بعد ذلك إلى المخيام لتمضية الشطر الأكبر من الليل في سمر ممتع طريف، وقد تفضل علينا حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد المعظم فأهدى إلينا جهازاً لاسلكيا لنتسلى به في السمر، ونستمتع منه بسماع ما تحمله إلينا موجاته من الإذاعات المختلفة وأهمها القرآن الكريم، والمحاضرات الشائقة في جميع المواضيع، والأخبار الطريفة من كل بلد في أنحاء العالم! وكانت هذه المنحة من سموه بليغة الأثر في تاريخ إقامتنا في الروضة لما كان فيها من الإعانة على قضاء الليل والإعانة على سمره وسهره، وكثيراً ما كنا ننشد مع أبي العلاء بلسان الحال قوله:

يا ساهدَ البرقِ أيقظ راقدَ السمرِ لعلّ بالجزعِ أعواناً على السهرِ[٧٥]

أو كنا ننشد ذلك بلسان العمل، فيعمد بعض الرفاق إلى إيقاظ من رقد منهم باستعمال أساليب القوة والدعابة حتى يكمل السمر، ونستجمع قوة الاستعانة على السهر، ويطول الحديث في شتى أبوابه وأنواعه ومناحيه، حيث كان الحنين قد أخذ يدب في مساربه من النفوس.

ولا يخلو بين الرفاق من وجود أدباء وغير أدباء من المغرمين بالقراءة، والغرام بالقراءة داء دفين شديد التسلط على النفس لا يعرفه إلى من ابتلى به، وإن كاتب هذه السطور مطبوع على حب القراءة كلف بها، بل إن كلفه بها يذهب بطيب المنام من أجفانه، ففي الصباح الباكر لابد من المطالعة، وفي الظهر بعد تناول طعام الغداء لابد من المطالعة قبل الاستعداد للنوم والقيلولة، وإن لم تتيسر المطالعة فلا نوم ولا قيلولة! وفي الليل لابد من السهر والسمر، أما السمر فليس هو غير المطالعة وإلا فلا نوم ولا هدوء، ورحم الله القائل:[٧٦]

---

(٧٥) مطلع قصيدة له في سقط الزند: ٥٦ (دار صادر، بيروت) (الدخيل).

(٧٦) هو أحمد شوقي، الشوقيات: ١٨/٢ (الدخيل).

أنا من بدّل بالكتب الصحابا ... لم أجد لي وفيا إلا الكتابا

صاحب إن عبته أو لم تعب ... ليس بالواجد للصاحب عابا

كلما أخلقته جددني ... وكساني من حلى الفضل ثيابا

صحبة لم أشك منها ريبة ... ووداد لم يكلفني عتابا

رب ليل لم نقصر فيه عن ... سمر طال على الصمت وطابا

كان من هم نهاري راحتي ... وندامای ونقلي والشرابا

إن يجدني يتحدث أو يجد ... مللا يطوى الأحاديث اقتضابا

تجد الكتب على النقد كما ... تجد الإخوان صدقا وكذابا

فتخيرها كما تختاره ... وادخر في الصحب والكتب اللبابا

صالح الإخوان يبغيك التقى ... ورشيد الكتب يبغيك الصوابا!

ومن المغرمين بكثرة المطالعة[٧٧] في زملاء الرحلة سعادة السيد صالح شطا، وسعادة الشيخ عبدالرؤوف الصبان، وهذا الأخير كل ما اصطحبه معه من مكتبته الحفيلة هو قاموس المنجد! والمنجد كفيل بأن يقطع للقارىء فراغ شهر، بل وفراغ عام! أما السيد عبيد مدني الشاعر الأديب فلا شك أنه من المغرمين بالمطالعة، ولكنها مطالعة النهار دون الليل، إذ هو لا يقوى كثيراً على القراءة ليلاً، ويلوح أنه لهذا السبب لم يصطحب معه غير النزر اليسير، وهناك شيخ المغرمين بالمطالعة وفارسهم المجد، وهو فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي، وغرامه بالمطالعة غرام اجتماعي طريف يلوح أنه تأثر به من الناحية التعليمية الدينية التي من دأبها أن يجلس الشيخ للقراءة الجهرية في حلقة الدرس على مستمعيه من طلاب وغير طلاب، ولهذا كان فضيلته لا يقرأ لنفسه بل يقرأ للجميع، ويدعوهم إلى الإصغاء لما يقرأ، وكثيراً ماكان السمر الممتع في النهار أو الليل لا ينقضي إلا بحلقة

---

[٧٧] الأصوب (من) (الدخيل).

واسعة يتصدرها الشيخ ويقرأ فيها ما نقترحه عليه من المواضيع أو ما نقدمه إليه من الكتب أو المجلات والصحف، وقد يتعمد البعض إحراجه ومضايقته على سبيل الدعابة والفكاهة وقطع الوقت، بالأسئلة المتلاحقة التي لا يكون لها أي محل من الإعراب، بغرض استثارة الشيخ أو استفزازه والشيخ مسترسل في قراءته، غير متوقف في إجاباته ولا متحرج، مهما طالت الأسئلة ومهما كان العنت ظاهراً فيها، وبذلك ينقضي وقت طويل من ألذّ أوقات المطالعة أو السمر، وهو لا يخلو من فائدة على كل حال، وقد تتحقق تلك الفائدة إما من سماع ما في الكتاب، وإما من جدل الأسئلة وما تؤدي إليه من الأجوبة. أما الشريف شرف فقد كان من الذين يديرون دفة الجدل، بكل ما يتطلبه ذلك من المهارة، وما يحتاج إليه من أساليب المداورة والإيقاع، ثم هو بعد انطلق شاعراً، فكان لا يكاد يتكلم إلا بالشعر، وتكاد كل عبارة من لسانه تجري بشطرة من بيت أو ببيت من شطرة -أرجح هذا التعبير- وكنا نهنئه كثيراً بهذا الفوز العظيم وكان يداعب زملاءه الشعراء بهذه الظاهرة الرائعة، ويقول لهم: إنني سأرجع من هذه الرحلة شاعراً، إن لم أتفوق عليكم في مراتب الشعر، فلا أقل من أن أساويكم فيها، أما شيخ الرواة، وشيخ المحدثين، فهو السيد عبدالوهاب نائب الحرم ومدير الأوقاف الذي كان عليه القسط الأوفر من السمر وإدارة المجامع، وكان إذا تكلم أنصت الجميع ماشاء الله أن يسترسل من الساعات قلّت أو كثرت حسبما تكون عليه الظروف والمناسبات، وذلك الإنصات في شغف ولهفة وتزيّد، بحيث لا يتطرق الملل ولا السأم إلى النفوس إلا إذا حان وقت المنصرف إلى عمل من الأعمال، يقطع تلك السلسلة التي لا انتهاء لها!!!

أمراء آل سعود

ولقد كانت لنا جولات في زيارة حضرات أصحاب السمو الملكي أمراء آل سعود وفي مقدمتهم إخوان جلالة الملك وأنجاله وغيرهم من أمراء هذه الدوحة الزكية الكريمة. من كان منهم في روضة الخفس في معية جلالة صاحب الجلالة، ومن لم يكن منهم في معيته وتشرفنا بزيارته عند وصولنا إلى الرياض. ولا أجد أسعد من هذه المناسبة المتاحة للتحدث عن بعض حضراتهم، بعد أن أجملت الحديث في فصل سابق عن "الأدب السعودي" إشارة إلى ما تحلوا به جميعاً من كرائم الصفات، وجليل المآثر. ولقد كان من

حسن حظي أن سعدت في بعض الظروف قبل هذه الرحلة وبعدها، بصداقة بعض حضراتهم والتعرف الشخصي ببعضهم، ومخالطتهم عن كثب، فلمست فيما وجدت خير ما تقع عليه عين المشاهد من مباهج القلب والنفس، وفيما أجملت الإشارة إليه في الحديث عن الأدب السعودي، لمحة من ذلك ولقد كنت أزداد سعادة لو أن ظروفي الماضية شرفتني بالتعرف الشخصي، والاتصال الكريم بحضراتهم جميعاً حتى كنت أستطيع أداء واجب الكتابة عنهم واحداً فواحداً، حسبما أشتهي أن أظفر بتسجيله من كرائم المعلومات، وطرائف المخبآت.

فأما وأن الظروف لم تسعدني بذلك في الماضي، فالأمل -إن شاء الله- أن يصلح العطار ما أفسد الدهر، وأن أظفر من أماني بما أريد، وليس ذلك على الله ببعيد!! على أن الذي أريده من وراء ذلك سوى تسجيل ما أسلفت الإشارة إليه من مواضع القدوة في خلقهم الكريم، تدارك ما فاتني تعرفه في بعضهم فيما تقدم من الأيام.

الأمير عبدالله بن عبدالرحمن:

ومن أبرز أمراء آل سعود، سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، أخو جلالة الملك المعظم، وهو أمير مرموق المكانة، ملحوظ العناية، بارز الصفات، قوي الشخصية، وله علاوة على هذه الميزات التي حباه بها الله وجمله بها، صفات أخرى جليلة القدر، لمكانته العلمية، وشغفه بالعلم، فهو واسع الاطلاع ملم بشؤون الدنيا، بصير بأمور الحياة، وله مكانة مهيبة موقرة.

سألت سموه مرة عن إحدى المجلات وعما إذا كان يطلع عليها ويقرأها، فتفضل بإجابة زادت معرفتي بتقديره للعلم والمطالعة المثمرة المفيدة، حيث قال ما معناه: إنه لا يطالع إلا صفوة مختارة من الصحف لأن وقته لا يتسع لقراءتها جميعها، ذلك بأن الصحف فيها ما فيها من الغث والسمين فلو عني بمطالعتها كلها لما وجد وقتاً لمطالعة الكتب المختارة التي تحمل رياض العلم وأفانين المعرفة! وقد عرف واشتهر عن سموه أنه شغوف بالمطالعة والقراءة والاطلاع، ولكن على كل نافع مختار من الكتب، لا على كل ما يطبع وينشر!! ولسموه مكتبة حفيلة يعنى بها عناية خاصة جعلت لها مكانتها وتقديرها.

وجلالة الملك يحبه ويقدره، ويقدر فيه الصفات الآنفة الذكر، ولذلك قلما تراه يفارق مجلس جلالته في الحل والترحال. ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء فهد، وسعد، ومصعب، وفيصل، ويزيد، ومحمد، وعبدالرحمن، وخالد، وسعود، وبندر.

أنجال جلالة الملك:

وأنجال جلالة الملك حفظه الله، وأطال في حياتهم في ظل جلالته، هم حضرات أصحاب السمو الملكي حسب ترتيب أعمارهم:

سعود. فيصل. محمد. خالد. ناصر. سعد. منصور. فهد. عبدالله. بندر. مساعد. عبدالمحسن. مشعل. سلطان. عبدالرحمن. متعب. مشاري. طلال. بدر. تركي. نواف. نايف. فواز. سلمان. ماجد. ثامر. عبدالإله. أحمد. سطام. ممدوح. هذلول. عبدالمجيد. مقرن.

الأمير سعود ولي العهد:

والأمير سعود هو النجل الأكبر لصاحب الجلالة، وهو ولي عهد المملكة العربية السعودية، وسموه معروف للعالمين: العربي والأوروبي، أولاً: لأن كبراء المسلمين الذين زاروا البلاد المقدسة تشرفوا بمعرفة سموه في تلك البلاد أثناء حجهم، وثانياً: فإن سموه زار الهند والبلاد الأوربية مرات تشرف أثناءها كثير من ساسة العالم وكبار رجاله بمعرفة سموه معرفة وثيقة عن كثب، وقد لمسوا فيه ما يعرفه الجميع من دماثة خلقه الكريم، وسعة اطلاعه، وكريم صفاته، بما هو مطبوع به على فطرة جلالة والده العظيم، وقد ألمحنا في فصل سابق ببعض الصفات الكريمة التي يتحلى بها خلقه الكريم. ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء عبدالرحمن، ومحمد، وخالد، وفهد، وسعد، وفيصل.

الأمير فيصل نائب جلالة الملك:

والأمير فيصل هو النجل الثاني لصاحب الجلالة، وهو نائب جلالته في الحجاز، ورئيس مجلس الوكلاء، ووزير الخارجية، ورئيس مجلس الشورى. وقد أسبغ الله على سموه من مكارم الأخلاق الشيء الذي لا يبلغه وصف كاتب ولا بلاغة بيان، ولقد انعقد إجماع القلوب على محبته وتقديره، والنظر إليه نظرة الاطمئنان، والوثوق بعدله وعطفه بما لم

يسبق أن ظفر به حاكم من قبل، ذلك على ماحباه الله من العلم والثقافة والمعرفة وسعة الاطلاع وحسن البصر بالأمور وهي صفات جعلته موضع إعجاب كل من رآه في العالمين: العربي والأوربي، وقد زار سموه البلاد العربية والأوروبية مرات عديدة كان في كل مرة منها قطب الرحى وملتقى المجامع، وكعبة الآراء.

ولسموه من الأنجال الأمراء، عبدالله، ومحمد، وسعود، وخالد، وفهد، وعبدالرحمن، وسعد، وبندر.

الأمير محمد بن عبدالعزيز:

والأمير محمد، ثالث أنجال صاحب الجلالة، وهو يحمل لقب "أمير المدينة" وسموه من أبرز أمراء آل سعود وله من صفات إخوته ما أثر عنهم من كريم الخصال وجليل الصفات، وكما أن سموه عرف بالفروسية، وله ولع خاص بركوب الخيل، عرف بالشجاعة والإقدام والحزم وأصالة الرأي.

وقد قام سموه برحلة إلى اليمن في سفارة خاصة موفداً من قبل حضرة صاحب الجلالة والده العظيم في شهر صفر ١٣٥٩هجرية مارس ١٩٤٠ميلادية وقد قدم من نجد إلى مكة في ذلك التاريخ فاحتفى بمقدمه الكريم وأقيم لاستقباله احتفال جليل ألقيت فيه القصائد الآتية:

مشت (الرياضُ) وماستِ (البطحاءُ) وهفَتْ إليك بقلبها (صنعاء)[٧٨]

واستبشرت بك في (السفارة) أمةٌ يحدو أمانيها -الجسام- رجاءُ

هي في يديك أمانة - مرموقة تشدو بها الأجيال والآناء

فاسلك طريقك واستبقْ في حلبةٍ فيها الهدى والعزة القمساءُ

---

(٧٨) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية، للدكتور مسعد بن عيد العطوي، ص: ٣٩١ (الدخيل).

وأفض هنالك بالحديث مودة ... تشذى بها الأصقاعُ والأرجاءُ
واشدد من (القربى) وشائج وصلها ... واسطع فإنك كوكب وضاءُ
وخذ القلوب فأنت بين صميمها ... ولنحن بين يدى رضاك فداءُ
وأشد صروحَ الحب بين جوانحٍ ... هي (للعروبة) كلها - أحناءُ
وانعم وعد للشعب أعظم وافد ... تدنو به الآمالُ وهي رخاء
وعليك من (سر الأبوة) مظهر ... ينمى إليه المجد والخيلاء
عاش الأمير ابن المليك (محمد) ... وبنو أبيه القادة الأمراءُ
وليحيا للإسلام ملجأ أهله ... (عبدالعزيز) ،وآله النجباء

مكة في ٤ صفر ١٣٥٩هـ

أحمد إبراهيم الغزاوي

❖❖❖

قدمت فهذا الشعب بالبشر يخفق ... يرف عليه اليمن منك ويشوق[٧٩]
تطالعه من حسن لقياك بهجة ... يزيد سناها ضوؤك المتألق
فمن في جوار البيت نحوك شيق ... ومن في ربى نجد وصنعاء شيق
وما نحن إلا أمة عربية ... يؤلفها دين وأرض ومنطق
وما نحن إلا أمة عربية ... تألفها جسم وروح ومفرق
وما نحن إلا ذلك الجسد الذي ... إذا ما اشتكى عضو يميد ويطرق

---

(٧٩) وحي الفؤاد (ديوان المؤلف): ٩٢ (الدخيل).

فسر لبلاد سوف تلقى بساحها ... كرامة ذي القربى برؤياك تشرقُ

إلى الجيرة الأدنين والإخوة الألى ... جرى الود فيما بيننا يتدفق

وهل في صلات الود أوكد غاية ... من الدين والفصحى رباط موثق

فبلغ إلى الشعب الشقيق تحية ... تعبر عن صدق الوداد وتعبق

فأنت رسول الخير ما بين أمة ... موحدة، بالله والدين تعلق

وأنت ابن ذياك المليك وشبله ... وإن أباك العبقري الموفق

مكة في ٤ صفر ١٣٥٩هـ

فؤاد شاكر.

وقام سموه بمهام هذه السفارة خير قيام وعاد منها عودة كريمة فاستقبل في الحجاز بحفاوة بالغة كبرى وأقيم لاستقباله حفل جامع مشهود، ألقيت فيه القصائد الآتية:

يا قادماً - ويد الرحمن - تكلؤه ... والشعب يرمقه، والعين والأذن!![٨٠]

ويابن من لو هتفنا باسمه شرفاً ... تلفت الدهر-عجبا- وهو مفتتن!!

ويا أخا كل منصور - بفيلقه ... بك (الحجاز) تهادى وازدهى (اليمن)!!

إني شهدتك في (صنعاء) من أمم ... حيث المكارم في أكنافها سنن!!

وبين برديك من (عبدالعزيز) فتى ... تميد من حوله الدنيا ويتزن!!

فبادلتك سلاف الود صافية كؤوسه ... وهو في الأعماق مكتمن!!



(٨٠) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية، ص: ٩٣٢ (الدخيل).

واليوم ترنو لك الأبصار شاخصة — و(الدين) و(المجد) و(التاريخ) و(الوطن)
رفت عليك -ولما تدر- أفئدة — تكاد من وجدها تجري بها السفن!!
ظلت تواكب سيف البحر جائمة — من (اليمامة) حتى استبشرت (عدن)!!
ترود فيك (الرياض الحو) خافقة — وفي يمينك من أعراقها رسن!!
فلم تغب عن قلوب في جوانحها — حللت منذ تجلى وجهك الحسن!!

❖❖❖

فاستنطق الأفق يشهد أنها انطلقت — وكلها لك في أسرارها منن!!
وانظر إلى أمة خفت إليك ضحى — كأنك الشمس في أعقابها الزمن!!
مشت إليك بها الأرواح شادية — كأنما هي طير شاقه الفننُ!!
ودت لو أنك تجزيها بما احتملت — فيك (الإقامة) مما شفها (الظعن)!!
وقد وعدت فأنجز فيك مأملها — فما لو عدك مهما سمته - ثمن!!
واسكب عليها ضياء منك تقبسه — حتى تفيض به الأرجاء والمدن!!
واقبل تهانئنا كالروض رق به — حب الغمام - فراق الزهر والغصن

❖❖❖

وابلغ (ملاذ بني عدنان) قاطبةً — تحية ماؤها الإخلاص والشجن
تأرجت بعبير الشوق - عابقة — بها الشواطىء و (الدارات) والقنن
تزجى من الشوق آيات مرتلة — كما صفا الطل وانهلت به المزن

وقـل هنـالك فـي (أم القـرى) شـغف — هيهات يحكى مدى استشرافه (حضن)

تنـافس القـوم فـيه واسـتووا فرقـا — كما استوى في هـواك السـر والعلـن!!

مـازلت ترفـل فـي النعمـاء وارفـة — ظلالهـا - وبـك التوفـيق - مقـترن!!

مكة المكرمة ١٣٥٩/٣/١٠هـ

أحمد إبراهيم الغزاوي

أقبلـت وضـاح الجبـين — كـالليث يخطـر فـي العريـن[٨١]

متـهلل القسـمات فـي — وضـح مـن البشـر المبـين

أديـت حـق "سـفارة" — عـزت نفـوس المخلصـين

أنعـم بشـخصك مـن وفـي — فـي سـفارته أمـين

أدى الرسـالة حقـها — أو زاد فـيها مـا يبـين

شـأن الرزيـن إذا انـبرى — لرسـالة الـرأي الرزيـن

❖❖❖

أرأيـت يـا مـوالاي مـن — صـور تبـدت لليقـين؟

أرأيـت مـن صـدق الـولاء — وصـدق مبعثـه المبـين؟

هـو ذاك بعـض ولاء شـعب — فـي محبتـه أمـين

فلأنـت منـه فـي الجوانـح — كـامن أو فـي العيـون

---

(٨١) وحي الفؤاد: ٩٣ (الدخيل).

هـو فـي محبته لعرش — أبيك محمى القرين
أولاه محض الود والإخلاص — والحب المكين

❖❖❖

أولست غصناً مثمراً — في دوحة الملك الأمين؟
وابن المليك المفتدى — وأخا الرجال النابهين؟
عبدالعزيز وحسبه — مافيه من تقوى ودين!
عبدالعزيز وحسبه — أنجاله في المتقين
أنعم به وبهم حماة — العدل في البلد الأمين
دامت مفاخره مؤيدة — على مر السنين

١٠ ربيع الأول ١٣٥٩هـ

فؤاد شاكر

وقد عانينا بإثبات هذه الأبيات لما فيها من التعبير الصحيح الصادق عن صفات الأمير محمد ونبل سجاياه. وهو تعبيرغاية في الاقتصاد. ولسموه من الأنجال الأمراء فهد، وبندر، وعبدالله، ونجله الأمير فهد هو أكبر أنجاله وهو أمير مهذب مثقف له شغف بطلب العلم والمطالعة، دائب القراءة والاطلاع على الصحف والمجلات والاتصال بالعالم وله منزلة أدبية علمية خاصة.

الأمير خالد بن عبدالعزيز:

والأمير خالد بن عبدالعزيز هو النجل الرابع لجلالة الملك وهو من أبرز أنجال جلالته، وهو كإخوانه الأمراء في المعرفة والثقافة وسعة الاطلاع، وقد سبق له أن زار البلاد الأوربية والأمريكية مع أخيه الأمير فيصل، كما سبق له أن تولى الوكالة عن نائب جلالة الملك

في الحجاز في إحدى رحلات سموه خارج المملكة وهو أمير محبوب لما امتاز به من رقة الخلق وعلو الهمة، وله من الأبناء الأمراء عبدالله وبندر.

الأمير ناصر بن عبدالعزيز:

والأمير ناصر هو النجل الخامس لجلالة الملك، وهو من أبرز أنجال جلالته، ويتولى سموه إمارة الرياض عاصمة نجد، وهو أمير جليل مرموق المكانة، ويشارك إخوانه الأمراء في السمات التي اتصفوا بها من المكارم وجليل الصفات ولسموه من الأبناء الأمراء سعد وخالد وسعود وبندر.

الأمير سعد بن عبدالعزيز:

والأمير سعد بن عبدالعزيز هو النجل السادس لصاحب الجلالة، وهو أمير جليل الصفات، له من صفات آل سعود ما عرفوا به من مكارم الخلق وعلو المكانة وجلال القدر وهو من أبرز أنجال صاحب الجلالة، وله نجل هو الأمير فهد.

الأمير منصور بن عبدالعزيز:

والأمير منصور بن عبدالعزيز هو النجل السابع لجلالة الملك، وقد عرف سموه لجميع سكان المملكة العربية[٨٢] لما اشتهر به من الصفات الجليلة المهيبة الكريمة، وأهمها: الشجاعة والإقدام وحسن الرأي، وقد أسند إليه صاحب الجلالة، منصب وزير الدفاع في عام ١٣٦٣هجرية، فقام بأعباء هذا المنصب خير قيام، ونهض بوزارة الدفاع نهضة حيوية كبرى حتى دبت فيها روح النشاط، وأخذت مكانتها اللائقة بها، ويعود الفضل في ذلك إلى نشاط سموه وإقدامه وهمته العالية. وفي عام ١٣٦٤هـ أسند إليه صاحب الجلالة رتبة "الفريق الأول" فكان جديراً بأن تزدان بسموه هذه الرتبة، كما ازدانت به من قبل مرتبة الوزارة. وفي خلال هذين العامين، سافر سمو الأمير فيصل إلى أمريكا وأوروبا في

---

(٨٢) الصواب (وقد عرف جميع سكان المملكة العربية السعودية سموه...) لأن بناء الفعل للمجهول مع ذكر الفاعل خطأ ظاهر (الدخيل).

رحلات متعاقبة عديدة، فقام سموه بالوكالة عن نائب جلالة الملك خير قيام، ونهض بأعباء الحكم في الحجاز وإدارة دفة الأمور على أحسن وجه وأكرم منوال، حتى حاز سموه الإعجاب من جميع الطبقات، واستولى على الألباب بما أبداه من الحنكة والرزانة وحسن البصر بالأمور، وذلك كله إلى جانب عمله الآخر في وزارة الدفاع، وإلى جانب خدمته كابن لوالده صاحب الجلالة مدة وجوده في الحجاز أيام الحج. وقد استولى الأمير منصور على القلوب إلى جانب استيلائه على العقول بما ظفر به من محبة بعد ما ظفر به من إعجاب، وإن من أروع ما يثلج صدر كل مؤمن مخلص أن يرى الأمراء أبناء جلالة الملك موضع تقدير الناس وحبهم بما ينتزعونه بأعمالهم ومجهودهم من ذلك التقدير وذلك الحب، وإنهم لجديرون كل الجدارة بذلك، بانتسابهم إلى صاحب الجلالة، وبأعمالهم المجيدة الخالدة، وصفاتهم الطريفة التالدة.

وقد سافر سموه إلى الهند وفلسطين وسوريا ومصر، وكان في كل مكان زاره موضع الإعجاب والتقدير.

وفي اليوم الذي تولى فيه سموه أعمال الوكالة عن نائب جلالة الملك، أقيمت حفلة بعد صلاة الجمعة في دار الحكومة أنشد فيها الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي بين يدي سموه الأبيات الآتية:

(منصور) يا ابن (أبي الصقور) — وأخا البواشق والنسور

أنتم كواكبنا التي — يزهو بها فلك العصور

من غاب منكم لم يغب — إلا ليطلع في (حبور)

غمر (التفاؤل) أمة — بسمائها تبدو (البدور)

نرجو لك التوفيق فيما — تصطفيه من الأمور

وقد عقب فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي، سادن بيت الله الحرام، وعضو مجلس الشورى على ما تقدم بالكلمة النفيسة الآتية التي اشتملت على وصف صادق لكثير من سمات الأمير وخصاله.

"مهما أحسن الناظم ومهما أسهب الناثر فإنه لايبلغ بإحسانه وإسهابه ما تحليتم به من خلق كريم وسجايا عالية، وإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتولى إعانتكم وتوفيقكم، وأن يحفظ للجميع حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم وسمو أنجاله الأشاوس.

لقد جبلك الله على الطلاقة والبشر، وآتاك إلى ذلك العزم المدرع، والقلب المطمئن المشيع، ووهبك الذكاء النادر، والشجاعة الخارقة، والإيمان الصادق، واليقين الثابت، تلك الأخلاق القويمة الممتازة التي هي غرة في سجل المفاخر، والتي تضيء بها آفاق الجزيرة العربية.

وأي غريب في ذلك وأنت ابن (عبدالعزيز) إنما أنت وإخوتك الأشاوس سر أبيك المفدى، ذلك الأسد الهصور الرابض على آجامنا، والمتغلغل حبه في صميم أفئدتنا وأعماق أكبادنا.

إننا لنشعر بالغبطة تملأ قلوبنا حينما نرى سموكم تنهضون بالأعباء الكبيرة والمهام الخطيرة، وتقيمون البرهان تلو البرهان، والدليل إثر الدليل على عظيم استعدادكم لممارسة الشؤون العامة، وكل مافيه خير البلاد وسعادتها.

يا سمو الأمير إننا في الوقت الذي نشعر فيه بأشجان الفراق تعتلج بين جوانحنا بمغادرة سمو أخيكم المعظم النائب العام كلأه الله وركبه المحروس بعنايته الصمدية، لتعترينا هزة من الفخور والزهو والارتياح أنكم تسدون مكانه وتملأون الفراغ الذي يحدثه غياب سموه، وتثبتون للشعب قاطبة أنكم لا تدخرون وسعاً في احتمال المشاق، وتذليل الصعاب في سبيل إنعاشه وإنهاضه وسعادته.

وفي اليوم الذي أسندت فيه إلى سموه وزارة الدفاع أنشدت بين يدي سموه الأبيات الآتية:

بمثلـك تُزْدهـى رُتـب المعـالي ... وزيـر المشرفـية والمـوالي[٨٣]

وبـاسمك وهـو منصـور مفـدّى ... تُزَلْـزَل فـي الوغـى صُـمّ الجبـالِ

ومـالِيَ لا أقلّـد جيـد شِـعري ... ثنـاءَك وهـو مـن أغـلا الـلآلي

وأنـت ابـن المليـك وخـير مَلْـك ... أتـى فـي عصـره فخـر الأوالي

وأنـت أخـو البُطُولـة مـن (سـعود) ... (وفـيصل) والشُّبُولة فـي الكمـال

ومَـن (عبدالعزيـز) لـه مثـال ... لـه مـن مجـده أغـلا مثـال

١٤ محرم سنة ١٣٦٤هـ

فؤاد شاكر

وفي اليوم الذي أسندت إلى سموه رتبة الفريق الأول، ألقيت بين يدي سموه هذه الأبيات:

بـك ازدهـت فـي ذرى عليائـها الرتـبُ ... كما ازدهـى بـك فـي أمجاده الحسبُ

فاهنـأ بـأنك "منصـور" وقـد ضمنـت ... لـك السـعادة باسـم الله والغَلَـبُ

قيـل الفريـق: فقلنـا أيّ مرتبـة ... تدنـو إليـك وقـد زينـت بـك الرتـبُ

نيطـت بمجـدك أمجـاد مؤثلـة ... تطلّعـت نحوهـا مـن أفقـها العـربُ

ألسـت شـبل أبـي الأشـبال قاطبـة ... حـامي العريـن ومنـه المعقـل الأشـبُ؟!

هـو المليـك لأهـل الضـاد أجمعـهم ... وإنـه لهـو فـي الحادثـات أبُ

١٨ من ذي الحجة ١٣٦٤هـ

فؤاد شاكر

---

(٨٣) وحي الفؤاد ص :٩١. وصواب الكلمة في الشطر الأول (تزدهي) (الدخيل).

الأمير فهد بن عبدالعزيز:

والأمير فهد بن عبدالعزيز، هو النجل الثامن لجلالة الملك، وهو أمير رقيق الحاشية رشيق يشترك مع إخوانه الأمراء في صفات من المحامد وكريم الخصال، هي من ميزات هذه الأسرة الكريمة، وهو كثيرالحياء، وسيم الطلعة كإخوانه الأمراء، وقد سبق له أن سافر إلى أمريكا وأوروبا في رحلة مع سمو الأمير فيصل وقد زار مصر في معية والده الملك المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير عبدالله بن عبدالعزيز:

والأمير عبدالله بن عبدالعزيز هو النجل التاسع لجلالته، وهو من الأمراء المحبوبين، وهو يشترك مع إخوانه الأمراء في تلك الصفات الجليلة التي هي ميزات هذه الأسرة الكريمة، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم، وأهدى جلالة الملك فاروق الأول إلى سموه الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير بندر بن عبدالعزيز:

والأمير بندر بن عبدالعزيز، النجل العاشر لصاحب الجلالة من أذكى الأمراء يتحلى بصفات كريمة هي ميزات أسرة آل سعود، وكان في معية جلالة والده المعظم في زيارته لمصر في هذا العام ١٣٦٤هـ وأهدى إلى سموه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير مساعد بن عبدالعزيز:

والأمير مساعد بن عبدالعزيز، أمير له مكانة أدبية خاصة وقد برز في عالم الأدب وبلغ فيه درجة رفيعة، وهو كثير الشغف بالمطالعة والقراءة والدراسات الأدبية، كما أن له صلة بالعالم عن طريق المنبر العام الذي هو منبر الصحافة، إذ أن سموه مشترك في كثير منها وتصل إليه أعدادها بانتظام، ولسموه اهتمام كبير بمسايرة شؤون العالم لما وهبه الله من سعة المدارك، وعلو الهمة، والشغف بالعلم والتعليم، فهو ملم بأمور الدنيا لاتكاد تفوته

من أحوالها شاردة ولا واردة. وقد سافر إلى مصر في معية جلالة والده المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير عبدالمحسن بن عبدالعزيز:

والأمير عبدالمحسن النجل الثاني عشر لصاحب الجلالة، وهو أمير رقيق الحاشية مهذب، يتجمل بمكارم الأخلاق، وله شغف خاص بالأدب، كثير الأطلاع، ذلك إلى جانب ميزاته الأخرى في الصفات المشتركة التي يتحلى بها أمراء آل سعود. وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير مشعل بن عبدالعزيز:

والأمير مشعل بن عبدالعزيز من الأمراء الذين يتمتعون بكريم الخلال، وحميد الخصال، وهو كغيره من إخوانه الأمراء الذين انعقدت القلوب على حبهم لما حباهم الله به من نادر الصفات، وقد زار مصر في معية جلالة والده المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير سلطان بن عبدالعزيز:

والأمير سلطان بن عبدالعزيز، أمير مهذب، رقيق الحاشية، كثير الاطلاع، شغوف بالعلم، واسع المعرفة، وله من صفات إخوانه الأمراء كريم الخصال التي يتميز بها أمراء آل سعود، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل.

الأمير عبدالرحمن بن عبدالعزيز:

والأمير عبدالرحمن بن عبدالعزيز من الأمراء الأماثل الذين حباهم الله مكارم الأخلاق، وجميل الصفات، وهو كإخوانه الأمراء في رقة الحاشية، وعلو الهمة، وكرم الشمائل.

الأمير متعب بن عبدالعزيز:

والأمير متعب بن عبدالعزيز، أمير مهذب، كريم الخلق، رقيق الحاشية، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما حباهم الله من جلائل الخصال.

الأمير مشاري بن عبدالعزيز

والأمير مشاري بن عبدالعزيز من الأمراء الأماثل الذين امتازوا بالخلق الكريم وهو كأخوانه يتمتع بما وهبهم الله من جلائل الصفات، وحلاوة الشمائل.

الأمير طلال بن عبدالعزيز:

والأمير طلال بن عبدالعزيز من الأمراء المحبوبين، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما منحهم الله من الخلق العالي الكريم، وقد زار مصر عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ثم زارها مرة أخرى في معية جلالة والده الملك المعظم في هذا العام ١٣٦٤هـ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل، ولسموه مكانة خاصة في جميع الأوساط التي تشرفت بمعرفته، فقد حاز الإعجاب، واستولى على الألباب بما في شمائله من مكارم، وبما في أخلاقه من صفات.

الأمير بدر والأمير تركي ابنا عبدالعزيز:

والأمير بدر والأمير تركي من أنجال جلالة الملك المعظم وهما كإخوانهما الأمراء في مكارم الأخلاق، وكريم الصفات.

الأمير نواف بن عبدالعزيز:

والأمير نواف بن عبدالعزيز من أصغر الأمراء سناً ولكنه رغم حداثته على جانب كبير من الذكاء والتعليم وقد زار أمريكا في معية سمو الأمير فيصل، ثم زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم وأهدى إليه جلالة الملك فاروق، الوشاح الأكبر من نيشان النيل، وهو أمير محبوب من كل من رآه.

الأمير عبدالله الفيصل:

وفي ذات صباح، استيقظنا فإذا بشير يقول لنا: إن الأمير عبدالله الفيصل قد وصل، وكانت بشرى يالها من بشرى! فمن هو الأمير عبدالله الفيصل؟! إنه الأمير الشاب المحبوب الذي نعرفه كلنا في مكة، ولنا به صلات محبة ومودة وإكبار وتقدير، وإنه نجل الأمير فيصل وكفى!! فلا عجب أن يغمرنا السرور ويفيض علينا البشر والفرح لمقدم هذا الأمير المحبوب.

وبادرنا بالسؤال عن مكان نزله من المخيام وتوجهنا إليه، للسلام والتزود من اجتلاء طلعته الكريمة المشرقة فأسبغ علينا من عطفه وآدابه ما كنا نعرفه فيه من قبل ومن بعد.

والأمير عبدالله الفيصل، شاب محبوب لما فيه من صفات هي الرجولة بعينها، فهو رغم حداثة سنه على جانب كبير من العلم والمعرفة والذكاء واليقظة، وقد تعلم التعليم المنظم وكان مثال الجد والمثابرة والاجتهاد ولهذا قدر الله له النجاح، وساعده ذكاؤه الفطري على استغلال تعليمه في توسيع مداركه الذهنية والثقافية، وبذلك صار رجلا وإن لم يبلغ سن الشباب، فهو يصاول أكبر الرجال في أعظم المجالس، ويدير دفة الأحاديث مهما كان نوعها ومراميها ومباحثها، ولا يسع جليسه إلا أن يشعر بأنه في حضرة رجل واسع المعرفة قوي الحجة، عالم بشؤون بلاده، عالم بشؤون العالم وما يدور فيه، وله ولع بسباق الخيل وركوبها فهو فارس مغوار لا يشق له غبار ويعرف الخيل جيادها وأصائلها وأنسابها، والفروسية صفة من صفات العرب، وعادة من خير عاداتهم، وهي في هذا الأمير الشاب من أظهر ميزاته.

فالأمير عبدالله نابغة الشباب وزينتهم، بما حباه الله من كريم الصفات الآنفة الذكر، وما جمع حوله من محبة القلوب وتقديرها، وحسب هذا الشبل أن يكون وليد ذاك الأسد، وحسب العرين الذي أنجب أباه، أن يكون من نجبائه عبدالله! وقد زار سموه مصر وأوروبا وأمريكا في عام ١٣٦٣هـ، كما أنه تولى الوكالة عن نائب جلالة الملك المعظم -سمو والده الأمير فيصل- في غيابه وقام بأعباء الحكم خير قيام.

الأمير سعود بن سعد:

قلت في مقدمة الحديث عن أمراء آل سعود إنني لم يسعدني الحظ بشرف التعرف إلى جميع أصحاب السمو الأمراء، فإذا قصرت في الحديث عن بعضهم فليس ذلك إلا إلى الفرصة السعيدة القريبة التي تتيح لي شرف الصلة بهم جميعاً إن شاء الله. ومن أبرز أمراء آل سعود سمو الأمير سعود بن سعد، ابن أخي جلالة الملك، فقد عرف سموه بالأدب الرفيع الذي هو أبرز صفات أسرة آل سعود ولسموه مكانة محبوبة مرموقة ذلك إلى جانب ما أغدقه الله عليه من نعمة العلم والمعرفة والذكاء وسعة الاطلاع. وقد زار سموه القطر المصري في عام ١٣٦٣هجرية واحتفى به الحفاوة اللائقة بمقامه الرفيع، وكان كاتب هذه السطور ممن أتيح له المساهمة في تكريمه بمصر بالأبيات الآتية:

سعود، ومن في وجهه السعد يشرق ... ومن مجده فوق الأهلة يخفق

ألست سليل المجد في الدوحة التي ... بها كل قلب في العروبة يعلق؟!

سليل بن آل السعود من الألى ... تعالى بهم في الأفق نجم محلق

يشار إليهم بالبنان إذا بدت ... مطالعهم خفاقة تتألق

نزلت بوادي النيل أكرم منزل ... فلاح عليه من رُوَائِك رونقُ

ففي كل ناد من لقائك بهجة ... وكل فؤاد نحو رؤياك شيق

تركت به آثارك الغر تقتفى ... تلوح على أفق البلاد وتعبق

فإن كان في الغادين من هو قاصد ... إلى المجد سباقاً، فإنك أسبق

وأقام لسموه صاحب السعادة الفريق محمد حيدر باشا وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية للسجون المصرية، وياور جلالة الملك فاروق، حفلة تكريم كبرى في "إصلاحية البنات بالجيزة -مصر"، أنشد في ختامها كاتب هذه السطور الأبيات الآتية:

حفلة أشرقت سناً وسناء ... وسمت بهجة وعمّت ضياءَا

شع منها الإصلاح نوراً قيماً ... ملأ الخافقين روعة وبهاءَا

بـات فـيها الأحـداث أبـهج حـالا ... مـن سـواهم سـعادة ورواءَا

كم سمعنا عنها وكم قد سمعنا ... ورأينا فجل ماقد تراءى

قام بالفضل في البناء عظيم ... خير من شاد للعقول البناءَا

"حيدر" وهو كاسمه ليث غاب ... أكسب الغاب منعة وإباءَا

كم يد منك في القلوب توالت ... كندى الروض بهجة وسناءَا

فإذا ما كرمت آل سعود ... في أمير يمثل الأمراءَ

في سعود سليل قوم كرام ... ملكوا الدهر عزة رفعاءَا

فلك الفضل أولا وأخيراً ... وتقبل مع على الصنيع الثناءَا

وتقبل شكر الأمير كريماً ... فعسى الشكر أن يفيك الجزاءَا

المأدبة الملكية الكبرى

وبينما كنا في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في ذات صباح، تفضل جلالته فقال لنا: "نريدكم أن تتناولوا معنا طعام العشاء الليلة" فتقبلنا من جلالته هذه الدعوة الكريمة بالابتهاج والشكر والدعاء، وبعد أصيل اليوم المذكور غادرنا مخيامنا إلى مخيام معالي وزير المالية لنرد الزيارة لمعاليه، فتفضل باستقبالنا وإكرام وفادتنا وقضينا عنده ساعة وبعد أن أدينا صلاة المغرب معاً توجهنا إلى المخيام الخاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حيث كان ثمة مقر المأدبة الملكية التي تفضل جلالته بدعوتنا إليها. وصلنا إلى مخيام جلالته وكان الوقت ليلاً، والمخيام الخاص كالمخيام العام، كلاهما مضاء بالكهرباء، ولكن المخيام الخاص يمتاز بجمال موقعه لأنه اختير مقراً هادئاً، ومكاناً لاستجمام حضرة صاحب الجلالة، فهو بالجملة عرين الأسد ومجمع آجامه، وتقوم حوله سلسلة من الرياض المعشوشبة السندسية النضرة التي تبهج النفس وتشرح الصدر، واقتادنا رجال حاشية جلالته إلى الخيمة الخاصة التي كان جلالته فيها، فرأينا وياحسن ما رأينا

من منظر عجب أبهج نفوسنا وشرح صدورنا ورسخ في أذهاننا رسوخاً لا يبارح خيالها إلى آخر الدهر.

فقد تشرفنا بالدخول إلى خيمة جلالته الخاصة، وهي عبارة عن قصر جيد التقسيم، وأقسم أننا طيلة المدة التي مكثناها في تلك الخيمة الخاصة لم نشعر أننا في صحراء، ونسينا أننا في بادية أو روضة، وسبح بنا خيالنا كأننا في قصر منيف عامر البنيان رائع التقسيم.

دخلنا إلى الخيمة الملكية وهي عبارة عن خيمة فسيحة الأرجاء قد قسمت إلى غرف صغيرة متناسقة في الجمال والترتيب وحسن الذوق، فأول ما يصادف الداخل ردهة صغيرة، ثم ممشى آخر يفضي إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة، وهي خيمة جمعت أسمى معاني حسن الذوق والترتيب والجمال مع البساطة الخالية من التعقيد إذ ليس فيها شيء من زخرف الدنيا ولا من غريب المتاع، وكل ما هنالك ذوق جميل وبساطة جميلة وتنسيق رائع، دخلنا الخيمة فإذا الأسد يستقبلنا كعادة جلالته واقفاً فتشرفنا بالسلام على جلالته ثم دعانا إلى الجلوس فأخذنا أماكننا على كراسي منضدة في جوانب المكان، وكان لجلالته في هذه الخيمة مقعدان لجلوسه، أحدهما أرضي لا يمتاز عن غيره من فراش الخيمة إلا بسجادة صغيرة نفيسة ومتكأ أعد بجانب تلك السجادة، والمقعد الآخر عادي مرتفع، وهو عبارة عن كرسي مستطيل نفيس فرش بسجادة نفيسة متكأ نفيس. وقد تفضل جلالته فجلس على أحد الكراسي ولم يأخذ لنفسه مكاناً خاصاً من ذينك المكانين اللذين وضع إلى جانب كل منهما لمبة كهرباء صغيرة أعدت للقراءة، ويلوح أن يطالع شيئاً أو يعرض عليه شيء.

وقد أضفى ذلك الجو الخيالي البديع الشائق لوناً من البهجة والحبور، لا نعرف لسروره مأتى ولا تعليلاً، وسبحنا معه في تلك النعمة الوارفة كأننا في حلم لم نستفق منه إلا بمغادرتنا ذلك المكان، وقضينا لحظات ممتعة لا نحسبها من العمر في ذلك المكان العامر الحفيل بالنشوة، وكان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، يمتع الحاضرين بطرف رائعة من نكاته العذبة ومداعباته الطريفة مما زاد في جو المكان أنساً وحبوراً، وأضفى عليه موجة فياضة من البشر والسرور. وبعد أن قضينا مدة ثلاثين دقيقة في الخيمة الملكية الخاصة نهض جلالته قاصداً إلى غرفة الطعام -أو خيمته على الأصح- ونحن في معية جلالته. وكانت الغرفة أو الخيمة عبارة عن سرادق كبير، تناثرت فيه موائد الطعام على نسق ما يفعل الأوربيون في أرقى حفلاتهم والفارق الوحيد بين هذه وتلك، أن موائدنا هنا كانت مبسوطة على الأرض حيث نجلس إليها بحرية لا تشوبها رذائل الكلفة والتقييد، سوى ما تقضي به الآداب الإسلامية من قواعد هي جزء من سجية النفس وفطرتها، فلا تكلف فيها ولا إعنات!

وتفضل جلالته فتصدر المائدة الرئيسية، أو لعلها إحدى الموائد، ولكن بجلوس جلالته إليها امتازت بشرف الرئاسة والصدارة حيث لافارق مطلقاً بين الموائد لا في ألوانها ولا في محتوياتها، وترأس أصحاب السمو الملكي الأمراء أنجال جلالته بقية الموائد الأخرى، وتفرق أعضاء الوفد ورجال الحاشية وكبار موظفي ديوانه على الموائد من غير تفريق ولا تمييز حسبما اتفق، وتناول الجميع الطعام هنيئاً مريئاً، وكان عبارة عن قصاع كبيرة من الأرز والثريد واللحم الضأن، ونثرت من حولها صحاف الأدم المختلفة الألوان، وصحاف الحلوى، وغيرها من الأطعمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام، نهض جلالته وتبعه الحاضرون فغسلوا أيديهم ثم قصدوا إلى الخيمة الملكية الخاصة حيث أديرت عليهم أكواب القهوة العربية الشهية.

وقد تشرفنا بالجلوس في حضرة جلالته عشرين دقيقة أخرى استمعنا في خلالها إلى ماكان ينثره من روائع الكلم وجوامع الحكم، ثم التمسنا الإذن بالانصراف ونهضنا مكررين السلام على جلالته رافعين أبلغ الشكر وأخلص الدعاء على ذلك العطف السامي الذي لا يقدر.

وكانت هذه الحفلة بما تقدم وصفه من روعتها وبهجتها موضع سمر القوم وحديثهم تلك الليلة، ثم موضع سمرهم وأحاديثهم كلما استثارت النفس ذكريات رحلة الربيع، وهي شيء خالد بخلود النفوس لا يبرح خيالها مادامت الأرواح تخفق في الأجسام، والقلوب تنبض بدقات الحياة!!

مأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين

وفي ذات صباح تفضل معالي الشيخ ياسين بزيارتنا على عادته الكريمة في تردده علينا بالزيارة في أوقات مختلفة بين الإصباح والإمساء، ففي ذلك اليوم قال لنا: إنكم مدعوون عندي لتناول طعام العشاء في معية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم مساء الغد، فشكرنا له كريم شعوره وكريم حفاوته، وقبلنا دعوته شاكرين، وكان ذلك في يوم الخميس ١٥ صفر، وكان ميعاد الدعوة مساء الجمعة ١٦ صفر، وعلمنا أنها بالتحديد ستكون في الساعة الحادية عشرة نهاراً أي قبيل صلاة المغرب بساعة واحدة، وذلك مراعاة لعادة جلالته في تناول طعام العشاء، كما أسلفنا القول في مناسبة سابقة.

وفي الساعة العاشرة من مساء يوم الجمعة -وهو ميعاد الدعوة- كنا قد وصلنا إلى خيام معالي الشيخ يوسف ياسين، فكان يستقبل مدعويه بمنتهى البشاشة والإيناس والدعة ومكارم الأخلاق، بينما كان في نفس الوقت [٨٤] يقوم بإدارة ترتيب الحفلة والإشراف على كل كبيرة وصغيرة فيها، مبالغة في الحفاوة وحسن الاستعداد للقاء ضيف الشرف العظيم الذي سيشرف الحفلة بعد قليل من الدقائق.

وكان يعاونه في "الخيمة"، معاونه في "العمل" صديقه الأستاذ المحقق رشدي ملحس، كما كان يعاونهما الكثير من محبيهما وأصدقائهما من موظفي الشعبة السياسية وديوان جلالته وغيرهم وغيرهم. وكان قد أقيم سرادقان أحدهما أعد لتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم واستراحته ومن في معيته من المدعوين، والآخر أعد لموائد

---

[٨٤] الأصوب (في الوقت نفسه) (الدخيل).

الطعام، وقد نثرت فيه على الطريقة التي مر وصفها في مأدبة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم.

وكان جلالته على عادته اليومية التي وصفناها فيما سلف من القول، يقضي قيلولة النهار في الروضة والصيد والقنص، ويعود إلى مخيامه في الساعة الحادية عشرة لتناول طعام العشاء، وما كاد يحين ذلك الوقت، حتى علا غبار في أقصى الروضة، فنهض الحاضرون خفافاً، وقالوا هذه سيارة جلالته مقبلة من مقيلها بين الرياض، وخف الجميع إلى استقبال جلالته، وماهي إلا دقيقة أو بعض دقيقة، حتى كانت سيارة جلالته قد شرفت إلى المخيام، فبادر الحاضرون إلى استقباله بما يليق بمقامه من الحفاوة والإكرام. وبما يكنونه لجلالته في جوانحهم من عواطف الحب والإخلاص، ثم شرف جلالته إلى السرادق الذي أعد لاستراحته وقضى فيه بضع دقائق بين مؤانسة الحاضرين وتحياتهم وحفاوتهم. وبعد ذلك شرف جلالته غرفة الطعام -أو خيمته- وفي معيته الحاضرون فتناولوه هنيئاً مريئاً بين أحاديث طريفة هي سلاف الود ورحيق الإخلاص.

وبعد أن انتهى جلالته من تناول الطعام أديرت القهوة العربية، وكانت صلاة المغرب قد أزف ميعادها فغادر جلالته المكان مشيعاً بمثل ما استقبل به من الحفاوة والإكرام، قاصداً إلى المخيام الملكي الخاص لأداء فريضة المغرب، وقضاء الوقت هناك إلى ما بعد العشاء حسب عادة جلالته من غير تأخيرولا تقديم.

وبقي المدعوون بعد ذلك في ضيافة معالي الشيخ يوسف ياسين مدة من الوقت ومنهم من تعجل وغادر المكان، ومنهم من ظل مدة أخرى وأدى صلاة المغرب هناك، وبذلك انقضت المأدبة الحفيلة، وانفض السامر، بعد أن قام معالي الشيخ يوسف ياسين بتكريم الوفد المكي أعظم تكريم، حيث شرفه بتناول الطعام في مأدبة عامرة ترأسها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم.

وفي أثناء الوقت الذي انقضى بين حضورنا إلى الحفلة، وبين انتظار تشريف المليك العظيم، التقيت بمضيفنا الكريم، فقال لي: ماذا عندك؟ فقلت: عندي حولية نجد! فقال: وما تلك؟ قلت: قصيدة عصماء من عيون الشعر أوحى بها إلي هذا الوادي الناضر، وهذا

النجد الزاهر، فقال: أو تنشدها حضرة صاحب الجلالة؟ قلت: أود لو أن جلالته يسمعها! قال: لو أن في الوقت فسحة لنصحتك بإلقائها، ولكن جلالته سيشرف وشيكاً وصلاة المغرب قريبة الميقات، ولهذا فسيتعجل جلالته الذهاب وقد كان ما قال، فقد شرف جلالته وانصرف عاجلاً.

نجد - وحولية نجد

قبل أن نذكر حولية نجد نريد أن نذكر المناسبة التي عملت فيها، والمناسبة التي ألقيت فيها، بعد أن تقدم الكلام في ختام الموضوع السابق في مأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين عن هذه القصيدة، وهذا هو الذي حدا بنا إلى إقرار الكلام عن هذه الحولية!

ولقد سبق الكلام في ثنايا هذه الرحلة عن مبلغ الشعور الذي تولد في نفوسنا من مظاهر نجد ومشاهدها الرائعة، ولقد كان لكاتب هذه السطور من الشعور الخاص ما أرق جفونه وسهدها في التفكير في نجد، وماهي نجد بعد أن شحذ نفسه وأوقد شوقها ما قرأه في كتب المتقدمين وأشعارهم من الروايات والأساطير[٨٥] عن نجد ومرابعها ومنازلها ورياضها ومن أنجبت من كرام الشعراء، وما قال فيها كرام الشعراء، سواء كان تحقيقاً أو تقليداً، وسواء كان قديماً أو جديداً!! ومَنْ مِنْ الأدباء أو الشعراء من لا يحفظ عن ظهر قلب عشرات القصائد ومئات الأبيات من الشعر، فيها الكثير من ذكر نجد والحنين إلى نجد ووصف مغانيها ومرابعها ومفاتنها ومباهجها سواء كان في الحقيقة أو في الخيال؟!! وسواء كان في القديم أو في الحديث، فأما في القديم فقد انصرف الشعراء إلى ذلك عن طبيعة وعلم وخبرة، وعن مكابدة وشوق وحنين، وأما في الحديث قد اندفع الشعراء المعاصرون وغير المعاصرين إلى ذلك اندفاع طبيعة وسجية لا أثر للتكلف فيه وإن زعم ذلك المتعنتون المتزمتون، والذين يعرفون والذين لا يعرفون، فقد يوجد فريق من الأدباء المجددين يلومون على القديم، ويزعمون التجديد فينقمون على الذين يذكرون المرابع والديار، والمنازل والأوطار، والأنجاد والأغوار، لأنها في نظرهم القديم الذي لا لزوم لترديده وإعادة ذكراه، وقد يشترك في هذا اللوم والتقريع من لم يعرف نجداً من قبل، أما

---

(٨٥) لو وضع مكان الكلمة (القصص والأخبار) لكان أدق في توخي القصد (الدخيل).

الذي يعرف ماهي نجد وماهي مرابعها ومنازلها وخيامها ومضاربها، ورياضها وغدرانها، وأغوارها وأنجادها، فإنه يعود لائماً على اللائمين، مقرعاً للمقرعين، لا أقل من أن يكون هذا شعور شاعر عربي مثل كاتب هذه السطور، هو وليد نجد وحبيبها، إن لم يكن بمس التراب فلمنازل الأحباب، ومباءة الأنساب والأحساب، وجوهر الأدب اللباب، وهو مدين في ذلك إلى عاطفة الأدب وخصوبة الشاعرية المطبوعة، وإلى صدق الولاء الذي يدين به لملك عربي عظيم، وإلى حقوق الوطنية في وطن واحد يستوي المنتسب إلى مشرقه ومغربه أو شماله وجنوبه! وآية ذلك ساعة أن بشرت في مكة باختياري للسفر إلى هذه الرحلة، وكان معي إذ ذاك صديقان كريمان هما الأستاذ الكبير السيد جميل داود معاون أول وزارة الخارجية[٨٦]، والأستاذ الصديق الكريم الشيخ عبدالسلام غالي، فسمعاني أهمس إلى نفسي بترجيع الغناء وترتيب النغم فقال: ماذا تقول؟ فقلت أقول نجدا!! قالا وبماذا تغني، قلت بأقوال خطرت على الذهن من أقوال الشعراء في نجد، منها:

ولا تنس نجداً إنها منبت الهوى	ومرعى المها من سانحات ورتع!

وقول الآخر:

وإنا لقوم ليس فينا معابة	سوى أن وادينا بحكم الهوى نَجْدُ
نلين وإن كنا أشداء للعدى	ونغضبُ في شروي نقيرٍ فنشتد

بهذا الوصف الموجز تلقيت نبأ الرحلة إلى نجد، ومن ذلك الوصف المقتضب يتبين مقدار ذلك الشعور الذي لازمني وأخذ يزداد معي شيئاً فشيئا بزيادة المشاهد والمرئيات حتى رأيت نجداً وشهدت أجزاءها منزلاً فمنزلاً، ومربعاً فمربعاً، والتقيت برياضها التقاء سافراً وضاحاً لاحجاب فيه، ولا ستر دونه، وظللت أعجب بكل ما أشاهد، وأساعد نفسي على الفتنة والإمعان في الافتتان بمناظر الروضات وغير الروضات من مظاهر الصحراء وفتنتها البارعة، وكنت أشعر بهذا الشعور، وأسترسل فيه مع نفسي كأن قد وجدت من

(٨٦) السيد جميل داود كان يشغل منصب سكرتير أول المفوضية العربية السعودية بلندن في ذلك الوقت.

يصاحبني في خيالي ويلازمني فيه كل الملازمة، إلى أن أحسست بنفسي تسيل شعراً وأخذت أقيد ما يجول فيها على جذاذات من الورق، كان جمع شتاتها قصيدة عامرة الأبيات أصبحت "حولية نجد" فيما بعد!

وتم بنيان القصيدة التي أسميتها "حولية نجد" بعد إنشاء هيكلها من مختلف المشاهد المبعثرة، والمرئيات الظاهرة والمستترة، وظهر العلاني[٨٧] بعد الخفاء وأخذت في تبييضها وترجيعها وقراءتها وتنغيمها والتبغيم بها!! حتى لاحظ ذلك واحد من الرفاق بعد واحد!!

وأخيراً لم أر بدأ من إعلانها وإنشادها الرفاق، فكانت موضع إعجاب كل من سمعها أو قرأها، واقترح الإخوان والأصدقاء أن أنشدها حضرة صاحب الجلالة الملك فقلت: إن القصيدة قلتها في مناسبة خاصة مجاوبة لشعور نفسي نحو نجد، وليس أحب إلي من أن يسمعها مولاي صاحب الجلالة أو يقرأها، وأن قد سمعها مني أو اطلع عليها كثير من غير زملاء الرحلة منهم سعادة السيد حمزة غوث، والدكتور محمد علي الشواف، وغيرهما من رجال المخيام الملكي، وقد أجمع رأي الجميع على إنشادها بين يدي صاحب الجلالة رغم ما أبديته من اعتراضات أهمها طول القصيدة وخشية الإملال من سماعها، وبعد انتهاء المناقشات في هذا الموضوع تقرر أن أتشرف بإلقائها غداً بين يدي حضرة صاحب الجلالة، وكان غداً هو يوم السبت ١٧ صفر، وهو اليوم التالي لمأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين.

وفي صباح اليوم المذكور، بعد أن تشرفنا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة في خيمته الملكية تقدم سعادة السيد صالح شطا وقال لجلالته إن "فؤاد" أنشأ قصيدة في نجد، ونحب أن نستأذن من جلالتكم في التفضل بسماعها، فتفضل جلالته بالإذن والترحيب، فتقدمت بين يدي جلالته وأ نشدتها، ومن أكبر الشرف الذي نلته في ذلك اليوم، هو تفضل جلالته بالإصغاء إليها وإبداء إعجابه بها وسروره منها، وما كان يبدو على ملامح وجهه الكريم المشرق الوضاء من علامات الارتياح والرضا وحسن القبول، ثم ماقوبلت به في المجلس وخارج الخيام من إقبال أهل نجد على سماعها والإعجاب بها والترنح لمعانيها لما اشتملت عليه من صفات نجد. ولا أطيل في وصف ما أقول فهذه نجد، وهذه حولية نجد!!

---

(٨٧) صواب الكلمة (العلان) أي العلانية . انظرلسان العرب (علن) (الدخيل).

حولية نجد

هذه[88] لؤلؤة من لآلئ الشعر العربي الفصيح، أشرقت في روضة الخفس، أو هي زهرة من يوانع الباسم تفتحت في تلك الروضة، عن شاعرية خصبة فياحة لكأنما استمد الشاعر عبير شعره من عبير الروضة، فجاءت قصيدته وإياها كالحسناء والمرآة، وهي قصيدة جادت بها قريحة شاعرنا الكبير الأستاذ فؤاد شاكر عقب وصول الوفد المكي إلى المخيام الملكي العامر في تلك الروضة الفيحاء، وقد تشرف بإلقائها بين يدي جلالة الملك المعظم في صباح يوم السبت ١٦ صفر الجاري فحازت من لدن جلالته منتهى الاستحسان والعطف والرضا السامي، قال:

أجل هذه نجد، فسائل ربي نجد! ... عن العرب الأمجاد من سالف العهد![89]

عن الدين والأخلاق والعزم والحجى ... عن الشعر والتاريخ والعز والمجد!

عن الخيل والإصباح والسيف والقنا ... عن الرأي والإقدام والحزم والجد!

عن الليل والبيداء والظعن والنوى ... عن الدجن والصحراء والغيث والرعد!

عن الصافنات الجرد كالريح ضمراً ... عن النوق والأخلاف والعدو الوخد!

بلاد هي التاريخ أبيض ناصع ... زها مجدها كالحسن في صفحة الخد

فقل للصبا إذا هب نفح عبيرها ... (ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد)

❖❖❖

أجل هذه نجد، وهذا رياضها ... وتلك أفاويح من البان والرند

---

(٨٨) هذه المقدمة كتبتها جريدة صوت الحجاز حين نشرت القصيدة في ذلك التاريخ، وقد حرصنا على إثباتها كما هي لنفاستها ولأنها في معانيها السامية قصيدة إلى جانب القصيدة.

(٨٩) وحي الفؤاد: ٦٩ (الدخيل).

أجـل هــذه نجـد وهــذا أقَاحُــها تفتـح عــن نَــوْر وأشــرق عــن نــدٍّ

فمن (روضة الخفس)[٩٠] التي فاح عطرها إلى (روضة التنهات) فـي الغور والوهـد

تطـاول فـيها العشـب حتـى كأنـه سـنابل أكمـام تفتحـن عـن ورد

زهـا نَوْرُهُ فـي مطلـع الفجـر مشـرقاً مـع الشمس كالمحبوب، يبسم عن ود

بـدا أصفـراً فـي أبيـض، فكأنـه سماوة قرص الشمس قد لُفّ في بُرد

وفـاح شـذاه بـالأريج كأنـه عبـير سرى رياه مـن جَنَّـةِ الخلـد

سـقاه وليُّ الغيـث صيَّـبَ مائـه كأن قد سقاه الوردَ في صورة الورد

تـروح إليـه الطـير وهـي أوانـس تبـاكره بالشـوق بـدءاً علـى عـود

فتشـتار مـن أزهـاره الشـهد سـائغاً كما[٩١] اشتار من أزهاره النحل للشهد

تناوحـه ريـح الصبـا فتـهزّه فـيختال إذ يهتز فـي الـروض مـن بُعد

فتنقـل مـن مـرآه للعـين صـورة تـروح جلاء النور، في الأعين الرمد

❖❖❖

وهـذا غديـرٌ فـاض فـي أيمـن الحمـى ومـن حولـه مـاء تدفـق مـن عِـدّ[٩٢]

---

(٩٠) روضة الخفس، وروضة التنهات، وغيرهما، أسماء روضات معروفة من رياض نجد التي يتنزه فيها صاحب الجلالة في كثير من أوقات العام.

(٩١) المشتار هو الذي ينزع العسل عن بيوت النحل.
قال النابغة الذبياني:

كأن مشمولة صرفا بريقتها من بعد رقدتها أو شهد مشتار

(٩٢) العِدّ هو الماء الجاري قال أحمد شوقي بك رحمه الله:

وافتح أصول النيل واستردها شـلالها وعذبـها وعِدهـا

وقال أبو العتاهية:

تغضّـــن وجـــه المـــاء منـــه نســـائم فتبـدو كحبـات تدحرجـن مـن عِقـد
أطـــلّ "طويـــق"[٩٣] فوقـــه وكأنـــه حضينـــة آرام، تقـــوم علـــى ولـــد
فلو لم يكن إلا (امـرؤ القيس) شـاعراً تنقـل فـي الغـدران وهـداً إلى وهـد
لمـا كـان أجـدى مـن تذكـر شـاعر طـوى ذكـره الأحقـاب حافلـة العـد
فحسـبك منـه والغديـر ومـا جـرى وحسب العذارى مـا لقـين علـى عمـد[٩٤]
فـإن تـك لـلآرام والغيـد ملعبـاً ثـوت حقبـاً، للـهو آنـا وللجـد
فحسـبك منـها أنـها اليـوم غابـة تعـج بأشـبال العريـن وبالأسـد
وإن قيـض الرحمـن سـيد أهلـها فـولاه فـيها إمـرة الحـل والعقـد
فسـار عليـها سـيرة عمريـة غدت مضرب الأمثال في العدل والرشد
هـو الملـك المعـروف بـالدين والتقـى وبـالحلم والإحسـان والصـون والـذود
أجـل إنـه عبدالعزيـز وحسـبه مـن الله نعمـى الديـن والعيشـة الرغـد

❖❖❖

ولمـا بـدا (المخيـام) للركـب أشـرقت خيـام تفـوق الأنجـم الزهـر فـي العـد
تلـوح مـع الإصبـاح كالطـير جثمـا حباهـا بيـاض الفجـر حضنـاً مـن المـهد

لابـد مـن وردٍ لأهـل الـوِردِ إمـا إلى ضَحَـلٍ وإمـا عِـدّ

وإن أهل نجد يستعملون هذه الكلمة في التعبير عن السواني ومجارى الماء وهي عربية فصيحة.

(٩٣) طويق هو جبل معروف في نجد، وهو سلسلة عظيمة تتصل بروضة الخفس وغيرها من الجهات حتى قيل أنه يصل إلى نجران.

(٩٤) لعل الأدباء جميعا والشعراء على الأخص يعرفون قصص تنقل امرىء القيس وحياته بين الغدران في مختلف أنحاء البادية.

وتبـدو مـع الإمسـاء زهـراً مفتحـاً يكـاد يضـيء الليـل مـن بهجـة الوقـد
ويغـدو عليـها بالضيـاء مسـامر وإن كابدت من هجـره روعـة الصـد[٩٥]
يخـال بـه كـبر، وليـس بـه سـوى مناعـة مافـي البعـد، مـن لوعـة البعـد
هـو البـدر فـي ليـل مـن التّـمِّ مشـرق أطـل مـن العليـاء مسـتوفز الحشـد
فطـارت نفـوس الركـب شـوقاً وطالمـا قضت ليلها فـي الوجد والشوق والسـهد
إلى ملـك قـد أيـد الله عرشـه فثبـت مـن أركانـه راسـخ الطـود
تتـاهى إلى (عبدالعزيـز) ولاؤهـا بأوسـع مـا ضمـت نفـوس مـن الـود

❖❖❖

أمـولاي فلتـهنأ بمـا أنـت أهلـه مـن العـز والرضـوان والعيشـة السـعد
وحولـك مـن أبنـائك الغـر سـادة مصابيح هـذا الملـك فـي الصـون والـذود
هـم الجنـد إلا أنـهم جنـد عـزة فـأنعم بـهم فـي طاعـة الله مـن جنـد
وإن رضـاء الله فـيما أنالـه رضـاك، وقـد أضحـى وليـك فـي العـهد
وفـيصل المحبـوب والنـائب الـذي تلاقـى بـه حـب القلـوب علـى الـود
وسـارت لـه فـي النـاس سـيرة أصيـد فضوعـت الأفـواه بـالزهر والشـهد
فـيا سـائلي عـن نجـد، أو عـن رياضـها فديتـك، هـذا بعـض مافـي ربـا نجـد

روضة الخفس

فؤاد شاكر.

---

[٩٥] المقصود به البدر وقد كان في ليلة تمامه.

وفود جدة، والمدينة، والطائف

وكان المقرر من قبل سفرنا من مكة، أن وفداً من جدة سيسافر إلى الرياض أيضاً لمثل الغاية التي سافر إليها وفد مكة، ومنذ وصولنا إلى الروضة أخذنا نترقب قيام وفد جدة ووصوله، ثم مضى أسبوع كامل على إقامتنا في الروضة دون أن يتحرك وفد جدة وفي ذات صباح كنا في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فتناول سماعة التليفون وأصدر أمره إلى رئيس ديوانه بالاستفهام -لاسلكيا- عن سبب تأخر الوفد المذكور عن القيام، وفي اليوم التالي ونحن في حضرة جلالته أخبرنا أن وفد جدة قد تحرك من مكة وأنه ينتظر أن يصل بعد يومين.

وفي تلك الأثناء علمنا أن أهل المدينة التمسوا تأليف وفد منهم والإذن له بالسفر إلى الرياض للتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فأذن لهم في ذلك، وأن أهل الطائف التمسوا مثل ذلك الالتماس فتفضل جلالته أيضا بالإذن الكريم.

وكان حضرة صاحب الجلالة الملك، قد أخبرنا أنه يريد الذهاب إلى الخرج ونحن في معية جلالته، وكانت رغبتنا شديدة في أن نحظى بزيارة "الخرج" بعد أن وصلنا إلى أرض نجد، لما كنا نعرفه عن ذلك المكان التاريخي الجليل، وما كنا نعلم عن أنبائه الحديثة وما قام به حضرة صاحب المعالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية من إصلاحات واسعة النطاق في ذلك الوادي الخصيب، تنفيذاً لرغبة حضرة صاحب الجلالة الملك، ومقترحات، جلالته العظيمة الإصلاحية السامية.

وكان معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية قد غادر مكة إلى الرياض قبل سفرنا منها بأسبوعين فلما قدمنا إلى المخيام الملكي لم نجده ثمة وقال صاحب الجلالة: إن معاليه في الخرج يشرف على أعمال الري والزراعة هناك، وبعد بضعة أيام من إقامتنا في الروضة قدم معاليه من الخرج وتفضل بزيارة الوفد المكي في مخيامه زيارة ود وإكرام وترحيب، وقد أبدى من مكارم الأخلاق في الحفاوة بنا ما كان دليلاً ناصعاً على ما في نفسه من الأدب الرفيع والخلق الكريم.

وكانت الأنباء قد وصلت إلينا عن طريق ديوان جلالة الملك المعظم بأن وفد المدينة قد غادر في طريقه إلى الرياض، وأخذنا نترقب وصوله إلى المخيام بعد أن مضت الأيام المقررة على وجه التقريب لمدة الرحلة في تلك المراحل، وهو مؤلف من عشرة أشخاص يتقدمهم سعادة الشيخ عبدالله السديري وكيل أمير المدينة[٩٦] وحضرات، الشيخ محمد الخريجي، والشيخ دياب ناصر، والشيخ عبدالقادر غوث، والسيد حسين طه، والشيخ عثمان حافظ، والسيد أمين مدني، والسيد أحمد صقر.

وبعد أصيل يوم السبت المذكور، تفرق الرفاق إلى ماهم بسبيله من التنزه أو تبادل الزيارات، وخرجنا إلى ناحية الغدير في تلك الأمسية كالعادة فإذا بنا نلمح عن بعد

---

(٩٦) أسرة السديري من أكرم الأسر في نجد وهي تتشرف بنسب مصاهرة صاحب الجلالة الملك المعظم. وجلالته كثير العطف عليها والمحبة لها، ومن أبرز أعضائها الأمير عبدالله السديري أمير المدينة بالوكالة، وقد زار مصر في معية صاحب الجلالة، وأنعم عليه جلالة الملك فاروق بالوشاح الأكبر من نيشان النيل. والأمير تركي السديري أمير أبها، والأمير عبدالعزيز السديري أمير جازان، والأمير خالد السديري أمير الحدود الشمالية والظهران، والأمير عبدالرحمن السديري قائم مقام جدة. وفي يوم ١٨ ذي الحجة عام ١٣٦٣هـ أقام أحمد بك لاري حفلة تكريم للأميرين عبدالعزيز السديري وخالد السديري بفندق مصر بمناسبة قدومها للحج بمكة ألقى فيها المؤلف الأبيات الآتية:

لست أدري؟ أباقة من ورد	فاح فينا أريجها والعبير؟!
أم شموس تنظمت في بروج	أم بروج تنظمتها بدور؟!
لست أدري ؟! أهم كما قلت	أم رجال قد أنجبتهم سدير؟!
سادة ليس فيهمو غير شبل	كلهم كابر، وكل أمير
حسبهم أنهم إذا ما انتماهم	حسب باذخ ومجد وفير
أنهم من رجال آل سعود	نسب للعلا، وعز أثير

لم أجد الأبيات في وحي الفؤاد (الدخيل).

فات المؤلف أن يذكر شرف هذه الأسرة أن والدة الملك عبدالعزيز رحمها الله هي السيدة سارة بنت أحمد السديري، فالسدارى أخواله.

عبدالعزيز بن أحمد السديري لم يتول إمارة جازان وإنما تولاها أخواه محمد وخالد، وقد تولى هو إمارة الحدود الشمالية (الجاسر).

سيارات مقبلة متجهة نحو الروضة، فساورنا شيء من الشك في أنها قد تكون سيارات وفد المدينة، خصوصاً وأننا كنا على انتظار مقدمها بين اليوم والآخر.

وكان هذا الشك أو التظنن، كافياً لأن يبعثنا على أن نلوى أزمة المطي عن وجهتها- وليست هناك من المطايا غير السيارات الوثيرة- فأدرنا أعنانها عائدين إلى الروضة لنقتفي أثر الرفاق المدينيين[٩٧] -لا المدينين!- ولنقف على جلية الخبر، ولم يطل بنا المسير حتى وصلنا إلى الروضة، وحتى رأينا المخيام الذي أعد لنزول أهل المدينة قد بدأت فيه الحركة وتسرب إليه نشاط الحياة فأرسلنا من يعود إلينا بجلية الخبر، وعاد الرسول يقول: إن وفد المدينة قد وصل، وإنه قد قصد إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم للتشرف بالمثول بين يدي جلالته والسلام عليه، وقد القى بين يدي جلالته السيد أحمد صقر معتمد المعارف-إذ ذاك- بالمدينة خطبة، وألقى السيد علي حافظ قصيدة، وألقى السيد أمين مدني قصيدة في حضرة جلالته قوبلت جميعها بمنتهى الاستحسان والعطف وكريم القبول.

وطال انتظارنا لقدوم وفد جدة، وطال ترقبنا لوصوله، بعد أن علمنا بنبأ تحركه من جدة ومن مكة، وأخذنا ننتحل لتأخيرهم المعاذير، فمن قائل: إنهم يسيرون بسير ضعفائهم عملا بالسنة لأن فيهم الأشيب، والذي لا يستطيع تحمل عناء مواصلة الأسفار، ومن قائل: إن بين أعضاء الوفد، الشيخ أحمد باناجة[٩٨]وهو رجل مرفه غير متعود على مشاق الأسفار ووعثائها فلابد وأن يكون هو سبب هذا التأخير، وأخيراً وبعد نفاذ الصبر من تأخرهم في القيام والسفر، وصلوا إلى الروضة في ضحى يوم الثلاثاء ٢٠ صفر، وهم صفوة أعيان جدة وكبراؤها حضرات: الشيخ محمد نصيف، والحاج يوسف زينل، ومحمد بك عبدالله رضا زينل[٩٩]، وأحمد أفندي باناجة.

---

(٩٧) النسب إلى المدينة (مدني) (الدخيل).

(٩٨) توفي إلى رحمة الله في عام ١٣٦٤هـ في طريقه إلى المدينة المنورة.

(٩٩) محمد بك رضا زينل عميد شباب جدة ومن أبرز شخصياتها، وهو يجمع بين الثقافة العالية والتعليم الرفيع والخلق المهذب، وقد بز بتفوق في عالم التجارة والاقتصاد، مثلما برز في عالم الكياسة والاجتماع وقد

وتشرفوا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ساعة وصولهم، ثم انضموا إلى نفس الترتيب الذي أعد من قبل للوفود جميعها في مدة إقامتها في الروضة فكان يتشرف بمقابلة جلالته في صباح كل يوم ومسائه على ماهو مهيأ من الترتيب مع غيره من الوفود.

وفي المساء تشرف الوفد المذكور بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك، فلقي من لدن جلالته كل رعاية وإكرام، وكل لطف وبشاشة.

وقد كان قد عرف أن لفيفاً من أهل الطائف استأذن من حضرة صاحب الجلالة الملك، في السماح بتأليف وفد منهم، للسفر إلى نجد والتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، أسوة بالوفود الأخرى، وأن جلالته تفضل فأذن لهم بذلك.

وفي مساء يوم الجمعة الذي تقرر السفر في صباح يومه التالي إلى الخرج، وصل وفد الطائف، وهو مؤلف من حضرات، الشيخ محمد سعيد أبو ناصف، والشيخ إبراهيم كمال، والشيخ أحمد قزاز، والشيخ محمد صالح بن حريب، وقد قصدوا حال وصولهم إلى المخيام الملكي العامر، وتشرفوا بالمثول بين يدي جلالته والسلام عليه، وتفضل حفظه الله على عادته في مكارم الأخلاق وعلو النفس، فشملهم بعطفه السامي وأكرم وفادتهم كغيرهم ممن سبق من الوفود.

أسند إليه منصب قنصل تشكوسلوفاكيا قبل الحرب الأخيرة، كما أنه الآن رئيس الغرفة التجارية بجدة، ذلك علاوة على أعماله التجارية الواسعة التي يدير دفتها بلباقة ونجاح عظيم، وتوفيق جليل.

إلى الخرج

كان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، ينتظر وصول الوفود جميعها للسفر بعد ذلك إلى الخرج وهم في معية جلالته، وكان المقرر أن تزور هذه الوفود الرياض التي هي العاصمة النجدية، والخرج، تلك المنطقة الزراعية الخصبة التي قامت بتجديد إنشائها همة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، لأنه ليس من المعقول أن تصل هذه الوفود إلى نجد وتقتصر رحلتها على روضة الخفس، دون أن تشاهد عاصمة البلاد وأهم مركز اقتصادي زراعي فيها، ولكن حضرة صاحب الجلالة الملك أبت مكارم أخلاقه إلا أن يتفضل بنفسه فيسافر إلى تلك الأماكن ويصطحب معه ضيوفه من تلك الوفود التي قدمت إلى منازل بلاده ومرابعها، وكان هذا التفضل من جلالته من أبرز آيات مكارم أخلاقه وأبرز مظاهر عطفه.

وزاد جلالته في إبراز عطفه، فلم ير أن يبت في أمر الرحلة دون مشاورتهم وأخذ رأيهم، مع أن الله سبحانه وتعالى قد وهبه من سداد الرأي ما لاحاجة معه إلى مشاورة! ولكن هكذا كان وهكذا أبت مكارم أخلاقه إلا أن يكون!

فقد تفضل جلالته قبل الرحلة بيومين، وأعلن رغبته الكريمة في السفر إلى الخرج وأن نكون في معيته السامية، وقال: هاهي الوفود قد تكاملت، ولم يبق إلا أن نشاوركم في ميعاد الرحلة وترتيبها ومراحلها. فقلنا لجلالته: إن الأمر لكم فيما ترون، وفيما ترتبون وتأمرون!

فقال جلالته: "ما لهذا دعوتكم ولا لهذا تحدثت إليكم، والصحيح أنني أريد مشاورتكم في أمر الرحلة فأنا لا أقطع برأي دونكم، وإن أصررتم على ترك الأمر لي، فأنا أخبركم برأيي لأتشاور معكم في قبوله أو تعديله" ثم قال جلالته: "إن المسافة من الروضة إلى الخرج تبلغ ١٨٩ كيلو متراً، ويمكن اجتيازها في مسافة تتراوح بين الأربع ساعات والخمسة[١٠٠]، ولكنني أرى أن نقطع هذه المسافة على جملة مراحل فنغادر الروضة في

---

[١٠٠] الصوا ب (والخمس) (الدخيل).

صباح يوم السبت بعد تناول طعام الفطور، فإذا صرنا قبيل الظهر ننزل في مكان من الطريق ونستريح به قليلاً ثم نتناول طعام الغداء، وسيكون مطهياً ومعداً، وبعد ذلك نواصل السفر إلى مكان آخر نستريح به، ثم نمشي ساعة من الزمن، فنصل إلى روضة من الروضات نبيت بها إلى الصباح، وبعد تناول طعام الفطور نغادر ذلك المكان إلى الخرج فنصل إليه بعد ساعة من الزمن. فما هو رأيكم في هذا الترتيب" ؟ فاستحسنا من جلالته هذا الرأي السديد الصائب، وقال: " إن الغرض من تقطيع الرحلة على الصورة الآنفة الذكر، ألا أدعكم تشعرون بتعب في الطريق، وأن أدعكم تتمتعون بمشاهدة ما فيه من رياض يانعة ومناظر رائعة" فدعونا لجلالته وشكرنا له هذا العطف الذي لا يبارح سجاياه، وكان أن اعتمد جلالته هذا الترتيب وأمر بتنفيذه.

وجاء الشيخ عبدالرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية إلى مخيامنا، لتنفيذ التعليمات التي أمر بها حضرة صاحب الجلالة، وكان في نيتنا أن يكون السفر إلى الخرج ومنها إلى الرياض، ثم نستأذن في مواصلة السفر من هناك عائدين إلى مكة.

ولكن الترتيبات التي أمر بها جلالته قضت بأن نترك أمتعتنا الثقيلة والخيام في مكانها، وأن نصطحب ما نحتاج إليه من الملابس والأدوات الخاصة، ذلك لأن الرأي قد استقر على أن نعود ثانية إلى روضة الخفس، وأن تكون عودتنا إلى مكة عن طريق هذه الروضة، وأعدت السيارات للسفر وزودت بما تحتاج إليه من الوقود، وقضينا ليلة السبت الآنفة الذكر في إعداد معدات شؤوننا الخاصة للسفر من ملابس وأدوات، أما الشؤون العامة الأخرى فلم نكلف بمثقال ذرة منها حيث كان كل شيء قد أجري ترتيبه في معية مولانا صاحب الجلالة.

وفي الصباح الباكر منذ صلاة الفجر أخذنا نتهيأ للسفر، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار والقهوة واسترحنا قليلاً، جاءنا الدليل الذي أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة على أهبة السفر، وأن علينا أن نستقل سياراتنا إلى مخيام جلالته حيث ينتظم الموكب هناك وتوجهنا إلى المخيام الملكي تلبية للرغبة الكريمة.

ووقفنا ننتظر تشريف جلالته وبعد قليل أقبلت سيارة جلالته، ومن خلفها سيارة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل وسيارات أخرى للحاشية والأتباع وسار موكب جلالته وتبعته سيارات الوفود ومشينا مدة خمس دقائق في رياض غناء، هي الرياض المحيطة بروضة الخفس.

وبعد أن خرج الموكب من ذلك الوادي، وقفت سيارة جلالة الملك- بأمر جلالته طبعاً- وأمربأن ينظم الموكب على الصورة التي يريد جلالته أن يسير عليها فقد أمر بأن تكون سيارات الوفودتسير خلف سيارته وسيارة سمو الأمير فيصل مباشرة، وأن تكون السيارات الاخرى آخر الموكب، ولاشك أن جلالته قصد من ذلك تكريم ضيوفه، كما قصد أن تكون تلك السيارات في المؤخرة حماية لبقية السيارات من التعطيل والتوقف والانقطاع وكان ذلك أبلغ ما يمكن من حسن الترتيب في إدارة موكب الرحلة.

واستأنف الموكب سفره محفوفاً بعناية الله وجميل رعايته، يخترق الأودية والرياض، من وهد إلى نجد، ومن نجد إلى وهد في تلك الإصباحة الصاحية الجميلة.

عاطفة الملك الرحيم

ومنذ ابتدأت هذه الرحلة فيما بين روضة الخفس والخرج، شهدت مالم تشهده عيناي، وإن كانت قد سمعته أذناي، والرؤية ليست كالعيان على كل حال! شهدت لوناً من عاطفة هذا الملك الرحيم كنت من قبل شديد الرغبة في التمتع برؤيتها عن كثب، ولكن الظروف ما كانت لتسمح بذلك، لأنه لم يتح لي أن أتشرف بمرافقة جلالته عن كثب، هذه المرافقة الثانية، فالذين يعرفون حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز، يصفونه بالكرم إلى جانب ماعرف به من الشجاعة، والكرم والشجاعة، صفتان متلازمتان متفقتان في المبدأ والغرض، وليس تاريخ جلالته الحافل، ولا شخصية جلالته الرفيعة، بحاجة إلى التدليل على ما طبعت عليه من الكرم والشجاعة، لأن تاريخ حياته يثبت أن أسباب نجاحه كلها ترجع بعد فضل الله وتوفيقه إلى هاتين الميزتين اللتين امتاز بهما تاريخه وشخصيته، فهي ليست بحاجة إلى تدليل ولا تأكيد! ولكن الشيء الذي نريد أن

نتكلم عنه في هذه المناسبة والذي شهدناه عن رؤية قريبة، هو ذلك العطف الرحيم الذي اشتملت عليه نفسه الرفيعة العالية، والذي لا صنعة فيه ولا تكلف، ولا عنت فيه ولا رياء.

فلنترك الحديث عن الكرم جانباً، ولننظر إلى عاطفة الرحمة في قلب ذلك الملك الرحيم، وإلى أي حد بلغت من طبيعته العطف والمروءة والنجدة وحب الخير والمواساة.

فما كاد موكب جلالته يواصل السير في صميم الصحراء وجوفها الطويل، حتى كان أول مشهد رأيناه، هو منظر سيارة كبيرة من سيارات الحمل، تقف إلى جانب من الطريق بحالة تدل على ما بها من عطل تأدى بها إلى ذلك الوقوف، وإلى جانبها سائقها البائس الذي طوحت به المقادير إلى ذلك الموقف التعس!! وكثير من الناس يمر بمثل هذا المشهد دون أن يعطف عليه بالتفاتة ولو من النظر الشزر، والكثير من الناس يمر بمثل هذا المشهد فيشيح بوجهه عنه أنفة وكبرياء إن لم يرمه بشيء من بطل الحديث وسخرية القول في السر أو العلن، أو يغض دونه النظر كأنما:

تقـــــذى مــــــرآه العيــــــونُ	فـــــلا تــــراه ســـــوى التمــــاحِ

ولكن ماذا فعل ذلك الملك الكبير، والعاهل العظيم؟! لقد أوقف حضرة صاحب الجلالة سيارته فوقفت لأجلها عشرات السيارات الملحقة بمعيتها، والركب ومن في الركب، وصاح على السائق وناداه، ماذا بك؟! فقال له: لقد نفد ما معي من الوقود والماء فأمر جلالته من في معيته من الخدم بإعطائه ما يكفيه من الماء والوقود، وأمر بإعطائه بعض المال ليصلح به من شأنه بعد أن سأله عن أحواله وعن الأسباب التي أدت به إلى ذلك الوقوف! ومن أين أتى وإلى أين ذاهب!!!

وكأنما تسامعت البادية وتناقلت في "لاسلكيها" الخفي، أن جلالته سيمر من ديارها في الوقت المعين، فاحتشد سكانها على أقرب طريق يعرفون أن الموكب سيجتازها، فأما الموسرون منهم، فلا هم لهم إلا أن يتشرفوا باجتلاء طلعة المليك المحبوب الذي هو عندهم الإمام، والقائد، والزعيم، وأما الفقراء منهم، فقد عرفوا عادة جلالته لا في الكرم وحسب، ولكن في العطف والرحمة ورقة القلب والحدب على الرعية ، فيتعرضون

لنفحات بره وعطفه وهو منهم داني القطوف، وشيك الجني، ويصادف أن يرى جلالته في أثناء الطريق فرداً واحداً أو جماعة بحالها أو أسرة من الأسر، فلا يمكن أن يمر موكبه بواحد من هؤلاء، دون أن يقف سيارته، وتقف بوقوفها سيارات الموكب كله، حتى ينفحهم جلالته ما يعرف أنه يكفهم[١٠١] مؤونة الحاجة ويسد عوزهم ويردهم إلى ديارهم مسرورين جذلين.

وظل موكب جلالته يتنقل في البادية طيلة ذلك اليوم، وكلما اجتاز قليلاً من الأميال التقى بطائفة من سكان البادية الذين خرجوا لاعتراض نداه واصطياد بره وعطفه، وهم أفراد وجماعات حسبما يتفق أن يكونوا، فيقف جلالته وينفحهم بما يستحقون على قدر عددهم، وينثر عليهم الدراهم نثراً، وهي عبارة عن كميات من الريالات التي ضرب عليها اسم جلالته، وقضى الله أن تكون إلى جانب ذلك قاضية الحاجات! ومجلبة الأنس والمسرات، ودافعة العوز والفاقات، ولا أظن أن سرور جلالته بهذا العطاء السخي، يقل عن السرور الذي يغمر تلك النفوس المتعطشة إلى المرحمة، والبر والإحسان، ولست أبالغ أن سجية نفس جلالته التي طبعت على الرحمة الخالصة لا تعادلها غبطة ما يدخل على تلك النفوس من الفرح بهذا العطاء، فتلك سجية مطبوعة في نفس صاحبها منذ الفطرة، وهذا حادث يحدثه السرور المؤقت في نفس الضعفاء والمحتاجين.

وليس هذا الذي شهدناه هو الحادث الفذ، ولكن تلك هي خطة جلالته وسجية نفسه في كل حركة من حركات تنقلاته وسفره، بل حتى في إقامته، فجلالته كلما سافر من مكان إلى مكان، أو انتقل من بادية إلى أخرى يؤدي تلك الصدقات، وينفق ذلك الإحسان قربى إلى الله وزلفى، ومن الطريف أن نذكر بهذه المناسبة أن رحلة جلالته في كل عام من الرياض إلى مكة تسير على هذه الوتيرة منذ يتحرك موكب جلالته من أول محطة إلى أن يشرف المكان الذي ينزل فيه في قصره العامر بمكة، وهو ينفق في هذه الرحلة عشرات الألوف من الريالات، وربما ارتفع الرقم الذي يبلغه هذا الإنفاق إلى مئات الألوف، ولقد شهدت في موسم الحج الماضي بطريق المصادفة حادثاً طريفاً في هذا الباب! حين

---

(١٠١) صواب الكلمة (يكفيهم) (الدخيل).

قدوم جلالته لأداء الحج من الرياض، فقد خرجنا في لفيف من الكبراء والأعيان لاستقبال جلالته، في طريق الطائف، فعلمنا أن موكبه غادر السيل وأنه عما قليل سيشرف إلى الزيمة وكان الطريق من مكة إلى المحل الذي وصلنا إليه، مكتظاً بسكان البادية الذين خفوا سراعاً إلى استقبال جلالته وانتظار مرور موكبه، كأنما هتف بهم هاتف أو خف إليهم نفير صائح، نفر بهم من أقاصي الوديان وأعماق الصحراء، إلى انتظار استقبال جلالته، والانتفاع بأريحيته الكريمة، وعطفه الرحيم.

وشرف موكب جلالته "الزيمة" ، وكان أهلها وسكان البادية التي حولها قد انتظموا صفوفاً متراصة وغير متراصة على مراحل مختلفة من الطريق، وكان جلالته على سجيته الآنفة قد نفحهم بما نثره عليهم من الريالات، فلما شرف موكبه تفضل بمغادرة السيارة في المكان الذي أعد لاستراحته، وبعد أن تشرف المستقبلون بالسلام التفت جلالته إلى أمير الزيمة وقال له: لقد نفد ما معنا من الدراهم، فهل عندك شيء منها على سبيل العارية؟! السلفة فقال أجل إنني تحت أمر مولاي وكل ما أملك ! فقال: إن كان عندك أي مبلغ من الريالات فهات ما عندك لأنني في حاجة إليها !! على أن أردها إليك بعد وصولنا إلى مكة، وقام الرجل ذاهلاً لا يلوي على شيء، وقصد إلى داره ثم عاد منها بحمل كبير من النقود سلمه إلى جلالته، فأمر أحد خدامه أن يستلمها[١٠٢] ويضعها في سيارة ركوبه!، وتساءلنا عن السبب الذي يحمل جلالته على الاقتراض وهو على قيد أميال من مكة!! فما أسرع ما علمنا أن ذلك يرجع إلى عامل واحد، فقد تغلبت طبيعة العطف في نفس جلالته، فأنفق على الفقراء من أعطياته من غير حساب، ونفد ما كان معه من المبالغ المدخرة لهذا الغرض[١٠٣]، وكان بينه وبين مكة مرحلة كبيرة تزيد عن الأربعين ميلاً، ولا يمكن لجلالته أن يخلف عادته فيمر بسكان البادية في هذه المساحة الكبيرة، وأهلها مصطفون على قدم الانتظار من غير أن يشملهم ببره وعطفه وإحسانه،

---

(١٠٢) الصواب (يتسلمها) (الدخيل).

(١٠٣) من عادات جلالته في كل رحلاته وتنقلاته سواء في أسفاره أو في نزهاته اليومية الخلوية أن يصطحب إلى جانبه في السيارة كيس نقود مليئاً بالريالات ينفح بها كل من يمر بهم من الفقراء وسكان البادية، وذلك أبلغ مثل على عطفه وحنوه.

كما شمل غيرهم في مساحة تبلغ الألف ميل، فلذلك عمد جلالته إلى هذا "القرض" الحسن لينفقه في بقية الرحلة، ولا شك أن جلالته رد ما اقترض أضعافاً مضاعفة! وأن الله جزاه عن إحسانه أضعافاً مضاعفة والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً!!

هذه خلاصة موجزة عن لون من ألوان العطف الذي عمرت به نفس جلالته نحو رعيته في المناسبات التي ذكرناها، ولكن هناك ألوان أخرى، تبدت في مناسبات أخرى، فقد حدثت ظروف عامة في خلال الحرب العالمية الأخيرة، وظروف خاصة في غير أيام الحرب الآنفة الذكر، أظهرت عطف جلالته بمظهر رائع أطلق الألسنة الخافتة وحرك القلوب الصامتة، فابتهلت إلى الله بالدعاء له بطول العمر، فقد حدثت أزمات مادية لبعض الطوائف من أهالي الحجاز ولبعض الهيئات، وما كان نبأها يصل إلى مسامع جلالته حتى بادرت سجية العطف في نفسه العامرة بالإيمان إلى نجدة أولئك المعوزين فأمر بتخصيص مبالغ كبيرة لتوزع على أولئك المأزومين وزاد جلالته في بره وعطفه فأمر بأن توزع مئات الألوف من الريالات أيضاً على سكان البادية في كل مكان، ثم تفضل فأمر بأن يوزع كل يوم سبعون كيساً من الدقيق، تطبخ خبزاً وتفرق على الفقراء في مكة، وأن توزع كميات أخرى متناسبة المقدار يومياً على الفقراء في جميع مدن المملكة، بلغ مجموعها نحو مائة وعشرين ألف قرص يومياً.

وهذه المبرة العظيمة الجارية المنظمة يعجز اللسان عن وصف أثرها ومداها في مجرى حياة الذين يتناولونها في كل يوم من الأيام! ذلك في المدن، أما البوادي فقد أمر جلالته فوزعت عليهم الحبوب والأقمشة والكساوي[١٠٤] في أكثر جهات المملكة، في دورات منتظمة كلما مست الحاجة إلى ذلك!!

وحدث بعد ذلك السيل التاريخي العظيم الذي غمر مكة يوم الأربعاء ٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠هـ، وترتب عليه إصابة بعض الناس بأضرار مادية، وما كاد يصل نبأ ذلك إلى مسامع جلالته حتى أصدر أمره الكريم فوراً إلى وزارة المالية بتخصيص مبلغ كبير من المال حدده جلالته بالأرقام، لتعمير منازل الفقراء التي نالها شيء من ضرر ذلك السيل!

---

(١٠٤) الجمع المشهور : كسا وكسوات (الدخيل).

وأمر بإنفاق مبالغ أخرى للذين فقدوا شيئاً من أمتعتهم بذلك السبب نفسه، وتسامع الناس بعد ذلك بمبرة جلالته هذه، فخف الكثيرون منهم شاكين ما نالهم من أضرار مادية، فهذا فقد سيارته، وذاك فقد متاعه، وكان جلالته يعنى بكل شكوى من هذا القبيل، ويأمر بتعويض صاحبها بما يخلف عليه ما ضاع!

هذا كله من الناحية العامة، أما من الناحية الخاصة، فإن جلالته ما يكاد يصل إلى مسامعه الكريمة نبأ أي حادث يحدث لأية جهة من الجهات، أو أية كارثة تحل بجماعة ما حتى يبادر جلالته إلى إنقاذها وتعويضها، وقد ألف الناس ذلك من عطفه ودرجوا عليه، فهذا احترق منزله في حادثة حريق، وذاك هدمت داره في حادثة انهياروغير هذا، أو ذاك يصاب بكارثة شخصية في ماله أو نفسه، فلا يجد له ملجأ بعد الله غير حضرة صاحب الجلالة الملك، فيكتب إليه رسالة برقية أو بريدية مستنجداً فلا يكون جوابها إلا العطف والمواساة وإغداق العطاء وتعويض ما أتلف.

والحوادث التفصيلية في هذا الصدد معروفة لا خفاء بها، وتفصيلها يحتاج إلى كتاب لا يقل عن حجم هذا الكتاب إن لم يزد عليه!!

وبعد الكلام عن عطف جلالته، تقتضينا المناسبة أن نتكلم عن سجية أخرى في نفسه المؤمنة، وهي سجية الكرم، وقد قلنا في مستهل هذا الموضوع: إن الكرم والشجاعة صنوان، وأن الخلتين صفتان متلازمتان أو هما صفة واحدة لحالة واحدة، فكرم جلالته يتجلى في أعطياته السخية التي هي عطاء من لا يخشى الفقر! ولا يعرف الفقر، وقد مرت بجلالته ظروف مختلفة من الرفاه والنعمة، وعكسهما من شظف العيش في حياته العصامية الحفيلة، وتكوين ملكه العتيد وحروبه المتلاحقة وغزواته الواسعة النطاق، فكان حرياً بمن حلب شطري الدهر، وعرف طعميه من حلو ومر، أن يكون مقتصداً - على الأقل- إن لم يكن بخيلاً، وإن لم يكن شحيحاً، ولكن تلك القاعدة التي هي مضطردة بالنسبة لجميع الذين تعرضوا لمثل هذه الظروف، قد شذت بالنسبة لجلالته، فهو منذ نعومة أظفاره لا يعرف البخل، وسجيته الواحدة التي لم تتغير أنه "كريم" وكريم بكل ما في مدلول هذا اللفظ من معنى، سواء كان أميراً أو غازياً أو سلطاناً أو إماماً أو ملكاً فلم تند نفسه عن طبيعتها، ولم تتغير عن فطرتها، فهو في جميع حالاته كريم

كل الكرم، وبكل ما يتسع له هذا اللفظ من معنى!! ولجلالته في هذا الباب حوادث متعددة مروية لا تكاد تصدق عن إنسان ما، يعيش في هذا العصر المادي المتحجر، ولولا ما أعرفه شخصياً كل المعرفة من عزوف جلالته عن الرغبة في نشر تلك الحوادث، بل وبغضه الشديد وكراهيته لإذاعة ذلك، وإصدار أوامره المتكررة في هذا المنع لذكرت من قصصها وحوادثها الشيء المعجب الغريب، بل الشيء المطرب المرقص، ولكنني أعرف مالا أقدر أن أقول وحسبي أن أردد قول القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

بين الروضة والخرج

غادرنا روضة الخفس صباح يوم السبت ٢٤ صفر في معية صاحب الجلالة، وكان ترتيب السفر محكماً بفضل ما أصدره جلالته من أوامر وترتيبات، ومشينا مدة ساعتين ونصف، سيراً طيباً متواصلاً بين السرعة والهوينى حسبما يعترض الموكب من وفود أولئك المستقبلين أو السائلين!! وحسبما تقتضيه طبيعة الأرض من تلك الروضات المزهرة اليانعة المختلفة الألوان والباسقة الأركان وما تستوجبه من الأناة والتمهّل والتنزه وتسريح النظر وشرود الخيال، إلى أن وصلنا إلى المكان الذي حدده جلالته لنزولنا، وكان قد أوفد إليه من ينتظرنا بالطعام، فلما وصلنا إلى ذلك المكان أمر جلالته بالوقوف ونزل من سيارته ونزلنا جميعاً، وكان المكان قفراً من كل شيء إلا من شمسه الضاحية المشرقة، وظهيرته المحرقة اللاذعة، فأمر جلالته بأن تصطف السيارات الكبيرة صفاً جانبياً واحداً يتألف منها حائط كبير له ظل في الأرض تبلغ مساحة عرضه مترين في طول ذلك الموكب، فتألف ظل وارف، نزل جلالته يتفيأه ومن في معيته، وفي لحظة سريعة من الزمن أديرت أكواب القهوة العربية الحارة الطازجة كأنما هي قد صنعت بنت وقتها، بينا هي ليس لها وقت يتبناها!! فكيف صنعت؟! لقد كان ترتيبها أعد فيما أعد من قبل، فهي محمولة ومصنوعة في آن، لأنها من الأشياء الملحوظة بالعناية في كل ترتيب!

ولم ننته من تناول القهوة حتى بسطت موائد الطعام، ثم فرقت صحافه فوق تلك الموائد الواسعة، كانت هي الأخرى تشتعل اتقاداً كأنها أنزلت فوراً من قدورها، فكيف أعدت

هذه الموائد، وكيف طهي هذا الطعام، ولما ينقض على نزولنا في هذا المكان غير دقائق معدودات!؟ أكان ذلك هو المنّ الذي أنزل من السماء على قوم موسى؟! أم تلك هي مائدته التي سأل الله نزولها فنزلت!؟[(١٠٥)] لاشيء من ذلك فقد انقضى عصر النبوات ومعجزاتها، وإنما هي ترتيبات حكيمة قدرت نتائجها على أسبابها، ويرجع فضلها إلى تعليمات صاحب الجلالة وأوامره وحسن بصره بتصريف الأمور وترتيبها في الحل والترحال!

وتناولنا الطعام شهياً في تلك الصحراء وفي ذلك الجو الساحر، وأديرت بعده أواني اللبن، ثم نهضنا إلى غسيل أيدينا، وإذا بحضرة صاحب الجلالة ينادي "راعي الطيب" وهو الشخص المختص بتقديم الطيب إليه فتناول منه الطيب وتطّيب به، وهو عبارة عن زجاجة متوسطة الحجم فيها ورد زكي من أرقى أنواع العطور الزكية، ثم قال جلالته من أراد أن يتطيّب فليصافحني! فقد كانت يداه الكريمتان مضمختين بالطيب[(١٠٦)]، فتقدم الرفاق إلى مصافحة جلالته، وكان كلما انتهى من مصافحة أحدهم غمر يده في الطيب مرة أخرى حتى يصافح بها غيره، لأن جلالته لم يقصد من المصافحة إلا أن يُطيّب المصافحين!! وأقبل الرفاق جميعاً على مصافحة جلالته والابتسامة لا تفارق ثغره المشرق ووجهه المتهلل، وهم جميعاً في نشوة الغبطة والسرور من هذا العطف الملكي الكريم الذي يدل على أرق صفات الخلق الكريم.

وتقدمت من جلالته مصافحاً، ثم قلت: إن سلاماً واحداً لا يكفيني!! ولابد من تكرير السلام على جلالتكم! وكان المقصود من هذه الدعابة الإشارة إلى الطيب، وإلى الاستزادة منه، فقال جلالته: سلّم كما تشاء وصافح كما تريد، فكررت مصافحة جلالته وتفضل فضمّخ يدي وغمرها بما في يديه من طيب أريج! وظللت واقفاً خلف جلالته أراقب ذلك المنظر الخلاب عن كثب حتى انتهى جميع الحاضرين من التطيّب بتلك المصافحة والسلام، وبعد ذلك أديرت القهوة العربية مرة بعد مرة، وجلسنا في استراحة

---

(١٠٥) موسى عليه السلام لم يسأل الله إنزال مائدة، وإنما الذي سألها عيسى عليه السلام، كما في القرآن الكريم: (قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء). سورة المائدة، الآية١١٤ (الجاسر).

(١٠٦) من عادات جلالته كثرة الطيب وعلى الأخص بعد الطعام، ومن أكرم عاداته أنه يصافح ضيوفه وكبار رجاله بما في يده من طيب. فتطيب نفوسهم قبل جسومهم بعبيره الزكي الفواح.

قصيرة، ثم نهض جلالته وأمر باستئناف السفر، وركب سيارته الملكية وظل فيها، وانتظم الموكب جملة واحدة كالعادة في كل مرحلة من مراحل السفر.

وهناك ملاحظة نسيت أن أسجلها في محلها من سياق هذا الموضوع، فإننا ساعة وصولنا إلى هذا الوادي، وقبل أن يتم نزولنا من السيارات، تفضل جلالته وسأل رجال حاشيته أن يحصوا السيارات التي في معيته وعما إذا كانت قد وصلت جميعها أم تخلّف منها شيء لأي سبب من الأسباب، فتبّين من الإحصاء أن واحدة من السيارات لم تصل، فأمر جلالته فطيّرت سيارة إلى عرض الطريق لتبحث عنها، ولم تمض عشر أو عشرون من الدقائق حتى كانت السيارة المسعفة والسيارة المتخلفة قد وصلتا إلى المكان، وبعد ذلك أمر جلالته بالقهوة والطعام.

وسار الموكب مدة ساعتين من الزمن في سير هيّن ومتواصل طوراً بين الوخد والخبب، فقد كان جلالته يجدّ المسير فإذا وصلنا إلى روضة من الرياض المزهرة اليانعة وقف للتنزه واستنشاق الهواء واستعراض مناظر تلك الروضات[١٠٧]، ثم يواصل الموكب سفره، وهكذا دواليك.

وبعد العصر بقليل، كنا نجتاز روضة يانعة من أنضر الرياض ذات زهر أصفر اللون عبق الرائحة، ولمح جلالته إلى جانب الوادي شجرة كبيرة فأمر بالوقوف وقصد جلالته إلى تلك الشجرة وأمر بأن تفرش الأبسطة تحت ظلها ففرشت، وأدى جلالته صلاة العصر وفي معيته جميع المسافرين، وبعد الانتهاء من الصلاة أمر بمد موائد الطعام، وكان الطعام في هذه المرة يختلف عن طعام الغداء، فطعام الظهر كان أرزاً مطهياً باللحم ومأكولات أخرى، ولكن طعام العصر، كان مؤلفاً من خبز نجدي مدحو كالرقاق يكاد يدفع

---

(١٠٧) لاحظ بعض الرفاق أنه يوجد ذباب يتنقل على زهور الأغصان في بعض الرياض، فسألني عن ذلك مندهشاً من أن يسمع طنين الذباب في كبد الصحراء، فقلت إن عنترة العبسي لاحظ ذلك وسجله فبي بيتين من الشعر في سياق معلقته واصفاً إحدى الروضات حيث قال:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرداً كفعل الشارب المترنم

هَزِجًا يحك ذراعَه بذراعِه ... قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ

نفسه إلى الأكل من لذة الطعم، وإلى جانبه العسل والزبد و(البسكويت) وغير ذلك، فتناولناه بشهية لا توجد إلا في كبد الصحراء، وفي ثنايا الرحلات والأسفار، ثم عدنا إلى مجلسنا تحت ظل تلك الشجرة الكبيرة الوارفة، لتناول القهوة، وكان جلالته ينثر على الحاضرين مداعباته ونكاته مدة نصف ساعة قضيناها في ذلك المكان!

ونهض جلالته للسفر وأمر بالمسير إلى المرحلة الأخرى، وكانت على مسافة ساعة واحدة بلغناها قبيل المغرب بقليل في غير مشقة ولا عناء، وكانت هذه المحطة في مكان يسمى "روضة بلال" وكا نت الترتيبات قد سبقت إليها، فما بلغناها حتى رأينا الخيام منصوبة، والمضارب ممدودة، والنيران مشتعلة للطهي، والأنوار متقدة للإضاءة، وحركة الحياة تدبّ في ذلك المخيام طولاً وعرضاً، وقد أعد لكل فريق مكان من تلك المضارب في منازل متقاربة في طول الوادي وعرضه للمبيت فيه. وما كدنا نصل حتى كانت المغرب وشيكة الأذان فتوضأنا، ثم نادى المؤذن إلى الصلاة بأذان جهوري هزّ صمت الصحراء وأطربها، فهرعنا إلى مخيام جلالته لنؤدي صلاة المغرب في معيته، وبعد الصلاة عاد كل فريق إلى مخيامه للاستراحة بعض الوقت!

وكنت منذ صباح ذلك اليوم، أحس بدبيب من الفتور يتطرق إلى جسمي لا أدري أيرجع سببه إلى تعرضي لحرارة الشمس في النهار أم لبرودة الجو في الليل، ولكن الفتور أخذ يزيد شدة بمرور الوقت، وشعرت أنه من أثر التهاب أصاب الحلق! وما كاد بعض الرفاق يعلم ذلك مني حتى صحبني رفيق كريم منهم هو الأستاذ عبدالرؤوف الصبان إلى خيمة الطبيب، وهناك سألنا عن الطبيب فقيل لنا: إنه يحضر الآن، وانصرف رفيقي يتجول في المخيام وبقيت برهة في الانتظار، فقدم معالي الشيخ يوسف ياسين، فقال لي ماذا أتى بك إلى هنا؟ فقلت وما الذي أتى بك؟ قال إني مريض وأشكو من التهاب اللوزتين في الحلق منذ أيام، فقلت له: وإني كذلك مريض بهذا المرض ولكن منذ اليوم فقط، ولأجل هذا قدمت إلى مكان الطبيب وما كنت أعلم بمرضك من قبل، فكأنني وإياك كما قال أبونواس:

إنـــي حُمِمْــتُ ولم أشــعرِ بُحَّمــاكِ   حَتَّـى تحـدَّثَ عُـوَّادِي بشـكواكِ[108]

وكان الحديث عن أبي نواس فاتحة حديث طويل عن الأدب والشعر "وحولية نجد" وغير ذلك من أحاديث النفس، وانتحينا جانباً من المخيام، وأخذنا في غسق ذلك الظلام نتساقى من عذب تلك الأحاديث رحيقاً شهياً مدة نصف ساعة وقدم الطبيب وأسعفنا بما عنده من العلاج، وكان الطبيب هو الدكتور "رشاد فرعون" الذي لم تكن لي به معرفة إلا منذ هذه الساعة.

وعدت إلى المخيام، وجلست قليلاً مع الرفاق إلى مابعد الساعة الواحدة بقليل حيث جاء النفير الذي يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء في معية صاحب الجلالة، أما كاتب هذه السطور فقد اشتدّ بي[109] الانحراف فلم أستطع تناول العشاء غير أنني شهدته ثم عدت أدراجي إلى خيمتي للاستراحة والنوم، بعد أن أحسست بدبيب المرض يتدافع إلى جسمي ويتسابق إلى شرايينه وخلاياه.

وقضيت تلك الليلة في نوم متقطع من بوادر الحمى، وكانت تلك الليلة باردة كأخواتها لا تمتاز إلا بعاصفة شديدة هبت وظلت على وتيرة واحدة طيلة الليل، وما أكثر العواصف في الصحراء سواء بالنهار أو الليل! وما أكثر هبوب الصبا في نجد، تلك الصبا الباردة المنعشة التي خلّدت الشعراء بما قالوه فيها من بديع القول، ورشيق الغزل!

وفي الصباح الباكر بعد الصلاة وبعد تناول طعام الفطور استأنف الموكب سفره إلى الخرج التي هي بيت القصيد في هذه المرحلة!!

---

(١٠٨) في ديوان أبي نواس: ٤٧٠ (ط دار صادر) (بشكواكا) والبيت مطلع قصيدة قالها في رحمة بن نجاح وكان محموماً (الدخيل).

(١٠٩) المناسب أن يتحدث عن نفسه بضمير الغائب هنا (فقد اشتد به الانحراف، لم يستطع...) (الدخيل).

حول الخرج

كان الحديث عن الخرج هو الشغل الشاغل لأذهان طبقة كبيرة من الرجال في مكة، منذ لفت النظر إليها معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية، عند البدء في هذا المشروع الزراعي الكبير المترامي الأطراف، وكان أهم ما لفت الأنظار إليه في أول تأسيسه سفر وزير المالية إلى الخرج وعودته منها ورجوعه إليها، وما أشيع من المعلومات الكثيرة الواسعة عن ذلك المشروع، سواء منها ما جاء على لسان معاليه أو ما أسند إليه من الرواية، وما تحدّث به المتصلون به من الآراء والبيانات التي كانت تفضي في مجموعها إلى شيء واحد هو الإشادة بعظمة هذا المشروع وبما وصلت إليه مراحله من التقدم السريع المبشر بالخير والنجاح. وظل أمر الخرج يتفاقم في أذهان الناس ومسامعهم بمرور الزمن، وبتقدم المشروع مراحل جديدة في سبيل النجاح، وبزيادة المعلومات التي أصبحت تذاع ويتناقلها الناس خصوصاً بعد أن كثر سفر معالي وزير المالية إلى تلك المنطقة وعودته منها واصطحابه بعض الموظفين وإدلائه بالأحاديث المختلفة الشائقة عن عوامل تقدمها ونجاحها، وكان أول خبر رسمي يذاع عن منطقة الخرج ومشروعها هو تقرير فني مطول كتبته البعثة العراقية الزراعية التي استقدمتها حكومة جلالة الملك من العراق للكشف على تلك الأرض واستخدام وسائل الفن الحديث في إنتاجها. وقد سجلناه في مكانه من هذا الكتاب لفائدة الرجوع إليه لمن يشاء.

وانقضت الأيام تباعاً والحديث عن الخرج، يدور على الألسنة وتتناقله أفواه الرواة كلما جدّت مناسبة أو سنحت فرصة! أو كلما وصل قادم من تلك المنطقة قد يستطيب إصغاء المستمعين له ويبصر تشوقهم إلى الاستزادة من سماع أحاديثه فيفيض في سرد المعلومات التي كثيراً ما تنتهي به إلى تدعيم أقواله بالأرقام عما وصل إليه المحصول ثمة من النجاح والإنتاج، على أننا لم نكن نظن شيئاً من المبالغة في أقوال الرواة نظراً لما هو معروف عن خصوبة تلك المنطقة قديماً حتى قيل: إنها ما سميت "الخرج" إلا لأن محصولها كان "يخرج" إلى الحرمين الشريفين في أزمنة مختلفة من التاريخ القديم[١١٠]، ورغم أنه مرت على تلك

---

(١١٠) حقاً كانت اليمامة ويقصد بها إقليم العارض بأجمعه وما حوله على درجة من الخصوبة وكثرة الحاصلات، بحيث كانت تمدّ الحرمين الشريفين بحاجاتهما من الحبوب، كما عرف هذا في عهد المصطفى صلى الله

المنطقة سنة من النوم تبدلت حالها من العمران الزاهر والخصوبة اليانعة إلى الإقفار والجدب، إلا أن إحياء المشروع على يد حكومة حضرة صاحب الجلالة واتجاه العزيمة إلى إحياء مواتها، ونهوض معالي وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان بتنفيذ رغبة جلالته، ثم استخدام وسائل الفن والعلم في الإثمار والإنتاج، كل ذلك لم يدع ظن المبالغة يتطرق إلى نفوسنا فيما كانت تسرده علينا ألسنة الرواة عن خصوبة الخرج وإنتاجه وأرقام محصوله، والشيء الذي ثبت عندنا من تلك الروايات كلها، أن في الخرج ما يشبه بحيرات الماء أي أن الماء متوفر بكثرة تضمن الري الزراعي على أحسن حال واقترن تصديق الروايات المؤكدة عن مياه الخرج وغزارتها بوقوع حادث رسخ في الأذهان بعد أن صرف الله شره، فقد تصادف أن بعض حضرات أصحاب السمو الأمراء كانوا في زيارة تلك المنطقة فلما وصلوا إليها وقفوا بسياراتهم عند حافة العين الكبيرة التي يُستقى منها للري، ولأمر ما يريده الله، تحركت السيارة من نفسها واندفعت إلى العين فابتلعتها لجة الماء وغاصت إلى القرار، ولحسن الحظ كان فيها واحد من الركاب أنقذه الله بأن ألهمه أن يقذف بنفسه منها قبل سقوطها إلى الماء!! وضاعت السيارة في اللجة وابتلعها ذلك اليم الزاخر الذي احتواها في أحشائه وضن بها على النور والحياة، وقد كان من الأسباب التي ترتب على ذلك أن استقدمت الحكومة أخصائيين من الغواصين ودفعتهم إلى سبر غور هذه العين، فنزلوا إلى ما استطاعوا النزول إليه من مسافات في الأعماق، ثم عادوا لا بالسيارة ولا بخفي حنين، ذلك أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى قراراتها[١١١]، ولا إلى نهاية أعماقها، وإنهم لو استطاعوا لعادوا بخبر ما، فإما أن يعودوا بنبأ السيارة وما تأدى إليه مصرعها من التحطيم، وإما أن يعودوا بخفي حنين بعد أن يكونوا سبروا غور العمق ووصلوا إلى

عليه وسلم، عندما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي أحد سادة تلك البلاد وأقسم ألا يمد قريشاً بشيء من محصول اليمامة من الميرة، حتى يأذن في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ففعل حتى بلغ بهم الجهد إلى أن شكوا الأمر للرسول عليه الصلاة والسلام، فأمر بترك الميرة لهم، وتكررت الحادثة حينما استولى نجدة بن عامر الحنفي على اليمامة في عشر السنين من القرن الأول الهجري، فمنع القوافل من الذهاب إلى الحجاز، حتى كتب إليه ابن عباس رضي الله عنه، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر ثمامة بترك الميرة لأهل مكة وهم كفار، وأنت منعتها عنا ونحن مسلمون، فتركها لهم، وبلاد الخرج وإن كانت بهذه الصفة إلا أن الكلمة لا أصل لها بهذا المعنى فيما عرف من المؤلفات.

(١١١) لا أعتقد أن العلم، وقد بلغ مبلغه كان من العجز بهذه الدرجة، فالقصة أقرب إلى الخرافة (الدخيل).

نهايته، فأما وأن ذلك لم يحصل فما كان هناك سوى الخيبة في الوقوف على حقيقة الأبعاد التي تصل إليها أعمال ذلك الماء، ولقد كانت النتيجة الأخيرة هي المطلوبة لأن أمر الحصول على السيارة سليمة أو العثور عليها غير سليمة أمر ميئوس منه ولا أمل فيه، وكذلك الشأن فيما يتعلق بخفي حنين اللذين يرجع بهما -مجازاً- كل خائب الأمل، ولم ترجع بها الحقيقة التي أضاعتها القرون الطويلة الخالية!!

كان هذا الحادث المزعج، وعاقبته السليمة سبباً مباشراً في ذيوع المعلومات الواسعة عن حقيقة العيون في الخرج، وما تنتجه من المياه فالبئر التي تبتلع سيارة وتهضمها أمعاؤها ليست بئراً، والعين التي تستندي بمياهها كتلة من الحديد والخشب وتزدردها لقمة سائغة، ليست عيناً وحسب، فلم يبق إلا أن نقول إنها بحيرة أو شبه بحيرة!!

وفي يوم من أيام آخر شهر محرم من ذلك العام-١٣٦٠هـ- كنت خارجاً من وزارة المالية ظهراً، فالتقيت بصديقي الشاب الأديب، والشاعر المستتر، الأستاذ أحمد موصلي مدير مكتب معالي وزير المالية، وركبنا السيارة معاً إلى (أوتيل) مكة، حيث كانت سيارتي تنتظرني هناك، وفي هذه المسافة الصغيرة التي قطعناها معاً كان الحديث يدور بيني وبينه عن الخرج، ولا أدري ماهي المناسبة التي دفعتنا إلى ذلك الحديث؟ لأن سفرنا ورحلتنا هذه لم تكن قد تقررت بعد، وأظن أن المناسبة لذلك كانت سفر معالي وزير المالية في ذينك اليومين إلى نجد، وكان المفهوم في ذلك الحين أ ن سفر معاليه إلى نجد، معناه سفره إلى الخرج أيضاً لأنه من غير المعقول أن يزور معاليه نجداً ولا يزور تلك المنطقة التي تيمته وأغرم بها كل الغرام وكرس كل جهوده لأجلها في ذلك الوقت.

وكانت خلاصة الحديث أنه سألني: ألم تكتب شيئاً جديداً عن الخرج؟! فقلت له ليس لدي من معلومات جديدة عنها وإن أكثر ما نسمعه من المعلومات الأخيرة ليس إلا من ألسنة الرواة مهما تكون[١١٢] منزلتها من الثقة - وهم غير مسؤولين - بينها فارق كبير وبين

---

(١١٢) صحة الكلمة (تكن) لأن مهما اسم شرط جازم يجزم فعليه (الدخيل).

الأرقام الرسمية أو الروايات الشبيهة بالرسمية[113]، وكاتب مثلي حين يريد أن ينشر أقواله على الناس لا يصح له أن يعتمد على الأولى دون الثانية! ! فقال لي: لم لم تسأل حضرات الموظفين الذين يختلفون إلى تلك المنطقة في مرافقة معالي وزير المالية؟! فقلت قد فعلت وقد سمعت منهم معلومات محدودة ليست هي بلغة الكاتب المتعطش في إيراد معلومات شاملة للجمهور الظامىء!! فقال هناك معالي الوزير نفسه أفتراه يضن عليك لو سألته عن معلوماته في هذا الصدد، ومعاليه هو جهينة تلك الأخبار؟ قلت لا: فإن معاليه لا يضن بذلك، بل هو كثير الإفاضة في هذا الموضوع في كل مناسبة ولكن العقبة الكؤود، هي أن تضع يدي على معالي الوزير! فأين هو الآن؟! هو في جدة، ولكنك بعد قليل تسمع أنه في مكة، ولا تلبث بعد ذلك أن تبحث عنه فتجده في الطريق بين مكة وجدة أو لاتجده، فإذا قدر لمعاليه تخلية هذا الخط بين مكة وجدة، فدونك والخط الثاني بين مكة والطائف، فهو يوماً في الطائف وأياماً بين مكة وجدة، وأياماً أخرى بين أرباض نجد وربوعها، لا في بلد واحد ولا في مستقر واحد بل في جميع بادية نجد والأحساء ومدنهما الشاسعة الأمداء البعيدة الأطراف، وقد لا يكون في كل هؤلاء فيكون في الظهران حيث تقوم مناجم شركة استخراج البترول هناك!! أفليس الحصول على رؤية معالي الوزير المشغول، مشكلة دونها كل المشكلات، ما لم تتح الظروف وجوده مصادفة في أي مكان ما من هذه الأمكنة؟! وانتهى الحديث بيني وبين صديقي الأستاذ أحمد موصلي بأن قال لي: " إذاً يجب أن تذهب بنفسك إلى الخرج، وتراها وتكتب عنها ما تراه، فقلت له: هذه هي النتيجة التي أريد الوصول إليها من هذه المحاورة! فهل يقدر لي ذلك، قل سيقدر إن شاء الله" ولم تكن رحلتنا إلى نجد قد تقررت بعد، وحدث بعد يومين أن حضر معالي الوزير من جدة فقضى يوماً في العاصمة، وغادرها بليل إلى الشرايع ومنها إلى الرياض.

والغرض من إيراد هذه القصة القول: بأن سفرنا إلى نجد لم يكن قد تقرر إلى تلك اللحظة! حتى في الساعة التي ودعنا فيها معالي الوزير وهو مسافر إلى نجد أو إلى الخرج

---

[113] في العبارة خلل والصواب (وألسنة الرواة - وهم غير مسؤولين - مهما تكن منزلتها من الثقفة فإن بينها وبين الأرقام الرسمية أو الروايات الشبيهة بالرسمية فارقاً كبيراً) (الدخيل).

التي هي هدف القول في هذا السياق. ولكن بعد يومين اثنين من ذلك الموقف وبعد بضعة أيام من الحديث الذي جرى بيني وبين الأستاذ أحمد موصلي مدير مكتب الوزير عن الخرج، أراد الله أن يصبح حقيقة واقعة ملموسة دانية التحقيق ما كنا نظنه محالاً بعيد الوقوع، فها هو ذا سفرنا إلى نجد قد تحقق وصدر به الأمر السابق الكريم، وها نحن في نجد وعما قريب سنحظى برؤية الخرج التي طالما أحسسنا بلوعة الشوق إليها والوجد بها.

وما كنا نعلم أنه سيكون من برنامج زيارتنا لنجد أن نزور منطقة الخرج، ما كنا نعلم ذلك من قبل، ولكن بيني وبين نفسي، كنت مصراً على التطفل بعد الوصول إلى نجد في طلب الإذن بزيارة تلك المنطقة إن لم يكن الترتيب قد سبقنا إلى إقرارها، وكانت حكمة جلالة الملك المعظم قد سبقتنا إلى اتخاذ ذلك الترتيب فكفتنا مؤونة ذلك التطفل الذي كنت أتحاشاه!!

قلت فيما سبق من الكلام: في الليلة التي أمضيناها في "روضة بلال" إنني التقيت بمعالي الشيخ يوسف ياسين ودار بيننا حديث -والحديث ذو شجون- عن مختلف الأغراض والشؤون، وكان فيما دار بيننا من الحديث قول سعادته "سنشاهد غداً أعظم مشروع انضمت عليه جوانح هذه المملكة، بعد مشروع استنباط البترول الذي تعرفه!" فقلت لمعاليه مندهشاً: إنني أخشى المبالغة فيما تقول، فماذا تعني؟! قال: أعني الخرج التي ستشاهدها غداً فهي مشروع خصب وفير الثروة، كثير النماء، داني القطوف، وإن وزير المالية بذل في خدمته مجهوداً محموداً حتى وصل إلى ماصار إليه من الإنتاج، ولا سبيل للمبالغة فيما أقول، فنحن نصل إليه في الصباح الباكر وستشهده بعيني رأسك!! وهنا لذت بالصمت عن الجواب، ولجأت إلى السكوت للخروج به عن النفي والإثبات، ذلك لأنني واثق بما يقوله رجل كبير المكانة كالشيخ يوسف ياسين، ولا أعرف عليه[١١٤] مبالغة ولا تهويلاً، ولو أنني سمعت هذا القول من شخص آخر غيره، لما قابلته بمثل ذلك التسليم. أما وقد سمعته بأذني من الرجل الذي أعرفه ولا أجهل مكانته الشخصية، ولا أجهل مكانته الاجتماعية، وهو الرزين الذي لا ينطق إلا بمقدار، ولا يتكلم بغير الحقيقة، فلا سبيل إلا

---

[١١٤] الصواب (عنه) (الدخيل).

إلى التأمين على ما يقول! أو الصمت وهو من علامات التأمين أو الرضا كما يقولون! وسكت وأنا أشد وثوقاً بما كنت أسمع وأعرف من الأنباء عن "الخرج" بعد أن زكاها عندي رجل من أصدق الرجال وأبرزهم، ومالي لا أصدقه وليس بيني وبين مشاهدة ما يقول غير سواد ليلة أو بعض ليلة!!



وفي الصباح الباكر من يوم الأحد ٢٥ صفر تحرك موكب حضرة صاحب الجلالة قاصدين[115] الخرج، وكا نت كلما اقتربت مسافات الرحلة، وكلما قطعنا مرحلة من الطريق، زادت النفس شغفاً بالشوق إلى رؤية الخرج، وما لنا لا نتعجل الوصول إلى مكان يقودنا إليه حضرة صاحب الجلالة قاصدين إلى تلك الغاية التي خفقت من أجل تحقيقها نفوسنا، وهفت إلى رؤيتها قلوبنا قبل أن ترنو أبصارنا، أفنحن في حلم أم في يقظة ؟! وهل هو سبات أم صحو؟!!

وكان موكب جلالة الملك يقطع المسافات على سيره المعتاد، فهو حيناً وئيد، وحيناً غير وئيد حسبما تقتضيه طبيعة الأرض، أو تقتضيه مناظرها الخلابة وما فيها من بواعث الفتنة والجمال والتريث بين تلك الروضات المبعثرة، أو بين أناس يقفون إلى جانب الطريق فيقف الموكب لوقوفهم طيلة المدة التي يتفضل فيها جلالته بالسؤال عنهم وتقصي أحوالهم والسؤال عن جاجياتهم[116]، ونفحهم بما يشرح صدورهم ويبهج نفوسهم من الفضة البيضاء اللامعة التي توجت باسمه الكريم، وجعلها الله فرجاً للناس من الضيق، ومخرجاً لهم من الضنك، ووقاء من الحاجة!!

وأخيراً أقبلنا على عمران أو شبه عمران، فقد بدأنا بنصر طلائع الناس المجدين المشتغلين، الناس الذين يزرعون الحقول و كلهم أمل، ويجنون الحصاد وكلهم ثقة، وبدأنا نبصر السواد، وما أدراك ما السواد؟!! فعلمنا أننا أوشكنا أن نصل إلى غايتنا، فقد بدأت طلائع

---

(١١٥) الأصوب أن يقول (قاصداً) (الدخيل).

(١١٦) الصواب (حاجاتهم) (الدخيل).

العمران، والعمران في الصحراء ليس هو بناء القصور، ولا إعلاء الدور، ولكنه في تلمس دبيب الحياة حين تحس دبيبها، أو في تحسس مظاهرها حين تبصر مناظرها، ودبيب الحياة في الصحراء الجرداء يتلمسه المسافر في أبسط الحركات، ومظاهر الحياة في البيداء، يتحسسها الضارب في كبد الصحراء، في أهون مظاهر ألوانها وحركاتها!!

وفي هذه اللحظة اشرأبت أعناق المسافرين إلى اجتلاء طلعة ذلك السواد، لما كان يبشر به من الوصول إلى العمران، ولما كان فيه من مظاهر الخصوبة البادية، التي لولاها لما أبصرت آدمياً واحداً من أولئك الناس الضاربين في هذه البيداء، وهي لا تحمل من معنى الصحراء غير اسمها، أما هي في حقيقتها فمكان خصب جميل يكاد يُسلمك منظره إلى تذكر أي قرية من قرى الريف الوارف في مصر وغير مصر من بلاد الأنهر المتدفقة، وهذا ماشعر به الرفاق جميعاً وما تحدثوا به وما أطلقوه من الوصف على مستهل الخرج في مرآها الأول.

إلى زرقاء اليمامة

أقبلنا[١١٧] على الخرج من بعيد، فكأننا أقبلنا على قرية خصبة من قرى الريف الخصيب، ورأينا تلك الخصوبة تتجلى فيما نشاهد من مزارع وحقول، وكان ذلك المنظر يختلف في

---

(١١٧) هذا القسم الجنوبي الشرقي من نجد هو المعروف قديما باسم اليمامة، واليمامة معروفة منذ القدم بالخصومة الزاهية، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عبدالوهاب عزام في كتابه "مهد العرب" بعبارات نقتطف منها: وقد ضرب المثل بكثرة نخيلها كما قال أبو العلاء: " وجدت العلم ببغداد أكثر من الجريد باليمامة" وفي الجنوب الغربي من وادي حنيفة إقليم الخرج وهو من أخصب بقاع نجد، وقد عني به جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود فاستخرج مياهه بآلات عظيمة وهو يمتد ثمانين ميلا في خمسين.

وكانت في اليمامة منازل طسم وجديس من قبائل العرب البائدة، وكذلك قصة زرقاء اليمامة التي كانت تبصر من مسافة ثلاثة أيام، وقد ضرب بها المثل في الأشعار والأخبار، وهناك قرية منفوحة التي كان يسكنها الأعشى وفيها دفن، وقال الشيخ يوسف ياسين إن بيت الأعشى معروف فيها إلى اليوم".

❖ اليمامة : اسم المنطقة أشمل وأعم من هذا، فهي تشمل جميع منطقة العارض والوشم وعرض شمام (عرض القويعية) والأفلاج، كل هذا في القديم يشمله اسم اليمامة، والخرج هو ناحية من هذه المنطقة، ذات

مشهده وعلاماته عن سائر ما رأينا من بوادي الصحراء، لأن دلائل الحياة والإنعاش في تلك الصورة الرائعة لها مظهر يبعث في نفس رائيها اليقين بحقيقة خصبها، أما البادية الجرداء أو المعشوشبة فمرآها في العين يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فنحن إذ نقبل على الخرج، لانشك أننا نقبل على قرية آهلة بالسكن والخصوبة والعمران، فهؤلاء المزارعون منتشرون من مسافات بعيدة وعلى مساحات مختلفة. ترى فيهم روح الحياة والنشاط والعمل، وتلك مواشيهم وأباعرهم وغيرها من الدواب، تشاركهم الدأب والسعي والعمل والإثمار والإنتاج، وفي تلك الحالة الزاهية الناضرة لا نرى للفقر شبحاً ولا تشعر برثاء أو إشفاق نحو أولئك السكان، كما هو الشعور نحو غيرهم من أعراب البادية الرحل الذين يعيشون على التنقل في طلب العشب واصطياد الكلأ والمرعى، وانتجاع الغيث من مظانه ومراميه السحيقة غير المستقرة، بل إنك لتغبط أولئك السكان المستقرين بين الخصوبة[١١٨] وبين وسائل الحياة المواتية ، الريفية الجميلة المستقرة.

وكان أول ما شهدناه من أسباب الخصوبة في الخرج، مجرى عين ماء يقع على مسافة ميل منها، وهو مجرى مستور بالبناء، وموطأ في ناحية من نواحيه لاجتياز السيارات، إذ هو يعترض طريقها، وقد قال لنا حضرة صاحب الجلالة الملك فيما بعد:

إن جلالة والده الإمام عبدالرحمن رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، هو الذي أصلح مجرى ذلك العين وأقامه للانتفاع بمياهها في الري والسقيا هناك، وكنا كلما نقترب[١١٩] من المدينة الزراعية، كلما[١٢٠] رأينا نشاط مظاهر الخصوبة تدنو إلينا أو ندنو

عمران قديم، وقرى منتشرة، وفي عهد مضى كان قاعدة اليمامة المنطقة كلها في الخرج وهي (الخضرمة) التي كانت تقع على مقربة من بلدة (اليمامة) التي لا أستبعد أنها إحدى محلات (الخضرمة) القديمة (الجاسر).

❖ هذا غير صحيح، فإقليم الخرج في الجنوب الشرقي من (وادي حنيفة). ولعله نقل الخطأ من كتاب (مهد العرب) للأستاذ عبدالوهاب عزام (الجاسر).

(١١٨) واو العطف تقوم هنا مقام التعبير ببين (الدخيل).

(١١٩) الصواب (اقتربنا)، لأن كلما لا تدخل إلا على الماضي (الدخيل).

(١٢٠) الصواب حذف (كلما) هنا، لأنه لا يجوز تكرارها (الدخيل).

منها حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام حدائق غناء نثرت فيها شجيرات النخيل ومن بينها المزروعات الأخرى من شجيرات الفاكهة، وبين ذلك كله قنوات عريضة تجري فيها المياه، كأنها فروع من نهر، كما هو الشأن في توزيع مياه الري والسقيا في بلاد الأنهر الزراعية. وبعد دقائق معدودة رأينا أنفسنا أمام قصور شاهقة، ومبانٍ عديدة متفرقة فعلمنا أننا ألقينا عصا التسيار، وأن هذه هي ضالتنا من الرحلة. ولم يطل بنا التفكير حتى وقف الموكب، أمام القصر الملكي الذي أعد لنزول جلالته، حيث شرف إلى الطابق العلوي، ومن في معيته وقصد إلى مجلسه الحفيل، وهو عبارة عن غرفة كبيرة المساحة لا يقل طولها عن عشرين متراً في عرض ثمانية أمتار.

وتفرق من في معية جلالته على غرف القصر وأبهائه الفسيحة وهم يبلغون المئات من الأشخاص، وهناك في يمين القصر شرفة مكشوفة تواجه الهواء، يتألف منها مجلس يزيد طوله عن العشرة أمتار ولا يقل عرضه عن الأربعة، وهذا المجلس بتلك الشرفة يفصل بين غرفة الاستقبال الكبرى في القصر وبين غرفة الطعام، وكلاهما في مساحة واحدة، وكانت تلك الشرفة بمثابة مجلس استراحة لتناول القهوة، بالنظر لجودة موضعها وتعرضها لطلاقة الجو ورقة الهواء الشمالي الذي يهب من ناحيتها.

جلس جلالته في صدر المجلس ومن حوله الحاضرون، وكان جلالته على سجيته في مكارم الأخلاق، يؤانس ضيوفه بطيب حديثه، وما هي إلا دقائق حتى حضر إلى المجلس الشاب النشيط "سليمان الحمد" نجل سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية، يدعو جلالته إلى تناول طعام الإفطار.

و"سليمان الحمد" هو النجل الأكبر لسعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية وهو شاب مثقف ذكي في الحلقة الثالثة من حياته كما أظن- وقد سبق أن أوفده والده إلى بيروت لتلقي العلم في جامعاتها فمكث مدة غير قصيرة اغترف فيها من مناهل العلم ماشاء له الله أن يغترف، وقد حال دون رغبة والده ورغبته في مواصلة التعليم إلى نهايته انحراف طرأ على عينيه فنصحه الأطباء بالعدول عن مواصلة القراءة والكتابة بالمجهود الذي يخشى من تأثيره على بصره، وبعد ذلك ترك معاهد العلم في لبنان وسافر إلى القاهرة فقضى فيها بعض الوقت، ثم قفل إلى بلاده راجعاً، وقد رأى فيه حضرة صاحب

المعالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية، مخائل[١٢١] النجابة والذكاء، بعد أن تزوّد بما استطا ع أن يتزوّد به من التعليم والثقافة، فعهد إليه ببعض الأعمال الإدارية في الدوائر التابعة لوزارة المالية، فكانت إدارته لها كفيلة بمضاعفة الثقة في حسن تصريفه للأعمال، فانتدبه عمه -وزير المالية- إلى الحضور للخرج، وظل فيها مدة من الزمن ناهضاً على تصريف الأعمال والإنشاء والإدارة حتى اكتسب دربة واسعة ومراناً عظيماً، وأصبح فيما بعد الساعد الأيمن لعمه في القيام بالأعمال الإدارية المتعلقة بزراعة الخرج وريه وسقياه. وكان من المصادفات أن معالي وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان سافر من الخرج هذه إلى منطقة الإحساء[١٢٢] لأعمال هامة، فلم يشهد تشريف جلالة الملك إلى الخرج، وإنما كان فيها "سليمان الحمد" ابن أخي الوزير، وهو الذي تشرف باستقبال حضرة صاحب الجلالة الملك، وهو الذي كان يقوم بخدمة جلالته، والسهر على راحة الوفود وإكرامهم طيلة الأيام التي قضاها جلالته في الخرج.

ولقد ظهر لسليمان الحمد فيما بعد شأن كبير في إدارة أعمال كثيرة عهد بها إليه، وطدت من كفاءاته وجدارته بالنهوض بمختلف الأعباء ما أثلج صدور محبيه وأصدقائه ممن كانوا يتوسمون فيه ذلك، ويترقبون له النجاح كما أنه زار مصر مرات عديدة، واختلط بأكثر أوساطها الراقية، وبيئاتها الكبرى فكان موضع الإعجاب والتقدير حيثما حل لما يبديه وهو في سنه المبكرة من رجولة صادقة لفتت إليه أنظار الإعجاب والتقدير، وقد زار مصر أخيراً في معية حضرة صاحب الجلالة الملك وأنعم عليه جلالة الملك فاروق الأول بنيشان إسماعيل.

وبعد الانتهاء من الإفطار وتناول القهوة أذن جلالته لضيوفه ورجاله بالانصراف إلى الأماكن المخصصة لنزولهم للاستراحة من عناء السفر، وقال جلالته: "إنني أدعوكم أولاً إلى المواظبة في الحضور إليّ في مواعيد الطعام للفطور والغداء والعشاء لنتناوله معاً، ثم أدعوكم بصفة عامة إلى زيارتي في هذا المكان في أي وقت من أوقات النهار والليل من

---

(١٢١) مخايل دون همز (الدخيل).

(١٢٢) الأحساء بفتح الهمزة (الدخيل).

غير قيد ولا شرط، ومن غير إذن ولا حجاب، فأنا هنا معكم وأنتم معي، وليس لنا من عمل يحجبني عنكم أو يحجبكم عني، وما حضرنا إلى هذا المكان إلا للتنزه وتفريج النفس والاتصال ببعضنا، في أي وقت تشعرون فيه بالرغبة في زيارتي فلتتفضلوا، سواء كلكم جميعاً أو بعضكم، ولا تتقيّدوا بأي قيد مطلقاً!" فشكرنا جلالته على هذا الخلق العظيم والعطف الذي لا مزيد عليه.

غادرنا قصر جلالته -الحديث- إلى القصر الأول الذي كان يسكنه، والذي أعد فيما بعد لاستقبال الضيوف وهو على مسافة مئات قليلة من الأمتار من القصر الآخر، فنزلنا فيه جميعاً كل فريق في جناح بحيث اتسع لنا من غير ضيق ولا تزاحم، فقد كان القصر مؤلفاً من أجنحة مستقلة، فسيحة الأرجاء، متسعة الغرف، متعددة المنافع، فرش كله بالأبسطة فراشاً بسيطاً ليس فيه أي شيء من مظاهر التكلف، وأعظم ما فيه من مظاهر الكما ل في حسن الاستعداد أنه مضاء بالكهرباء ومن أين لك بضوء الكهرباء اللامع في صميم تلك البادية المفصولة عن العمران بعشرات المئات - أو بمئات العشرات!! - من الأميال. إن الكهرباء زينة في صميم العواصم وكبريات المدن، فما بالك بها في صميم الصحراء وقلب البادية، أليست زينة الزينات، وأعظم مظهر من مظاهر الكمال العمراني البهيج؟!!

وبعد أن قضينا ساعات عديدة في الاستراحة والاستجمام غادرنا نزلنا إلى قصر حضرة صاحب الجلالة لتناول طعام الغداء في معية جلالته، وعدنا إلى نزلنا للاستراحة إلى العصر. وفي الأصيل أرسل جلالته في طلب الوفود جميعها، فلما تشرفت بالمثول بين يدى جلالته امتطى سيارته وهم في معيته فقصد بهم إلى الحقول والمزارع المترامية حول الخرج، وبعد جولة واسعة حولها جلس جلالته في مكان وارف الظلال للتمتع بمباهج الجو وجماله، ثم نهض منصرفاً إلى قصره العامر، واستأذن الجميع في العودة إلى نزلهم، وبعد صلاة المغرب جاء الرسول الذي يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء على مائدة جلالته. فقصدوا إلى القصر العامر لتناول طعام العشاء وتناول القهوة والسمر قليلاً إلى الساعة

الثالثة حيث يقفلون[١٢٣] راجعين إلى نزلهم فيتمّون السمر إلى السحر، ويظلون في حديث ممتع، كل جماعة وجماعة أو يتبادلون الزيارة في أجنحة القصر وأروقته الفسيحة التي شعّ فيها ضوء الكهرباء. وكان هذا هو "نظام الإقامة" اليومي في الخرج.

الزراعة في الخرج

نسوق فيما يلي بعض المعلومات عن الزراعة في الخرج، فهي تنقسم إلى قسمين رئيسيين: الأول هو الغلال والحبوب، وفي مقدمتها "القمح"، والقسم الثاني، هو الفواكه بأكثر أنواعها وفي مقدمتها "الموالح"، والقسم الأول هو الأكثر إنتاجاً لما هو معروف من قصر المدة التي يحتاج إليها نضوج الحبوب وإثمارها وذلك غير القسم الثاني الذي هو بطيء الإنتاج في سنّيه الأولى هو قسم الفواكه والموالح[١٢٤] لما تحتاج إليه من زمن طويل قد يبلغ بضع سنين في بعض الحالات، وهو قد أنتج على كل حال، ولكن إنتاجه لم يصل بعد إلى الحصد الذي ينتظر، وسيصل إن شاء الله إلى غايته القصوى بمرور الزمن.

أما القمح والحبوب، فقد حصر ثمرها منذ ثلاث سنوات[١٢٥]، وهذا الثمر يتضاعف عاماً بعد عام، بمضاعفة الجهود المتوافرة على خدمته وإنتاجه وحصاده، وبحسن استخدام الجهود الفنية في الري وتنظيمه وتوزيعه على حسب الحاجة ومقتضاها، وبحسن إدارة العمل في تنظيم تلك الجهود وتوجيهها إلى الناحية الأكثر إنتاجاً واستثماراً. وقد بلغ محصول ما حصد من سنابل القمح، في مدة موسم واحد من مواسم أحد الأعوام، حوالي عشرين ألف صاع، وقد أخذت تلك الكميات تتزايد في أرقامها منذ ذلك الوقت، بعناية الله تعالى، ثم بفضل الأسباب الأخرى التي ذكرناها آنفاً، حتى ارتفع المحصول من ذلك الرقم إلى مضاعفات أخرى، هي بلا شك في طريقها إلى الزيادة المضطردة بمرور الزمان ومضاعفة العمل فالقمح في سنابله كان كاملاً ومهيئاً للحصد في المرة التي زرنا فيها

---

(١٢٣) يقفلون: يرجعون، فإحدى الكلمتين تغني عن الأخرى (الدخيل).

(١٢٤) يلاحظ ضعف في صياغة العبارات السابقة (الدخيل).

(١٢٥) هذه الكلمات كتبت عام ١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م ولا شك أن الحالة الزراعية العامة في تلك المنطقة تقدمت كثيراً عما كانت عليه في ذلك التاريخ البعيد.

هذه المنطقة، وكنا نتجوّل بالسيارة في قلب مزارع القمح، في طرق خاصة مخططة لمرور السيارات تفصل المربعات المزروعة، وكنا كلما انتهينا من مزرعة أو حقل، قصدنا إلى مزرعة أخرى أو حقل آخر، في أي اتجاه نريد، فقد كنا محاطين بالحقول والمزارع من جهاتنا الأربع، لا يفصلنا عن الزرع غير تلك المربعات الهندسية التي نظمت بها الحقول وخططت فيها طرق السيارات وغير السيارات، من المشاة والمزارعين، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالري في سقيا الزرع، فقد أنشئت للري خطوط فنية بعضها أشبه بقنوات الماء المنحدر من الأنهر والجداول الكبيرة وبعضه في أنابيب صناعية تصل الماء إلى المجرى المقصود ومنه ينحدر على حسب الرغبة إلى المزرعة المراد سقيها، وكفه عن المزرعة المرتوية، ولا شك أن نظام توزيع المياه بين المزارع، نظام دقيق يرجع إليه العامل الأول في كيفية النهوض بإدارة الزراعة إدارة فنية ناجحة بإذن الله، ذلك لأن الماء هو الذي يقول الله فيه: (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[١٢٦] ومن هنا وجبت الدقة في توزيعه على قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان، فكما أن الزيادة في شرب الماء بالنسبة للآدميين أو المزروعات توجب التلف -والمرء يشرق بالزلال البارد- فكذلك النقص فيها يؤدي إلى نفس النتيجة من الهلاك.

وقد انتفع كثيراً بالمحاصيل الزراعية في الخرج، إذ لا يخفى أن إنتاج كمية كبيرة كهذه الكمية من الزراعة، والحبوب على الأخص، لها أكبر الأثر في تموين العدد الهائل من السكان، فالحبوب هي الغذاء الأساسي للناس، وتوفير إنتاجها في مكان قريب مثل ذلك المكان يكفل تموين المنطقة التي حولها من مناطق نجد، وعلى الأخص العاصمة النجدية -الرياض- التي لا تبعد عنها بأكثر من عشرات الأميال، ووسائل النقل المتوفرة غير عسيرة بجميع أنواعها، إذ يمكن إرسال سيارات الحمل الكبيرة التي تحمل بضعة أطنان من الحبوب فتنقلها إلى أي جهة أريد النقل إليها، كما أن وسائل النقل الأخرى على الدواب وفي مقدمتها الجمال متوفرة أيضاً وسهلة التناول إذ لم يكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى السرعة والتعجيل، وما نقوله عن الحبوب يمكن أن نقوله عن الفواكه المختلفة الأنواع. مما ينتج في مزروعات الخرج، فالفواكه في هذه البلاد -وفي غيرها

---

[١٢٦] سورة الأنبياء، الآية: ٣٠ (الدخيل).

أيضاً- مادة رئيسية من مواد الغذاء، كما أنها مادة رئيسية من مواد الثروة الزراعية لما تباع به من الأثمان ولاتجاه الطلبات إليها في قوانين العرض بالأسواق.

وتتجلى أهمية الزراعة في هذه المنطقة إذا قيس محصولها إلى جانب ما تستورده البلاد باستمرار من نظائره من المحاصيل العالمية من الخارج، وفي الظروف التي يتعذر فيها استمرار النقل المتصل بين الأقطار البعيدة وبعضها كما وقع في ظروف الحرب العالمية الماضية التي اجتازتها هذه البلاد وقاست محنتها إلى أقصى حد[١٢٧]، لذلك تضاعفت الهمة في العناية بزراعة الخرج، وبارك الله في تلك الهمم بنجاح مجهوداتها ومواتاة ثمرها حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن في مدة قصيرة من الزمن، ينتظر أن تصل إلى أضعافها المضاعفة في السنوات القليلة من الزمن إن شاء الله.

وكان من أسباب نجاح هذا المشروع، تنظيم الري لسقيا الزراعة، ذلك بأن مجرد وجود الماء في منطقة من المناطق، لا يكفي لخصوبتها إذا لم تكن هناك الأيدي العاملة التي تقوم بما تستوجبه الزراعة من حركة، وإذا لم تكن هناك أدمغة مفكرة في استنباط أقرب الطرق وأنجعها لاستغلال الماء والانتفاع به في أوسع صورة وعلى أكبر منوال، في ري الأراضي وسقياها وإحياء مواتها والرجوع بها من حالة الجدب إلى حالة الخصب والنماء والازدهار. وإلا فالماء وحده من غير عمل يدوي أو تفكير إنساني، شيء عديم الجدوى إذا فاض عن حاجة الإنسان بل هو أداة من أدوات التلف بالنسبة لكل شيء إذا أسيئ استعماله، على حد قول الشاعر: "لو بغير الماء حلقي شرق!!".[١٢٨]

لذلك استقدمت حكومة جلالة الملك المعظم بعثة من المهندسين والعمال الفنيين من العراق، ثم من مصر لاستغلال ذلك الماء وصرفه في أوجه النفع من الري والسقيا حسبما تقتضيه الحاجة، وقد زادت عناية حكومة جلالته بهذا الجانب الخصيب من المملكة، واستقدمت له بعثات خاصة في الزراعة وشؤون الري، وما يمت إلى ذلك بالصلات، فتقدمت كلها وازداد نماؤها وخصبها وريها، ومازال المأمول أن يتضاعف الإنتاج لما تسده

---

(١٢٧) المقصود بها الحرب الكبرى التي نشبت عام ١٩١٤هـ (الدخيل).

(١٢٨) عجزه: كنتب كالغصان بالماء اغتصاري والبيت لعدي بن زيد العبادي، شاعر جاهلي ديوانه: ٩٣ (الدخيل).

محصولاته من حاجات السكان الغذائية، ذلك إلى جانب الرفاهية المترتبة على خصوبة منطقة كبيرة كهذه المنطقة، وما ينتفع به أهلها وغير أهلها من المحيطين بها، من رفه المعيشة وخصبها.

والكلام عن الزراعة في الخرج[١٢٩]، يدعونا إلى الكلام عن المياه في تلك المنطقة، الخصوبة والجدب ، وقد تقدم فيما سبق من الكلام وصف موجز لبعض مياه الخرج وأخصها العين الكبيرة التي تسح بالماء المتواصل الذي نهض عليه مشروع الري في تلك المنطقة، ونريد في هذا المكان أن ندلي بمعلوماتنا عن ماء الخرج.

لقد وجدت العين الرئيسية في الخرج، وهي عين "سمحة" وكان عليها كل الاعتماد في الري والسقيا لأنها أكبر العيون، وكان سحب الماء منها بالطرق الابتدائية المعروفة، فلما وجد المشروع الفني وأحاطته عناية حضرة صاحب الجلالة الملك وأمر بذلك معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية، اهتم معاليه كل الاهتمام بأعمال الزراعة في الخرج، وكان من آثار ذلك أن استقدمت حكومة جلالة الملك بعثة فنية من العراق قضت مدة من الزمن في معاينة تلك المنطقة معاينة "جيولوجية" وكتبت تقريراً بني على الخبرة والمعلومات الصحيحة. عما يجب عمله فنياً لاستغلال هذا الوادي الزراعي الخصب.

وفي الخرج كثير من العيون والآبار سنذكر عنه بعض المعلومات فيما يلي[١٣٠]:

١ - "عين سمحة" التي تقدم ذكرها، وقد ركب عليها ثلاث طلمبات لسحب الماء ويسحب منها مقدار (٦٠٠٠) ستة آلاف جالون في الدقيقة الواحدة.

---

(١٢٩) جاء في كتاب قلب جزيرة العرب لسعادة فؤاد بك حمزة عن "الخرج" في صفحات متفرقة ما يأتي: تسكن قبيلة آل مرة في منازلها الممتدة من جنوبي الطريق بين الحسا والرياض إلى جهات الخرج والعقير، وقد استولى جلالة الملك على هذه المنطقة في تأسيس ملكه في معركة حاسمة عام ١٣٢٠هـ. وقعت في نخيل بلدة الدلم بعد معارك مختلفة بين آل سعود وآل رشيد استعر أوارها في كثير من سني القرن الماضي.

(١٣٠) أسلفنا القول فيما تقدم أن المعلومات والأرقام الآنفة الذكر هي سابقة العهد، فقد سجلت في عام ١٣٦١هـ/١٩٤٠م. ولعل الحال الآن قد تغير بتطور الأحوال وتقدمها.

٢ "عين أم خيسة" وقد ركب عليها ماكينة قوة ٢٢ حصاناً، وهي تسحب من الماء مقدار (٨٠٠٠) جالون في الدقيقة الواحدة.

٣ - "بئر نبعة" وهي بئر حفرها معالي الوزير الشيخ عبدالله السليمان، وقد ركبت عليها ماكينة قوتها ١٦ حصاناً، ومقدار ما يسحب منها من الماء هو ٦٥٠ جالوناً في الدقيقة الواحدة.

٤ "بئر قطيعان" وقد حفرها الشاب النجيب سليمان الحمد، وركب عليها موتوراً قوة ٣٠ حصاناً تشتغل مدة ساعتين في اليوم ويسحب منها الماء ما مقداره ٨٠٠ جالون في الدقيقة الواحدة.

٥ - "بئر العوينة" وقد حفرها معالي الوزير الشيخ عبدالله السليمان وركبت عليها طلمبة فوهتها ١٢ بوصة وموتور يسحب الماء بمقدار (١٥٠٠) جالون في الدقيقة الواحدة وهي غزيرة الماء باستمرار.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه الآبار، يسحب الماء منها مدة محدودة من أوقات النهار بحسب الحاجة إليها، ولكن العين الرئيسية الآنفة الذكر ابتدأ سحب الماء منها بالماكينة التي ركبت عليها من يوم ٥ شوال عام ١٣٥٨هجرية، وهي منذ ذلك التاريخ لم يقف سحب الماء منها ليل نهار، ذلك بأنه متى أوقف سحب الماء بضع ساعات تطفح العين ويفيض الماء منها.

ومن الضروري أن توقف الماكينة مدة خمس ساعات مرة في كل شهر لتنظيفها ومسحها وتفقدها، وفيما عدا ذلك فالماكينات تشتغل في مواصلة سحب الماء من تلك العين منذ ذلك التاريخ الذي ذكرناه من غير توقف ولا ركود.

ومما تحسن الإشارة إليه، أن الماء يصب من العين الكبيرة الآنفة الذكر أو على الأصح من طلمباتها في مجرى واسع عميق يصل عمق الماء فيه إلى متر ونصف، والمجرى نفسه ينزل عن سطح الأرض في نفق طبيعي مقدار ثلاثة أمتار، وجوانب هذا المجرى تشكل حائطين طبيعيين مرتفعين، وقد سقف سطحهما بسقف صناعي جعل جانباً منها في وقاية

من الشمس، وقد أقيم على سطح ماء المجرى مباشرة دكة من الخشب مثبتة في حائطي المجرى، وهذه الدكة قد فرشت بالبسط النفيسة وجعلت مكاناً لاستراحة جلالة الملك عند تشريفه هناك، وقد جلسنا في ذلك المكان أكبر مدة استطعنا أن نقضيها فيها، وغادرناها ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى إطالة الجلوس فيها، بل إلى عدم مفارقتها بالمرة، فهي جلسة سحرية شعرية لا يستطيع القلم وصفها لبراعة مناظرها الخلابة الساحرة وما فيها من أسباب الاستجمام والهدوء، ولو استطاع القارىء أن يتصوّر المعنى الذي قصدت إليه من تصويري ذلك المكان لشاركني الشعور الذي كان يدفعني إلى الجلوس وعدم المبارحة، ولعلي أكون على وتيرة الشاعر الذي اتهم بالفهاهة والعي فيما تقدم من الزمن حين وقف على منظر كهذا المنظر فلم يستطع وصفه إلا ببيت من الشعر اعتبر مثلا في الفهاهة والعي حين قال وحين كان كما كنا:

كأننا والماءُ من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء!!

وقد ظل وصفه الساذج هذا، موضع دعابة القرون والأجيال، ولكن مالي أتهم نفسي وأجاري من سبقني في اتهام الشاعر المتقدم، وقد جاء شاعر أوروبي محدث فقال مثلما قال زميله العربي، ذلك أن "لامارتين" الشاعر الفرنسي الشهير، بل أرق شعراء العاطفة في فرنسا في الجيل الماضي، كان في رحلة كبيرة أوصلته إلى شلالات نياجرا، فلما رآها بهت لجمالها واستخفه حسنها فعقد لسانه فلم يستطع أن يعبر لا عن شعوره نحو ذلك المنظر، ولا عن وصف حقيقته وما فيه من إبداع، فما كان منه إلا أن اندفع صائحاً وبغير شعور منه قائلاً: "نياجراً !! نياجراً !!" ثلاث مرات ثم صاح "إنها نياجرا وكفى" فاعتبر الفرنسيون، وشاركهم في هذا الاعتقاد غيرهم، أن هذا أبلغ وصف استطاع لامارتين أن يصف به شعوره نحو شلالات نياجرا وما فيها من بهاء وما فيها من جمال!

إذاً رحم الله الشاعر العربي الذي قال:

كأننا والماءُ من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء!!

ولا تسفيه لرأيه بعد اليوم، فقد كنا حقيقة عند وصف ما قال من غير زيادة ولا نقصان!!
وحسبنا أن نكون كذلك والسلام.

أيام الخرج

قضينا في الخرج أو في وادي زرقاء اليمامة- أربعة أيام في معية حضرة صاحب الجلالة، كانت أنزه أيام الرحلة على الإطلاق وأبهجها بالنظر لما تمتع به ذلك الوادي من الخصوبة وجمال المناظر ووفرة الزراعة ما كان منها طبيعياً كالروضات، وما كان منها صناعياً كالحقول، ولكن حدث لكاتب هذه السطور حادث فوت عليه تلك البهجة، وأبدلها بكابوس ثقيل الظل جعله يقضي تلك الأيام متململا طريحاً حتى أنعم الله عليه في آخر يوم من أيامها بما كشف الغمة وأزال الكابوس. فقد تقدم الكلام في مراحل الطريق، إنني شعرت بطارىء من المرض وقد قدّر الله لي من النشاط والمقاومة ما احتملت به وعثاء الطريق وهم المرض، حتى وصلت مع رفاقي إلى الخرج وقضيت ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام في سريري والمرض يهز جسمي هزاً ويكاد يضنني نفسي ويرمضها، وكان أول الرفاق عناية بي، هو الصديق الكريم سعادة الأستاذ عبدالرؤوف الصبان الذي كان ما يغمض له جفن دون أن يبذل لي من وسائل العناية بي كل ما يستطيع!!

وأول ما فعله هذا الصديق، هو الاستنجاد بمروءة الطبيب البارع الدكتور رشاد فرعون مدير صحة الرياض وطبيب صاحب الجلالة[١٣١]، وقد قام على غير تعارف سابق بيني وبينه بمعالجتي وعيادتي بعناية ليست هي مجرد عناية الطبيب الإنساني البار، بل عناية الأخ والصديق الكريم، فقد كثر تردده على عيادتي إما للمعالجة أو للزيارة والاطمئنان برغم ما كان مثقلاً به من الأعمال، وكانت عناية الرفاق وغيرهم من الأصدقاء هي المؤاساة الكبرى التي خففت من ألم المرض وقد تطوع بتمريضي بصفة أخص شاب رفيق هو السيد صادق دحلان الموظف بمجلس الشورى بمكة، فقد تكشف لي عن مروءة في نفسه منقطعة النظير، وعن خلق سمح كريم، ولقد كانت ليالي المرض ثقيلة الوطأة من

---

(١٣١) سبقت الإشارة في صفحة ٨٣ إلى تعيينه وزميله مستشارين لحضرة صاحب الجلالة في هذا العام.

شدة الحمى وهذيانها، فذكرت في ذلك الموقف أبا الطيب حين دهمته الحمى فشكاها إلى الله في قصيدة طويلة يقول منها:

وزائرتي[١٣٢] كأن بها حياءً ... فليس تزور إلا في الظلامِ[١٣٣]

بذلت لها المطارفَ والحشايا ... فعافتها وباتَتْ في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... نتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتني غسلتني ... كانا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجري ... مدامعها بأربعة سجامِ

ويصدق وعدها الصدق شر ... إذا ألقاك في الكرب العظام

وملني الفراش وكان جسمي ... يمل لقاءه في كل عام

يقول لي الطبيب: أكلت شيئاً ... وداؤك في شرابك والطعام

وما في طبه أني جواد ... أضر بجسمه طول الجمام

فإن أمرض فما مرض اصطباري ... وإن أحمم فما حم اعتزامي!!

وفي اليوم الثالث، حين شعرت بدبيب العافية، نشطت من عقال المرض، وأحسست بأن علي واجبات اجتماعية لابد من أدائها فأنا لم أحضر إلى نجد لمجرد النزهة والتمتع بالمناظر البهيجة، ولكني مطالب كصحفي[١٣٤] بأن أكتب ماشاهدت، وأنا بوصفي كاتباً مطالب أن أدون ما رأيت، وأنا قبل ذلك وبعده لم أغفل حركة من حركات الرحلة ولا

---

(١٣٢) يقصد بزائرته "الحمى" التي كانت تطرقه ليلاً.

(١٣٣) شرح ديوان المتنبي : ٢٧٦/٤ (الدخيل).

(١٣٤) الكاف هنا لا موضع لها ولم تعهد في الأسلوب العربي، فهي من آثار المترجمين المحدثين (الدخيل).

منظراً من مناظرها إلا سجلته في رسالة برقية وطيرتها إلى صحف مكة يوماً بيوم، تلك هي أوليات مهمة "عميد الصحافة" فكيف يجوز لعميد الصحافة أن يغفل الصحافة من حسابه!! ذلك مالا يكون، وذلك ما كاشفت به رفقائي في الخرج فقد حرمت في أيام هذا المرض من رؤية كل شيء، وأنا في الواقع لم أشهد شيئاً مما جئت لأجل رؤيته في هذا الوادي البهيج!!

وفي اليوم الثالث غادرت غرفتي في الصباح الباكر. وأنا مشدود بين لفائف الوقاية من البرد، وقصدت مع أصحابي إلى قصر حضرة صاحب الجلالة الملك للتشرف بالسلام عليه، وتناول طعام الفطور، فلما رآني جلالته مقبلاً استقبلني ببشاشته المعهودة، وقال لي: "إنك محفوظ إن شاء الله لا بأس عليك" فقبلت يد جلالته وشكرت كريم عطفه، وكان حفظه الله دائم السؤال عني يومياً، وقد بلغت سؤال جلالته وعطفه من قبل.

وفي ذلك اليوم طلبت من بعض الزملاء مرافقتي للتجول في الأماكن التي لم أشهدها، فتجولت قبل الظهر وبعده وقضيت اليوم في مشاهدات، هذا الذي ذكرته هو خلاصة منها.

وقد قيلت هذه الأبيات في الخرج وفي وصفه:

هذا هو الخرجُ، فاسأل صدق مخبره ... عن قدرة الله في تجميل منظره[١٣٥]

تدفق الماء من ميزاب رحمته ... بما يضيق الحجى عن وصف أيسره

مشى فأحيا موات الأرض في سعة ... فعاد مجدبه يزهو بأنضره

فانظر إلى تلكم الأمداء شاسعة ... لايدرك الطرف أقصاها بمجهره

تضاعف البُرُّ في أعلا سنابله ... فضاعف الله منه حبّ أكثره

والروض فاح عبيراً في مزارعه ... فعطّر الجو منه ريح عنبره

---

[١٣٥] وحي الفؤاد :٩٨ (الدخيل).

تناثرت فيه روضات مزخرفة ... في البيد جناتها تزهو بأنهره

والنخل بعثر في أرجاء ساحته ... يبدو التواضع منه في تكبّره

والأثل قام على حافات روضته ... كشاعر الروض يشدو فوق منبره

والزهر خلف لثام الطل محتجب ... كأنه الحسن يبدو خلف مئزره

يكاد في نسمات الصبح ريقه ... يضفى على الجو مسكاً من تعطّره



مولاي كم نعمة لله سابغة ... تضاءل الشكر فيها عن تشكره

أجرى بك الله أمن النفس في بلد ... لم يعرف الأمن في تاريخ أعصره

وأصبح القفر مأنوساً بوحشته ... وليثه يتلاقى عند جؤذره

يجوبه المرء لا يدرى به سغباً ... ولم يذق ظمأ إبان معبره

وأخصبت أرضه في كل ناحية ... وزاد إنتاجه خصباً بمثمره

وفاخرت بك تقديراً ولا عجب ... فالغاب يختال من عجب بقسوره

أدامك الله للإسلام حارسه ... تذود عنه وتفري حد منكره

إلى الرياض

وفي يوم الثلاثاء ٢٧ من صفر، تفضل صاحب الجلالة الملك، وأصدر أمره الكريم بأخذ الأهبة للسفر والاستعداد له. وفي الصباح الباكر، انتظم الموكب في معية جلالته واتخذ وجهته إلى الرياض، إلى عاصمة نجد !!

غادرنا الخرج في الموكب الملكي ونحن مأخوذين بعوامل كثيرة متعددة من الذكريات والحنين، ومن الشوق والتعجل، فقد كنا في أسف شديد على فراق تلك المنطقة الخصبة

العزيزة، وفراق مافيها من الذكريات من سمر الليالي التي أمضيناها فيها، فهي ذكريات عذبة عن حوادث سعيدة، قلما يجود بها أو بأمثالها الزمان، وأما الشوق والتعجل، فقد كان مثاره الحنين إلى الرياض عاصمة نجد، وهي بيت القصيد في الرحلة!! فالرياض هي عاصمة نجد، وعاصمة نجد هي عاصمة الحوادث التاريخية المجيدة -في القديم والحديث- وإذا كان القديم الغابر لا يعنينا كثيراً في أمر رحلتنا هذه، فإن الذي يعنينا حقيقة والذي هو منا بمرأى ومشهد، هو تاريخها الحديث، ومعنى تاريخها الحديث هو تاريخ آل سعود، وما لهذه الأسرة المجيدة من مجد تالد وهناك خلاصة الخلاصة من هذا التاريخ، وهي تنحصر في سيرة حضرة صاحب الجلالة ملك هذه البلاد، وليثها المغوار، وبطلها الذي لا يشق له غبار.

فتاريخ نجد إذاً، هو تاريخ الأسرة السعودية، وتاريخ هذه الأسرة متوج بتاريخ هذا الملك الذي تكاد سيرته ورواية حوادثه وسرد أقاصيص وقائعه تذهب مذهب الخيال، لولا أنها حقيقة واقعة لم يستطع الزمن أن يسحب عليها ذيول النسيان، وكيف يستطيع الزمن أن يعفى[١٣٦] على مجد باذخ، ولم تزل لبنات تأسيسه تتزايد كل يوم لبنة جديدة، تزيد في تدعيم صرحه العتيد، وبنيانه الراسخ المشيد. فإذا كنا وصلنا إلى الغاية التي نقصدها، وقد أصبحنا من الرياض قاب قوسين أو أدنى، فلا شك أننا سنشهد مصدراً من مصادر التاريخ الحديث. ولا شك أننا نقبل على تحقيق ماهو معتلج في النفس من الحنين إلى مصدر المجد، ومبعث الرجولة الصادقة ومأوى العز التليد!! أليست هذه "الرياض"[١٣٧] التي اقتحمها ابن السعود عنوة في غابر صباه واسترد باستردادها ملك أجداده وحريات شعبه، ثم وضع فوق كيانها لبنات المجد الباذخ التي تأسست عليها مملكته الواسعة الأطراف؟! أليست الرياض هذه هي بلده الأول التي أراد الله أن يتفجر نور الدعوة السلفية الصالحة

---

(١٣٦) الصواب (يعفو) من الفعل الماضي عفا.

(١٣٧) الرياض هذه كانت مسرح شجاعة جلالة الملك ابن السعود حين فتحها بعد أن تم لجلالته الاستيلاء عليها مرتين في قصة تعد من أروع قصص البطولة، ومن أروع ما في قصة فتح الرياض الصراع اليدوي الذي دار بينه وبين عجلان عامل الرياض من قبل ابن الرشيد عام ١٣١٩هجرية. حين سار إلى اقتحام الحصن في نفر من قومه لا يتجاوز عدهم الأربعين جعل ثلاثين منهم للرديف، وعشرة للهجوم والصراع، وقد أشار إلى هذه الواقعة سعادة فؤاد حمزة بك في كتابه "قلب جزيرة العرب" صفحة ٣٦٣.

من جوارها، وأن تحتضن هذه "الرياض" تلك الدعوة الإسلامية الجريئة الصارخة، وأن تخرجها طابعاً رائعاً يقبل الناس من صحيحي العقيدة كل الإقبال على الانضواء تحت لوائها؟!!

أليست هذه هي الرياض، وهذا هو بعض شأنها في تاريخ المجد، وتاريخ الدعوة السلفية، وتاريخ بناء أعمال الرجولة الصادقة والشجاعة الموفقة من الله!؟

أجل هذه هي الرياض، وهذا هو بعض شعورنا نحوها، وشعورنا بالحنين إلى ذكرياتها، وهي ذكريات لا يمكن التعبير عن كيفية اعتلاجها في نفوس القادمين عليها، وقد تشاركنا السيارات التي نركبها في مثل هذا الشعور بالحنين، فهي تسابق الأرض سبقاً، وتطويها طياً وتكاد تنهبها نهباً. أفتكون سياراتنا هذه من مطايا "ابن معتوق" الشاعر حين قال:

قد براها للسرى جذب براها ... فذراها يأكل السير ذراها[١٣٨]

ودعاها للحمى داعي الهوى ... فدعاها، فالهوى حيث دعاها

يالها من أحرف مسطورة ... تسبق الوحي إذا الحادي تلاها

ترتمي شوقاً فلولا ثقل ما ... في صدور الركب طارت في سراها

سحب صيف قدح أيديها الحصى ... برقها والرعد أصوات رغاها

كلما حنت لأرض المنحنى ... وكلاها، أقرح الشوق كلاها

ذات أنفاس حرار صيرت ... فحمة الظلماء جمراً من لظاها

---

[١٣٨] ديوان ابن معتوق (ضبطه سعيد الشرتوني)، دار صادر، مصور عن طبعة ١٨٨٥م، بيروت: ص ١٦٩ (الدخيل).

قد يكون ذلك أو قد لا يكون !! ولكن الشيء الذي لاشية فيه ولا مرية، أننا نغلب في أعماق نفوسنا ذلك الشعور بالحنين إلى ما نحن مقبلين عليه من مرئيات الرياض ومشاهدها، ونتعجل الخطى ونستبق "المطايا" إلى الوصول السريع!!

ومازلنا نجد السير، ويطوي الله الأرض لنا طياً، ونحن نعد الدقائق، ونستنطق الساعات التي في أيدينا أو في جيوبنا، ونكثر من لهفة التشوف فيها والتطلع إليها!!

في الرياض

بعد سفر متواصل، في مدة تقرب من الساعتين، أقبلنا على شبه مزارع عرفنا لأول وهلة أنها مظاهر القرب من الرياض، ولم نلبث أن تبينا مظاهر العمران بما لاح أمامنا من مناظر الخضرة والزراعة، ثم بمنظر ساريتين عاليتين في كبد السماء، هما ساريتا اللاسلكي اللتان ترتفعان إلى علو ثلاثمائة قدم في الجو، وبدت خيام سكان البادية الضاربين حول الرياض. وبعد دقائق معدودة في استدارة من السير اجتزنا بها بعض المرتفعات، رأينا "الرياض" وجهاً لوجه! فحمدنا الله، ثم حمد القوم السرى وعرج الموكب، على القصر الملكي العامر.

وشرف جلالته إلى الطابق العلوي في القصر وفي معيته الحاضرون، فاسترحنا قليلا، ثم تفضل وأذن لنا بالانصراف إلى نزلنا من الاستراحة وكان قد أمر جلالته بأن يكون نزولنا في القصر الملكي الذي كان يسكنه جلالته قبل تشييد القصر الحالي الذي يقيم فيه.

ولجلالة الملك في الرياض ثلاثة قصور: أولها وأقدمها القصر الملكي القديم المبني داخل المدينة، وهو القصر التاريخي الذي كان يسكنه جلالته وجلالة والده من قبل، ومن تقدمهما من الأسرة السعودية[١٣٩]، وثانيها: القصر الملكي الذي بني خارج سور الرياض

---

(١٣٩) شهدنا في هذا القصر آثار ضربة سيف تاريخيه ضربها البطل المجاهد -الملك عبدالعزيز- يوم صراعه في اقتحام حصن هذا القصر في فتح الرياض، كما تقدم ذكره.

في وصف قصور الرياض: (أولها وأقدمها القصر الملكي داخل المدينة الذي يسكنه جلالته وجلالة والده، ومن تقدمهما من الأسرة السعودية).

والذي يطلق عليه اصطلاحاً اسم "المربع" وقد ظل هذا القصر مسكناً خاصاً لجلالته خارج سور الرياض مدة طويلة من الزمن، ثم منذ بضع سنوات أمر جلالته ببناء قصر جديد آخر، في المكان الذي سمي "المربع" خارج السور، وهو يقع في مواجهة باب القصر السالف، وبعد الانتهاء من تشييده شرفه جلالته بالسكنى، وتم إنشاء ملحق لهذا القصر، ليتسع لجميع أعضاء أسرته الكريمة، وهذ الملحق هو بمثابة قصر كبير جداً أنشىء من وراء القصر الذي يسكنه جلالته على شكل مربع وألحق به فتألف من الجميع قصر واحد كبير مربع يتوسطه حوش كبير لا تقل مساحته عن بضعة أميال.

وقد أحيط ذلك المربع كله من خارجه بسور كبير هو واجهة البناء الذي تتألف منه واجهة القصر من جهاته الأربع، وأقيم في القصر المذكور مسجد فسيح الأركان عالي البنيان تؤدى فيه الصلاة، ويؤدي صاحب الجلالة الصلاة في الطابق العلوي منه في جميع الأوقات وهو مسجد فطري لا أثر للأناقة فيه، وقد أدينا فيه صلاة الجمعة.

وتتصل القصور الملكية المذكورة بالمدينة، بواسطة شارع مرصوف بالحجر، كما أن هناك بعض المزارع الحديثة أنشئت على مسافة أميال قليلة من الرياض، ويرجع السبب في

وعلق على هذا قائلاً: (شهدنا في هذا القصر أثار ضربة سيف تاريخيه، ضربها البطل المجاهد، الملك عبدالعزيز، يوم صراعه في اقتحام حصن هذا القصر في فتح الرياض كما تقدم ذكره).

وما تقدم ذكره في ص ١٦١ حاشية: (من أروع ما في قصة فتح الرياض الصراع اليدوي الذي دار بينه وبين (عجلان) عامل الرياض عام ١٣١٩هـ) إلى آخر ما ذكر.

فهو في هذا قد خلط بين القصر الذي يسكنه الملك وأسرته وبين (قصر المصمك) ثم ذكر (القصر خارج السور، واسمه (المربع) وقد ظل هذا مسكناً خاصاً لجلالته خارج سور الرياض مدة طويلة، ثم منذ بضع سنوات أمر ببناء قصر جديد في المكان الذي سمى (المربع) خارج السور) إلى آخر ما ذكر عن وصف المربع.

وكلامه هذا فيه تكرار لذكر (المربع) مرتين توهما منه أن الاسم يطلق على قصرين، وهذا خطأ، ووهم وخلط بين (قصر المصمك) و (قصر المربع) فالأول هو الذي في خوخة بابه الضربة، وليست ضربة سيف بل ضربة رمح، من عبدالله بن جلوي، لا الملك عبدالعزيز أما (قصر الحكم) الذي كان يقيم فيه الملك عبدالعزيز رحمه الله- وأسلافه من عهد الإمام تركي، فهو المعروف الآن في وسط مدينة الرياض، وانتقل الملك عبدالعزيز أخيراً إلى (قصر المربع) (الجاسر).

إنشائها إلى ما أبداه جلالته من الاهتمام بإيجاد المياه وتوفيرها في تلك الأمكنة فقد أنشئت بأمر جلالته آبار ارتوازية عديدة وتصب الماء ليل نهار، في المجاري التي أعدت لجريانه والانتفاع به وتوصيله إلى المزارع.

وقد أصبحت مدينة الرياض في عهد حضرة صاحب الجلالة، مدينة شامخة البنيان، عامرة بالسكان، وأصبحت سوقاً تجارية نافقة، ومركزاً مهماً للتصدير والتوريد، وكعبة مقصودة[١٤٠] في كثير من الطبقات العاملة، نظراً لما لقيته في عهد جلالته من الازدهار والعمران ونشاط الحركات في شتى مرافق الحياة العملية، ولا شك في أن هذه المدينة، مدينة لجلالته ولعهده الزاهر السعيد بذلك النشاط الآنف الذكر، وفي الرياض، مركز للاسلكي، وإدارة للبرق والبريد والتليفون وإدارة للصحة المستشفى الأميري وإدارة للبلدية، وإدارة لسيارات النقل الحكومي والأهلي، عدا إدارة سيارات الخاصة الملكية، وعدا الإدارات التابعة لديوان جلالته.

ومما زاد في نشاط الحركات التجارية والعمرانية في الرياض، توافد الوفود بين فترات مختلفة من أجزاء السنة على تلك المدينة من ضيوف جلالة الملك وزواره وغيرهم من كبار رجال حكومته وموظفيها في شتى فروع الدولة الذين تقتضيهم أعمالهم التردد عليها وما تقتضيه تلك المناسبات من ارتياد الأسواق والإنفاق وتدعيم الحركات التجارية، وهناك في موسم معين من مواسم السنة -في كل عام- يفد على الرياض بضعة عشرات الألوف من أهالي نجد على مختلف طبقاتهم، فينزلون ضيوفاً على أريحية صاحب الجلالة، وقد تمتد إقامتهم إلى شهرين أو ثلاثة أشهر تباعاً، يتفضل جلالته أثناءها بضيافتهم ومنحهم الأعطيات السنوية التي تعودت أريحيته أن تجود بها عليهم وقد تبلغ مئات الألوف من الريالات، وقد يكون ذلك عاملاً من عوامل النشاط التجاري في تلك المدينة.

وبالجملة إن وجود حضرة صاحب الجلالة في مدينة الرياض علاوة على ما أكسبها إياها من المجد التاريخي، فقد أكسبها حياة تجارية وعمرانية لم تصل إليه في أي عصر من

---

(١٤٠) التشبيه غير مناسب ولو شاع على ألسنة الكتاب (الدخيل).

العصور، وحسبك أن تكون "الكهرباء" إحدى صنائع جلالته على هذه المدينة النائية في قلب الصحراء وصميمها.

وهناك حقيقة ثابتة يعرفها أهل هذه المملكة جميعاً، وهي أن كل مكان يقطن فيه جلالة الملك أية مدة كانت، يصبح "رياضاً" بالمعنى الصحيح ويصبح "موسماً" على وجه الحقيقة لا المجاز، وذلك يرجع إلى سخائه وبذله بما يعود نفعه على جميع سكان المدينة التي يشرفها بالإقامة فيها.

قلت: إننا بعد أن وصلنا إلى الرياض أذن لنا جلالته بالانصراف إلى نزلنا، وهو في القصر الملكي السابق، وقد تفرق الوفود في مختلف غرفه الفسيحة وأبهائه المترامية الأطراف، فاستوعب ذلك الطابق وحده جميع الوفود بسعة وتبسط.

وفي أصيل ذلك اليوم، جاءنا من أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة حفظه الله سيتفضل بعد دقائق قليلة بتشريف هذا القصر الذي نحن فيه، لزيارة ضيوفه.

وقد سرى هذا النبأ في الرفاق مسرى البهجة والحبور، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لجلالته على هذا الخلق الكريم، وعلى هذا التشريف الذي أولاهم به منتهى الفخر وغاية المجد.

وبعد قليل لمحنا موكب جلالته مقبلاً، فخف الجميع إلى استقباله عند باب القصر فلما شرف قصد إلى مجلسه العلوي وأخذ يغدق عبارات الترحيب والأنس، وتفضل جلالته على عادته بالتبسيط في الحديث مع جلسائه ومداعبتهم بكل طريف من رائع القول وجميل الدعابة، ثم قال جلالته: إن سروره بقدوم ضيوفه لا حد له وإنه يزداد ذلك السرور بقدوم أولئك الضيوف في كل عام، وإن جلالته منذ الآن يأذن لهم سلفاً بالقدوم إلى نجد في مثل هذا الوقت من كل عام، وإنه يرحب بهم أجمل الترحيب.

وفي ختام تلك الجلسة الطريفة الشائقة نهض جلالته ودعا الوفود في معيته إلى نزهة خلوية جميلة في ذلك الأصيل الجميل، فانتظم الموكب في معية جلالته إلى جولة بديعة حول أطراف الرياض، وكان أول منظر شاهدناه بعد مغادرة القصر الملكي ذلك "الأرتوازي" الذي يجود بالماء وتفيض به ميازيبه المرتفعة الشاهقة، وقضينا في ذلك جولة

قصيرة وذقنا طعم ذلك الماء الجاري المتدفق، ثم مشينا إلى ضاحية قريبة من أرباض الرياض، وهناك استراح جلالته في مزرعة ناضرة فرشت أرضها بالبسط وبعد أن تناول جلالته القهوة مع الحاضرين نهض مستأنفاً المسير إلى حديقة "الأمير فيصل بن سعد" على مسافة أميال قليلة من ذلك المكان، حيث أدى جلالته بها صلاة المغرب إماماً بالمصلين، ثم أستأنف الموكب الميمون عودته إلى الرياض.

وفي تلك الليلة تشرفنا على عادتنا بزيارة حضرة صاحب الجلالة فتفضل جلالته واقترح علينا أن نتصل بأهلينا في مكة وفي جدة بـ(التليفون) اللاسلكي وأن نتحادث مع من نريد من أهلنا بتلك الواسطة الرائعة التي تحمل إلينا أصوات من نريد عبر الفضاء الشاسع الذي يزيد طوله على الألف ميل، وقد شفع جلالته اقتراحه هذا بإصدار الأوامر إلى المختصين في هذا الشأن بإعداد العدة للمخابرة في أصيل اليوم التالي.

وقال لنا جلالته: إنه في اليوم التالي سيغادر الرياض عائداً إلى روضة الخفس، حيث المخيام الملكي هناك، وإنه يتركنا في الرياض لقضاء يومين فيها لنصلح من شؤوننا ونتزود من معرفتها.

وفي صباح اليوم التالي غادر جلالته قصره العامر الذي هو خارج الرياض، حيث شرف إلى القصر الذي بداخل المدينة، وكانت غاية جلالته من ذلك أن يجلس في القصر الداخلي القريب من سكان الرياض ليكفيهم مشقة التعب في الخروج إلى القصر الآخر النائي عن البلدة، للتشرف بالسلام علي جلالته، وفعلاً توافد العلماء[١٤١] ورجال الدين والأعيان

---

[١٤١] في نجد كثير من العلماء العاملين من آل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عرفوا بعلو المكانة. جلالة الملك يحب العلماء ويقدرهم لما فطره الله عليه من التقوى، ومن العلماء المبرزين المشار إليهم أصحاب السماحة والفضيلة: الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ محمد بن عبداللطيف، والشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف، والشيخ عمر بن حسن، والشيخ عبدالعزيز بن باز، ومنهم في الحجاز فضيلة الشيخ عبدالله بن حسن رئيس القضاة، وفضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف العام، والشيخ عبدالله بن زاحم قاضي المدينة، والشيخ محمد الباز قاضي جدة[★].

★ يقصد الشيخ (محمد بن علي البيز من أسرة (البيزة) المشهورة من بني زيد من شقراء، القاضي المشهور (الجاسر).

على ذلك القصر وتدفقوا للسلام على جلالته هناك وظل جلالته في ذلك القصر إلى الظهر، ثم غادره قاصداً إلى روضة الخفس.

أما الرفاق، فقد قضى أكثرهم ذلك اليوم بداخل مدينة الرياض، بين التجول في أسواقها، ومشترى[١٤٢] ما وقعت عليه أنظارهم من الحاجيات[١٤٣] والتحف النفيسة، وبين تبادل الزيارة مع من لهم من الأصدقاء والمحبين هناك، وقد تقدم الكلام على أن في مدينة الرياض مركزاً تجارياً مهماً لكثرة الوافدين عليها، والمقيمين فيها.

وقضى الرفاق بقية اليوم في نزلهم بالقصر العامر إلى الأصيل، وكان الشيخ عبدالرحمن الطبيشي رئيس الخاصية الملكية قد وجه دعوة إلى الوفود لتناول طعام العشاء في داره في هذه الليلة، فخرجنا إلى ضاحية خصبة، عامرة بالبساتين والحدائق تسمى "البديعة" تقع على مسافة ثلاثة أميال من الرياض وفيها حدائق ذات نخيل وثمر، وفيها قصر ملكي، وقصر آخر للأمير سعود، وقصور لبعض الأمراء، وبعد أن تجولنا قليلاً في تلك الحدائق وتوجهنا إلى دار صاحب الدعوة، فوجدنا منه ترحيباً واحتفالاً وإيناساً، وفي الدار حديقة غناء، هي روضة من رياض الأنس، تفرق الرفاق تحت خمائلها.

ومن أبرز ما شاهدناه من الثمر في حدائق "البديعة" هو ثمر النبق، وهو يختلف عن نظائره في الحجاز ومصر بما يمتاز به من كبر الحجم، وحلاوة الطعم، ولذة النكهة، ثم رأينا هناك "شجر" الجرجير، وهذه الخضرة مشهورة في مصر وغير معروفة في الحجاز، وهي عادة تنبت في حجم صغير، وقد لفت نظري وجودها في نجد، وأنها تكبر في شجيرات ترتفع إلى متر وأكثر من متر.

وبعد صلاة المغرب قصدنا إلى دار مضيفنا سعادة الشيخ عبدالرحمن الطبيشي، فتناولنا طعام العشاء على مائدة فخمة أنيقة، وبعد تناول القهوة كالمعتاد عاد الرفاق إلى منازلهم

---

(١٤٢) الأصوب (وشراء) (الدخيل).

(١٤٣) الصواب (الحاجات) ويجوز (الحوائج).

ينتظرون الصباح بجفون مسلوبة الكرى، فماذا ينتظرهم في الصباح، أو ماذا ينتظرون من الصباح؟!!

أجل! لقد تقدم الكلام أن حضرة صاحب الجلالة كان قد أصدر أمره لهم بأن تتصل الوفود بأهليهم في مكة وجدة بطريق (التليفون) اللاسلكي.

وكان الميعاد الذي حددته إدارة اللاسلكي هو الساعة الرابعة قبل ظهر يوم الجمعة - غداً- لنتصل بأهلينا في مكة وجدة. ولهذا فقد كان الرفاق يبيتون تلك الليلة وأهدابهم معقودة باللاسلكي يرون من خلاله الرؤى المتنوعة، والأحلام الطريفة اللذيذة، وينتظرون تباشير الاتصال بأهليهم حتى لكأن أصوات مناغاتهم زقزقة العصافير لاستقبال الفجر المشرق، وما لهم لا يكونون كذلك وقد قامت بينهم وبين أعز عزيز لديهم من الأهل والولد، سحابة كثيفة من الأبعاد الشاسعة والزمن الطويل، فهذه الألف من الأميال، وتلك الثلاثون من الأيام حجاب لن يخترقه غير موجات اللاسلكي.

لهذه العواطف المتأججة أقام الرفاق ليلتهم ساهرين، ثم خلوا إلى مضاجعهم لمسامرة الرؤى والأحلام، ومناجاة الأفكار والهواجس.

وفي الصباح تجولنا في أسواق الرياض، لما حان الوقت أسرعنا نجر الذيل عائدين! لا إلى منازلنا، ولكن إلى منزل اللاسلكي في القصر الذي يسكنه جلالة الملك. ووصلنا مسرعين في لهفة واشتياق، ولقد كنت طلبت من مكة اثنين من إخواني للتحدث معهم، أحدهما أخ لم تلده أمي، وقد قيل قديماً "رب أخ لم تلده أمك" والثاني أخ ولدته أمي، فذاك شقيق النفس والروح، وهذا شقيق الجسم والنسب، أما الأول فهو الأستاذ الشيخ عبدالسلام غالي، وأما الثاني فهو عبدالمنعم شاكر، فلما جاء دوري في الكلام، اضطربت أعصابي هيبة اللقاء الرهيب وهو لقاء إن لم يكن بالرؤية فهو بالسماع، وماكان ولله الحمد بين أخوي من هو كالمعيدي - السماع به خير من رؤياه.

فقد كان كل منهما حبيباً إلى النفس، شقيقاً للروح، وبعد تبادل التحيات بيني وبينهم، ارتج عليَّ من هيبة اللقاء المفاجىء، والرؤية العمياء، فما زدت عل ما قلت أن كررت

عبارات التحية والسلام، ولم يكن موقف مخاطبيّ بأحسن من موقفي فقد كان شعورهم كشعوري، وقد ارتج عليهم كما ارتج علي، فلم يزيدوا في الكلام عن مثل ما قلت، وكأنهم نسوا مثل ما نسيت، ماكنت قد أعددته من طيب الحديث!!

وبعد الانتهاء من هذه المحادثة التليفونية انصرف الرفاق لأداء صلاة الجمعة، في مسجد القصر وهو يقع في حوش القصر كما تقدم الكلام، ومما هو جدير بالذكر أن المسجد الملكي المذكور كغيره من المساجد العامة في الرياض وفي نجد جميعها من حيث الشكل والبساطة والبعد عن زخرف الدنيا وباطلها، وقد أتيح لي في عودتي أن أقف قليلاً في قرية "مراة" التي مر ذكرها، وكان أول ما طلبت الذهاب إليه هو المسجد الجامع، ومع أن الوقت لم يكن وقت صلاة إلا أنني قضيت وطري من مشاهدة المسجد من داخله ومن أعلاه، ورتبت حكمي على تلك المشاهدة بأن المساجد في نجد تقوم على طراز واحد ونسق متفق من البساطة والبعد عن الزخرفة، بما يتفق وما للعبادة من الهيبة والخشوع.

وبعد أداء الصلاة عاد الرفاق إلى نزلهم في القصر الملكي العامر لتناول طعام الغداء والاستراحة، لاستئناف السفر من الرياض والعودة إلى روضة الخفس، حيث كان هناك جلالة الملك، وقد قضى الرفاق تلك السويعات القليلة في التهيؤ للسفر، متزودين من مدينة الرياض بالذكريات التي ستكون لهم زاداً في المستقبل ومورداً خصباً للخيال البعيد حين يعودون إلى بلادهم وتقوم الأبعاد الشاسعة بينهم وبين ماكانوا متنعمين به من نجد، ومن ربي نجد ومن صباها، ورياضها وروضاتها، وأعشابها، وأزهارها، وجبالها، ووهادها، وسنابلها، وأوديتها، وما إلى ذلك من مترادفات الجمال في نجد وهو الذي لا تنقطع له مادة في الوصف ولا في الخيال!!

العودة إلى روضة الخفس

وفي الساعة العاشرة غادر الرفاق مدينة الرياض عائدين إلى روضة الخفس، إلا واحداً منهم هو الشيخ محمد نصيف، كان قد استأذن من جلالة الملك في أن يعرج على روضة من روضات الطريق، كان فيها فضيلة الشيخ محمد بن عبداللطيف من مشايخ نجد وعلمائها مقيماً بعض الوقت، وقد استأذن الشيخ محمد نصيف في السماح له بزيارة

الشيخ العالم المذكور، لأن فضيلته لم يكن في الرياض مدة وجودنا فيها، وإنما كان ضارباً في جانب من جوانب الصحراء المعشوشبة الزاهرة، للاستجمام وعبادة الله.

والطريق بين الرياض وروضة الخفس يبلغ الثمانين كيلو متراً، وهو يخترق سلسلة من الأودية المتصلة، بينها كثير من الروضات الزاهرة المتناثرة، وهو كغيره من طرق نجد، سهل منبسط لا أثر للوعورة فيه، وأكثر رياض نجد وأجزائها سهل منبسط لايلمح الإنسان فيه جبلاً إلا ما يقع نادراً من المرور بجبل متسلسل كجبل "العرمة" أو جبل "طويق" وماعدا ذلك فليس هناك شيء من الجبال الصغيرة الكثيرة المتصلة أو المتلاصقة كما هو مشاهد وموجود في أكثر أودية الحجاز وغيرها من بلاد الجزيرة العربية.

وفي المغرب، وصل الرفاق جميعهم إلى روضة الخفس، وقصدوا إلى مخيامهم، أو قصد كل وفد إلى مخيامه، كما قصد كل فرد أو فريق إلى خيمته ليصلح شؤون نفسه. وبعد قليل من الوقت، تشرف الجميع بالسلام على جلالة الملك. وكان لقاء باهراً، بمناسبة ما تركته زيارة الرياض من الأثر الخالد الذي لا يمحى، وبعد أن كان الخبر عنها سماعاً وعن بعد حققتها لهم المشاهدة والقرب، على حد قول الشاعر: " فلما التقينا صدق الخَبَرَ الخُبْرُ".



ليالي الحنين

كانت هذه الليالي الثلاث التي قضيناها في "روضة الخفس" قبيل السفر منها عائدين إلى الدار والأهل والولد، هي ليالي الحنين الشديد الذي لم تشعر به نفوسنا إلا في حالات نادرة، فهؤلاء نحن قد قضينا ما يزيد عن الشهر بعيدين عن الأهل والأبناء وغيرهم من الأصدقاء والمحبين، وقد انقضى الوطر من الرحلة بتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بالإذن لنا بالسفر والعودة، ولم يبق لنا دون الوصول إلى أهلينا وإطفاء غلة الشوق بلقائهم، غير انتظار اليوم الذي حدد للسفر، كأنما ننتظر معه قدوم السفينة التي تقلنا، أو ميعاد القطار الذي يطوي بنا المسافات!! وهي ثلاث كانت تمر بنا كمر السحاب، أو كنا نمر بها مر الكرام، لا نعرف لها قيمة في عداد العمر ولا في حساب الزمن، لو لم تكن ليلات انتظار وليالي حنين، فكم فيها من الساعات، وكم فيها من الدقائق والثواني، إنها عملية حسابية تستنفد جهد الخبير وصبر الصبور، فالأمر لله ولنحاول قطعها بكل ما يمكن اختلاقه من أسباب السلو والنسيان. ولكن هناك شبح يقض مضاجعنا، وتعقد لأجله أجفاننا، هو شبح الحنين، والحنين مسامر لطيف يتطرق إلى النفس كالسم في الدسم، فهو خيال طريف، وسمر شهي ممتع يخلو به الإنسان مع نفسه فتتلذذ بطرافة خياله وشهي سمره، وجمال خلوته، ولكنه يسلب الكرى، ويستطير باللب، ويبعث على التفكير، ويوقظ الأعصاب، ثم إذا به في نهاية الليل يسلمك من الأرق إلى السهاد، ويبدلك السهر بطيب الرقاد، فلا تستفيق من حلم في ذلك الصحو الدائم إلا إلى حلم ألذ منه صحواً وأكثر يقظة وانتباهاً.

ولقد كانت نفوسنا تعج بألوان متضاربة من الحنين، وأشكال متباينة متناقضة، ولا شك أن كاتب هذه السطور كان أشد الرفاق تعرضاً لذلك الداء الوبيل الذي قلنا: إنه يقض المضجع ويسلب الكرى، حنيناً إلى بنيات قيل في مثلهم:

لولا بنيات كزغب القطا	يفزعن من بعض إلى بعض
لكان لي ملتجأ واسع	في الأرض ذات الطول والعرض

ولكن أين هم مني؟ وأين أنا منهم؟ حين أتمثل بقول القائل:

أحـن لهـم شـوقاً علـى أن بيننـا   مهامـة يعيـا دون أقصرهـا الربـد

وهذا الذي أقوله عن نفسي، لست أشك مثقال ذرة في أنه شعور غيري من الرفقاء أيضاً.

وهناك لون آخر من الحنين غير هذا اللون، فالشوق إلى روضة الخفس قد بدأ يساورنا ونحن في روضة الخفس، أو بمعنى آخر، إن الحنين إلى نجد، وإلى ساكني نجد وإلى ديارها وروضاتها ومعالمها وأرباضها ومنازلها، قد بدأ يساورنا ونحن فيها لما ننتقل منها ولما نتحرك عنها، فهي في ذاكراتنا حاضرة قبل أن تبقى خيالاً، وقد ارتسمت خيالاً قبل أن تطويها الذكريات، فأين من هذا الشعور قول الشاعر:

أشـوق ولم يمـض السـرى غـير ليلـة   فكيـف إذا خـب المطـي بنـا عشـرا

فهذه روضة الخفس، وهذا غديرها المشهور الذي كان يتلقى أنفاسنا الحرى ملتهبة بالشوق والحنين، فيحيلها برداً وسلاماً، وننسى ونحن في ظلاله ما كان يعتلج في نفوسنا من ذلك الشوق والحنين، وها نحن أولاء مفارقوه بعد لحظات قصيرة تسمى بالأيام، فكيف لا نحن إليه ونحن فيه.

وهذا جبل طويق الذي احتضن روضة الخفس، وقام عليها كالأم الرؤوم، وقد كانت لنا جولات ونزهات من حول أرباضه وبين سفوحه، ولقد أذكر مرة أنني خرجت مع رفيق في إصباحة باكرة لمحاولة التعلق بأهداب ذلك الجبل والتصعيد إليه فقضينا زهاء الساعتين في محاولات عابثة عدنا منها بالضنى والكلال، والعجز عن إدراك الغاية، فقد كان الجبل مقطوع الأطراف كأنه حائط قد بالسيف، أو كأنه برج معلق في الفضاء، أو كأنه حصن لم يضع له صانعه مصعداً، حتى قلت لصاحبي: لعله جبل السموأل، فإن لم يكنه فهو في صفته على الأقل، ولعله كما قال فيه صاحبه:

لنـا جبـل يحتلـه مـن نجـيره   منيـع يـرد الطـرف وهـو كليـل

فقال لي: أجل، منيع يرد الطرف فهو كليل! ومع ذلك لم نيأس من تلك المحاولة السابقة فقد عمدنا إلى محاولة أخرى أوسع نطاقاً، فركبنا سيارة وقمنا بجولة التفاف حول الجبل

علنا نبصر منفذاً إليه. وبعد جهد جهيد عدنا أدراجنا من حيث أتينا دون أن نظفر من جبل السموأل بطائل!! وكل ما أمكن أن نظفر به منه هو اقتناء حصباوات غريبة الشكل من حصباء الجبل لفتت نظرنا بأحجامها الدقيقة الغريبة ومناظرها الخلابة الرائعة... فما لنا لا نحنّ إلى طويق، وما لنا لا نفعم منه بالذكريات، بعد أن صحبناه شهراً من الزمن أو يزيد!! وبعد أن كانت لنا معه تلك الجولات الشائقة في الإصباح والإمساء، وبعد أن أصبحت قطع من حصبائه تقوم بعملها على مكتبي في حراسة الأوراق من الهواء!! من تلك الحصباء التي صحبتها من سفوحه.

وهذا "غدير الخويبي" الذي يقع في شرق الروضة ويحتضنه جبل طويق، متنزهنا في كل يوم، كيف نودعه اليوم، وكيف لا نحنّ إليه ولنا فيه ذكريات، فقد كانت تنتظم حلقة الرفاق في ظلال أشجاره، أو تسبح على موجات مائه، أو تتسامر تحت أغصانه ملتهبة بما توحيه تلك الجلسة عن عبق الحديث الذي يختلط نشره بعبق الروضة وجمال الماء، ومن الذكريات التي لا تنسى فيه أن الشيخ عبدالله الشيبي يأبى أن يقضي نزهته حول ذلك الغدير إلا مختبئاً تحت أغصان أشجاره، مستتراً بها وفوهة بندقيته مصوبة من خلال الأشجار والأغصان إما إلى كبد الجو الفضاء يتلمس طيراً هائماً، وإما إلى سطح الماء يتلمس طيراً ظامئاً، فإن لم يظفر في كلتا الحالتين بضالته من الطيورالضالة!! فلا أقل من طلقة أو طلقتين يرسلهما مدويتين عبر الفضاء ليعرف الرفاق أن الشيخ قام بمهمته خير قيام، وأنه صوب بندقيته وأطلقها، ولا عليه بعد ذلك إن أخطأ أو أصاب، فالمرء عليه أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب، كما يقول الشاعر!!

ومن الذكريات التي لا تنسى فيه أن سعادة الشريف شرف رضا، وهو رجل رقيق العاطفة، وقد قلنا في مناسبة سابقة: إنه كاد أن يصبح شاعراً طيلة مدة الإقامة في الروضة لما شحذت من عاطفته مناظر الصحراء، كان يجلس جلسات طويلة في متنزه ذلك الغدير متفيئاً ظلال أغصانه الوارفة، فيقول: إن جمال هذه الروضة ومناظرها تفوق روعتها "غابة بولون" في باريس، ولا يكاد يخلو في هذا المتنزه إلا ويتذكر غابة بولونيا وجمالها فينشد أبياتاً من قصيدة لأحمد شوقي بك في وصف جمال تلك الغابة ويستنشدنا بقية أبيات القصيدة فننشده إياها، فيطرب ونطرب معه من ذلك الوصف ونتمثل الشاعر

كأنه قالها في وصف مجلسنا الحاضر، لا مجلسه الغابر، فنستعيد الوصف ونردد منها قوله:

ياغـــــــاب بولـــــــــون ولي	ذمــــم عليـــــك ولي عـــــهود[144]
ياغـــــاب بولـــــــون ولي	وجـــد مـــع الذكـــرى يزيـــد
هـــلا ذكـــرت زمـــان كنـــا	والزمـــــان كمـــا نريـــد
نطـــوي إليـــك دجـــى الليـــا	لي والدجـــى عنـــا يـــذود
فنقـــول عنـــدك مـــا نقـــو	ل وليـــس غـــيرك مـــن يعيـــد
نطفـــي هـــوى وصبابـــة	وحديثـــها وتـــر وعـــود
نســـري ونســـرح فـــي فضـــائك	والريـــاح بـــه هجـــود
نســـقي ونســـقى والهـــوى	مـــابين أعيننـــا وليـــد
والغصـــن يســـجد فـــي الفضـــاء	وحبـــذا منـــه الســـجود
والنجـــم يلحظنـــا بعـــين	مـــا تحـــول ولا تحيـــد
حتـــى إذا دعـــت النـــوى	فتبـــدد الشـــمل النضيـــد
بتنـــا ومـــا بيننـــا	بحـــر، ودون البحـــر بيـــد!!

وفي ذات صباح، قابلني سعادة الشريف شرف رضا، فانفرجت أساريره الوضاحة عن مداعبة رقيقة كخلقه الرقيق، فقال: أين أنت يافؤادي؟! ولماذا لم تظهر اليوم ولم تبن، فقلت لسعادته:

أنـــا فـــيما علمتـــه مـــن مكـــاني	رابـــض منـــك فـــي حنايـــا الجنـــان

---

(144) الشوقيات: ٢/٢٧ . وغابة بولونيا: متنزه معروف في باريس (الدخيل).

لـذت بـالقلب، فـاحتجبت عـن العـين فجلـت رؤيـاك عـن أن تراني!!

أما الأستاذ عبدالرؤوف الصبان، فقد اشتهر بالتخصص في كل الأبحاث والمواضيع، فهو يجول في العلوم الاقتصادية والمالية والتاريخية واللغوية أيضاً، وقد سبق أن قلنا فيما تقدم: إنه كان يصطحب قاموس المنجد في جعبة كتبه إلى جانب ما اصطحب أو ما لم يصطحب من الكتب الأخرى، أما ولعه بالأبحاث التاريخية، فلا أدل عليها من أنه أخذ يحقق ويدقق منذ وصلنا إلى نجد عن رحلة الصحابي الجليل والفارس الإسلامي العظيم خالد بن الوليد على رأس سراياه العسكرية في حروب الردة، وعن الطريق التي سلكها من مقر القيادة في يثرب إلى اليمامة لغزو بني حنيفة، ويحقق في البلاد التي اخترقها أو مر منها، وكانت عدته في تطبيق الاستشهاد على الواقع، نسخة من كتيب الشهر اسمه "خالد بن الوليد" بقلم الفريق طه باشا الهاشمي، وقد تشرف في أثناء زياراته لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك بعرض خلاصة بحثه ورأيه، فكان سموه يناقشه في رأيه ويبادله الملاحظات حول ذلك الموضوع.

وأما أبحاثه الاقتصادية والمالية، فلا أدل على براعته من وقوع الاختيار عليه جملة مرات لانتدابه في مهمات من ذلك القبيل، وأجد ما يلفت النظر من الأدلة على ذلك، تشرفه بالاختيار الملكي الكريم للسفر إلى الإحساء[١٤٥] في عمل يتعلق بمهمة اقتصادية إدارية، ولقد وفقه الله إلى النجاح في كل عمل عهد به إليه، لما فيه من حسن البصر بتصريف الأمور، وما فيه من الحزم المقرون بالعزم، والجرأة المصحوبة بالإقدام، ولقد كان له في مناصب الحكومة بعد ذلك أوفر نصيب من النجاح مما دل على بعد نظره وأيد ما عرفه به أصدقاؤه ومحبوه من الرغبة الصادقة في خدمة مليكه وبلاده، وخدمة المجتمع السعودي، سواء يوم كان عضواً في مجلس الشورى أو رئيساً لمجلس المعارف أو في مديرية الأوقاف العامة، أو حيث هو الآن مضافاً إلى عمله أمين العاصمة -مكة المكرمة- وذلك غير المهمات الأخرى التي كثيراً ما تسندها إليه حكومة صاحب الجلالة فيخرج من أدائها موفور النجاح.

---

[١٤٥] الصواب (الأحساء) (الدخيل).

ليلة السفر

الكلام على "ليلة السفر" يحتاج إلى تقدمة وبيان، ذلك بأنها ليلة فذة في حياة الإنسان بالنسبة لما هو مترتب عليها من فراق ولقاء، والمسافر غالباً لابد أن يفارق حبيباً أو يلاقي حبيباً، وأشد ما تكون لوعة الفراق حين يكون الإنسان موزع القلب بين توديع حبيب عزيز، إلى لقاء حبيب عزيز. وكذلك كان شأننا، فنحن سنفارق اثنين من رفقائنا الذين زاملونا في الرحلة من مكة إلى هذه اللحظة، سنفارقهما وهما يسافران إلى رحلة طويلة، ثم إننا سنفارق هذه الروضة التي أصبحت لنا مألفاً وأصبح لعبير أعشابها في أنوفنا مسكة من العبق لا تفارقها لا في ظعن ولا في إقامة، فكيف نفارق هذا المكان وهذه الحياة التي ألفناها، وهذه النعمة التي نعمنا بها، دون أن يكون الحنين إليه، قد دب إلى نفوسنا قبل أن نفارقه وقبل أن يصبح ذكرى من الذكريات!!

لهذا كله كانت ليلتنا تلك ليلة سهر وسمر، وليلة شجو وحنين، فنحن نصطخب في نفوسنا بين عوامل مختلفة من التأثر، لا نحب الفراق، وإن كنا نطرب للقاء، وتستطير ألبابنا أسى على الفراق، وتحنّ نفوسنا شوقاً إلى اللقاء، وقد قال النابغة الذبياني في قصيدته التي يصف بها المتجردة:

قالوا: غداً يوم الرحيل فمن لهم ... ببقاء نفس المستهام إلى غد

وعارضه البارودي ببيت مماثل من قصيدة مماثلة بقوله:

قالوا غداً يوم الرحيل فمن لهم ... خوف التفرق أن أعيش إلى غد

وعارضهما كاتب هذه السطور قبل خمسة عشر عاماً بقوله:

قالوا: الرحيل ضحى غد فأجبتهم ... رباه لا تدني إليّ ضحى الغد!

وعلى هذا النحو كانت ليلتنا من السمر والسهر، والشجو والحنين.

في تلك الليلة التي هي أولى ليالي الحنين، وكان التأثر متبادلا بين عواطف جميع الرفاق، تجلت عواطف الأستاذ عبدالرؤوف الصبان، واستطعنا أن نستشف صبابة نفسه نحو داره وأهله وأولاده من وراء ستار الوقار والرزانة الذي كان مسدولاً على تلك الناحية العاطفية في نفسه، فجلس إلى رفقائه، وخص من بينهم زميليه الشاعرين السيد عبيد مدني وفؤاد شاكر، ينشدهما ويستنشدهما أقوال الشعراء في الصبابة والحنين، وقد طلب إليهما إن ينشداه قصيدة ابن زيدون، ولم يكن معنا أي مرجع يشتمل عليها، فرجعنا ورجع معنا إلى المكتبة التي يرجع إليها عند الحاجة، وهي الذاكرة، فعصرناها، واستقطرنا منها أبيات القصيدة وأمليناها عليه فكتبها في سجل ضمه إلى محفوظاته، وأخذ يرددها ويتلوها في ترنم موجع واستذكار وحنين! في تلك الساعة الشاجية الرهيبة. وهاهي ذي القصيدة عساها أن تكون مرجعاً لطالب غلبته الصبابة وأشجاه الحنين، في لحظة من اللحظات التي تطوف بأكناف الحياة على غير ميعاد!

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا[١٤٦]
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولاجفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حلت لبعدكم أيامنا فغدت	سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تآلفنا	ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية	قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما	كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم	حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا

---

[١٤٦] ديوان ابن زيدون، تحقيق : محمد سير كيلاني الطبعة الثانية: ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م، مصطفى الجلي القاهرة ص: ١٦٥ (الدخيل).

إن الزمان الذي قد كان يضحكنا … أنساً بقربهم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا … بأن نغص فقال الدهر آمينا

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا … وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا … فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم … رأياً ولم نتقلد غيره دينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا … إن طالما غيّر الرأي المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً … عنكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا … ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

ياساري البرق غاد القصر فاسق به … من كان صرف الهوى والود يسقينا

لاغرو إنا ذكرنا الحزن حين نهت … عنه النهى وتركنا الصبر سالينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً … مكتوبة وأخذنا الصبر تلحينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله … شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم تجف أفق جمال أنت كوكبه … سالين عنه ولم نهجره قالينا

ولا اختياراً تجنبناك عن كثب … لكن عدتنا على كره عوادينا

نأسى عليك إذا حنت مشعشعة … فينا الشمول وغنانا مغنينا

لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا … سيما الارتياح ولا الأوتار تلهينا

دومي على العهد مادمنا محافظة … فالحر من دان إنصافاً كما دينا

ولا ابتغينا خليلاً منك يحسبنا … ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا

ولا صبا نحونا من علو مطلعه … بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

أولى وفـــاء وإن لم تبـــذلي صلـــة	فـالذكر يقنعنـا والطيـف يصبينـا
وفـــي الجـواب قنـاع لـو شـفعت بـه	بيـض الأيـادي الـتي مـازلت تولينـا
عليـك منـا سـلام الله مـا بقيـت	صبابـة منـك نخفـيها فتخفـينا!!

وهذه القصيدة كما ترى، في حلتها الأنيقة الرشيقة، وفيما عرفت به من سمو المعاني ورقة العبارة وشبوب العاطفة كفيلة بأن تهدئ ثورة جامحة من ثورات النفس، أو أن توقظ فتنة نائمة من أحاسيس الهوى والفتون، وقد جاء في كلام العرب قديماً أن من لبس البياض، وتختم العقيق، وحفظ قصيدة ابن زيدون فقد حاز الظرف كله!!



وفي ليلة السفر تشرفنا بتوديع حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وداعاً حاراً مؤثراً بليغاً لا تستطيع وصفه أسلات الأقلام، ولا ريشة الرسام ولا ترقى إليه بلاغة لسان ولا نبضات جنان، ولو كان الواصف في بلاغة قس أو فصاحة سحبان!!

وفي تلك الليلة طافت برؤوسنا أخيلة الذكريات والحنين عن الماضي القريب الذي سلخناه في هذه الروضة، وعن المستقبل الوشيك الذي ننتظره من لقاء الأهل والأولاد، فكانت ليلة فذة من ليالي العمر التي لا تنسى، وكانت ليلة صاحية مصبحة ساهرنا فيها الذكريات والنجوى. وسامرنا فيها الأماني والأحلام.

يوم السفر وذكريات الروضة

أصبحنا يوم الإثنين ٤ ربيع الأول نسرف الهمة في الاستعداد للسفر، فهذه السيارات الكبيرة قد عبئت من الليل، وهذه السيارات الصغيرة تعبأ للسفر، وهانحن أولاء نتهيأ للركوب، وفي عشرات من الدقائق كنا قد أخذنا أهبتنا وانتظم الموكب في استقبال طريقه إلى السير، فقال لي صاحبي ماذا تقول: قلت:

عليك سلام الله ياروضة الخفس ويامن لها في النفس منزلة النفس[١٤٧]

نودعها والقلب بالشوق مفعم إليها، فهل عود إلى "روضة الخفس"؟!!

فقال لي صاحبي: أجل "فهل عود إلى روضة الخفس"؟ قلت نعم إن شاء الله وكانت في العمر بقية.

وكانت هذه الأبيات على صغرها وقصرها، سلوة كثير من الرفاق في سياق السفر وحين التوديع، وكانت النغمة التي ترجعها أصواتهم الهامسة معبرة عن دفين الشوق وكامن الحنين.



ومن أجمل ذكريات الروضة، أننا كنا في "غدير الخويبي" ذات ليلة نتنزه على عادتنا، وكان ذلك ليلة ١٥ صفر، ولا يعنيني من تحديد التاريخ إلا أن أقول: إنها كانت ليلة تمام البدر، فشهدنا منظراً لم نشهده من قبل وهو منظر طلوع القمر وغروب الشمس، ذلك في المشرق وتلك في المغرب وقد تقابلا وجهاً لوجه، فلفت نظري هذا المشهد الذي يمثل أسمى معاني الجمال وأبهاها، فقلت لصاحبي: ماهذا؟ فقيل لي إن هذا المنظر لا يتاح إلا في مثل هذه الليلة من كل شهر أي في النصف منه، فقلت إنني لم أشهده من قبل، فقال: ولكنه لا يتاح إلا في منتصف الشهر، وفي مثل هذه الصحراء التي لا يحجبها حجاب، والتي يستشف منها الإنسان صفاء نفسه، فيستشف فيها صورة النيرين متقابلين، هذه الشمس وذاك القمر، ولولا الصحراء ومواجهتها للفضاء، لما استطعنا أن نشهد هذا المشهد الجليل الرائع، فلما رأى الرفاق إعجابي بهذا المنظر وشغفي بجماله، قالوا: ماذا ترى في هذا المنظر من الشعر؟ وأين منه الشاعرية؟ قلت: أجل ومن للشاعرية بمثل هذه المواجهة المصافحة، فها أنذا أقول ولعلي أوفق فيما أقول:

أطل علينا البدر في ليلة الخفس لعشر من الليلات عدت على خمس[١٤٨]

---

[١٤٧] وحي الفؤاد: ٢٢٨ (الدخيل).

تلاقى وقرص الشمس في الأفق غارب كوجه إلى وجه، ونفس إلى نفس

ولا أدري ماذا قوبل به هذا الوصف المنسجم مع الواقع، ولكن الذي أدريه أن هناك من حفظه وردده عن ظهر قلب! أما أنا فقد نسيت ماقلت لولا جمال الذكرى وما تشحذ به القريحة من إرهاف وإصغاء، وها أنذا أحن إلى نجد قبل مفارقتها فأردد متمثلاً بقول القائل:

ياسعد قل لي وأنت حر متى رعان العقيق تبدو

أشتاق نجداً وساكنيه وأين مني الغداة نجد؟!

وفي معرض هذه الذكرى، وفي سورة من سورات الحنين خلوت إلى نفسي، وذكرت ما أنا فيه من نعيم طريف، ومَنْ أنتظر لقاءهم من الأهل والأولاد، فقارنت بين الحالتين فلم أستطع تقديراً وغلبني الشوق إلى ما أنا فيه، كما غلبني الحنين إلى من أنتظر لقاءهم، وتدافعت نفسي تصطخب بشتى اللواعج والآلام، فقلت بيتا من الشعر أو بيتين:

لم أدر أي الهوى في مهجتي باري من روضة الخفس أو من شعب أجياد[149]

هنا رفاق وأصحاب غطارفة وذاك في سفحه أفلاذ أكبادي

وظللت أهمس بهذه الأبيات، وظل رفاقي يتناقلون كلماتها، ثم استرسلت فيها في لحظات فينات متتابعة من ذلك اليوم، فقلت:

لم أدر أي الهوى في مهجتي بادي من روضة الخفس أو من شعب أجياد[150]

هنا رفاق وأصحاب غطارفة وذاك في سفحه أفلاذ أكبادي

الله في مهجة أودى بها شغف وفي "فؤاد" إلى "أكباده" صادي

---

(١٤٨) البيتان من وحي الفؤاد: ٢٢٨ (الدخيل).

(١٤٩) وحي الفؤاد: ٣١٣ (الدخيل).

(١٥٠) كاتب هذه السطور يسكن في شعب أجياد بمكة، وهو مألف سكنه ومكان حنينه.

كم وقفة في خيال الشعر رائعة كأنها روضة في شاطئ الوادي
سبحت منها بأحلام منمقة كأنها في ليالي الدهر أعيادي
أصغي إلى الطير في الأوكار ناغية ترتل اللحن في ترجيع إنشاد
كأنها شاعر الروض الذي هتفت على قوافيه حسناً روعة الضاد
أو أنها الشعر أجني من مزارعه ثمار ما أنتجته كف حصاد
أو أنها النوق تزجي السير دائبة إلى الحبيب وشعري وحده الحادي

وأستأنف المسير من الروضة في ذلك الصباح الباكر، وكان أسلوب السفر في العودة غير أسلوب السفر في الذهاب، فقد واصلنا السفر بهمة بعيدة، ونشاط عظيم، ولست أعرف على التحقيق مرجع ذلك النشاط، أكان هو بدافع الشوق إلى الأهل والدار؟ أم كان بعامل آخر هو عامل التخشن والتعود على حمل المشاق والتجلد على مواصلة الأسفار؟ اكتسبناه في مدة ذلك الشهر من تلك العوامل!

أجل، فقد واصلنا السفر، وطوينا الأرض طياً، ونهبنا المسافات الشاسعة نهباً، حيث مشينا في اليوم الأول من الروضة إلى الدوادمي على مرحلة فيها استراحة قصيرة لقضاء الليل في قصر الدوادمي حسب البرنامج الذي اتفقنا على تنفيذه، والمسافة في هذه الرحلة هي(٣٢٠) كيلو متراً، وهي مسافة قل أن يقطعها مسافر في يوم واحد ومرحلة واحدة!!

وقضينا ليلة الثلاثاء في قصر الدوادمي ثم أستأنفنا السفر في صباح يوم الثلاثاء، مواصلين السفر بنفس الهمة العالية التي قطعنا بها المسافات في اليوم الأول، فقد كان المقرر في برنامج هذا اليوم أن نواصل السفر إلى المويه، لنقضي الليل في قصر المويه وكانت المسافة جد شاسعة، والشقة جد بعيدة، إذ هي تزيد عن مرحلة اليوم الأول، ولكن الله المستعان، فقد أعان بحسن توفيقه على مواصلة السير فاجتزنا في هذه المرحلة الشاسعة جملة مراحل ومحطات لم نتوقف إلا في واحدة منها لتناول طعام الغداء، وفي بعضها للتزود من الماء وهي: "القاعية وعفيف والدفينة ثم المويه، وقد بلغناها بعد المغرب بقليل في جو ممطر بعض الشيء. وقد بلغت المسافة التي قطعناها في هذا اليوم بين تلك

المراحل(٣٧٦) كيلو متراً هي المسافة بين الدوادمي والمويه. وكان المقرر في برنامجنا أن نستأنف السفر في صباح اليوم التالي -الأربعاء- من المويه فنصل إلى مكة في مسائه، والمسافة في هذه المرحلة ٢٧٢ كيلو متراً أي أقل من مرحلتي اليومين السابقين، واسترسلنا في الأحلام الذهبية بضع ساعات بعد أن منينا النفس بالوصول إلى الدار والأهل في مساء ذلك اليوم الأربعاء، فنكون قد قطعنا الطريق في ليلتين أو ثلاثة أيام، وهي مدة أقل من نصف المدة التي استغرقناها في الذهاب!! وكان سرورنا عظيماً بما سينسب إلينا من علو الهمة في مواصلة السفر وبما ترتب عليه من سرعة العودة وسرعة اللقاء!!! ولكن حدث كما قال الشاعر: "وتقدرون فتضحك الأقدار".

ذلك أن المطر الرذاذ الخفيف الذي صحبنا في أصيل يوم الثلاثاء وظل يصحبنا إلى وصولنا للمويه، قد أستأنف هطوله بغزارة طوال تلك الليلة، وكان المعروف لنا ولمن استرشدنا بآرائهم أن قبل المويه وبعدها مساحة كبيرة من الأرض السبخة التي إذا غمرها قليل من ماء المطر -فضلا عن كثيره- عادت غير صالحة للسير مطلقا فإذا غامرت سيارة بالمرور فيها ساخت أقدامها -أي عجلاتها- ورفارفها وجوانبها في أرض طينية مالحة رخوة، وكذلك الشأن في الجمال والمشاة وقد رأينا ذلك في أنفسنا فقد حدث في اليوم التالي أن خرجنا لنزهة قصيرة حول القصر، وحول القصر فقط فكان من بيننا من ساخت رجلاه إلى حد الركبة.

وقد ورد في كتاب "قلب جزيرة العرب" للأستاذ فؤاد بك حمزة" ذكر لأهم السبخات الموجودة في المملكة فذكر تسع سبخات سماها بأسماء أماكنها، ولم يذكر سبخة المويه هذه، ولعلها لم تكن قد عرفت من قبل، أو أنها ثانوية الأهمية بالنسبة لغيرها، والذي حدانا إلى تسجيل هذه الملاحظة هو أهمية كتاب قلب جزيرة العرب ومكانته الرفيعة في موضوعه، ثم أهمية هذه السبخة بالنسبة لما شهدناه فيها رأي العين، ولعلنا لو لم نشاهد هذه السبخة في حالتها الممطرة، لكننا مررنا بها مر الكرام من غير أن نقدر لها من الأهمية ما تستحقه، لأنها في حالتها العادية لا تلفت النظر مطلقاً أكثر من أن لونها الأسمر ولمعة الملوحة في بياض سطحها، يدل المسافر على أنه يقطع أرضاً سبخة، ومما حدانا أيضاً إلى تسجيل هذه الإشارة أن هذه السبخة من أمهات السبخات نظراً

لكبرها وسعة مساحتها، فهي في المسافة التي قبل المويه أو بعده تزيد عن عشرات الأميال، وتلك مساحة لا يستهان بها بالنسبة إلى غيرها، وهي لهذه الأهمية قضت علينا بالاحتباس في المويه مدة (٤٨) ساعة لم نستطع معها مغادرة غرفنا في القصر، وتفصيل ذلك أننا أمضينا ليلة الثلاثاء في المويه، فلما كان الصباح عولنا على استئناف السفر بعد أن كفت المطر قليلاً، ولكن بعض ذوي الرأي والخبرة ومن استشرناهم من الرفقاء ومن سكان البادية، أشاروا علينا بعدم السفر وتأجيله مدة (٢٤) ساعة أخرى حتى تجف أرض السبخة التي لا يمكن اجتيازها مطلقاً وهي رخوة لينة، هذا على فرض انقطاع المطر، أما إذا لم ينقطع فسنظل محتبسين في غرفنا بالقصر أياماً أخرى إلى أن تجف أرض السبخة من لينها ورخاوتها، ولذلك قضينا يوم الأربعاء مقيلين في قصر المويه ينهمر أحياناً ويخف أحياناً أخرى إلى أن انقطع بعض الشيء، ثم واصل الانهمار في فترات متقطعة من الليل، فقضينا طيلة يوم الأربعاء في القصر، كما قضينا ليلة الخميس ساهرين ساهدين! ومالنا لانسهر وما لأجفاننا لا يجفوها الكرى، وهذه مكة ومن فيها لنا من أهل وأولاد، على قيد مرحلة واحدة من مراحل برنامج سفرنا، وهذا الطريق إليها موصد في وجوهنا لا نستطيع منه دنواً ولا قرباً.

لقد كانت ليلة المويه هذه من أمهات ليالي الدهر، وكانت ليلة نابغية طويلة مملة لم تنفع معها حيل السمر، ولا اصطناع البهجة ولا اختلاف الحبور، لأننا أكرهنا على البقاء في مكاننا هذا إكراهاً طويلاً بلغ الثماني والأربعين ساعة، وكنا عولنا على السفر في إصباح تلك الليلة، فليس عجيباً أن تكون طويلة وأن تكون مملة إلى ذلك الحد من الطول والإملال، وأن ننشد فيها مع ابن معتوق:

ياساكني الجرعاء لا أقوى الغضا	منكم ولاافقدت مهاكم توضح[151]
هل في الزيارة للنسيم أذنتمو	فلقد أشم المسك منه ينفح
لاتنكروا قتل الرقاد بينكم	أو ليس ذا دمه بخدي يسفح

---

[151] ديوانه :٨٣ (الدخيل).

لله كـم فـي سـربكم مـن مقلـة | تمضـي، وبيـض صفاحـها لا تجـرح
رفقـا لمنـتزح إليكـم روحـه | تغـدو بـها ريـح الصبـا وتـروح
يصبـو إلى بـرق الحجـون فتلتظـى | ويصـوب الدمـع الهتـوف فتسـبح
رعيـاً لأيـام الحمـى، ورعـى الحمـى | وسـقت معـاهدة العـهاد الـروح
كـل المـوارد بعـد زمـزم حلوهـا | بفمـي يمـج، وكـل عـذب يملـح
لا تطلبـوا عنـدي الفـؤاد فـداره | أمـا ربـوع منـى، وإمـا الأبطـح

أجل ، لقد قضينا تلك الليلة الليلاء، بطول السهر، واصطناع السمر، واختلاق البهجة والحبور، وكان ينسل أحد الرفاق بين الفينة والفينة والأخرى مرسلاً بصره إلى السماء ليتبين فيها النجوم، بين الأمل والوجوم، فإن لمح نجماً في أقصى السماء انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضى والاطمئنان إلى مواصلة السفر في الغد، وإن أبصرها مغيمة مكفهرة، عاد مغيماً مكفهراً!! وقضينا الليل في تلك الحال وعلى ذلك المنوال، حتى ضحكت السماء عن ابتسامتها الواضحة، وأشرقت النجوم بإذن ربها، وجفت من مآقيها الدموع المرسلة التي غمرت بها الأرض، فكأن ضحكات السماء هي ضحكات نفوسنا التي استبشرت بها، بعد ما كان بكاء السماء بدموعها المنهمرة ووجوم نجومها، كآبة في نفوسنا ووجوماً فيها، وزادت السماء وضاحة وإشراقاً بما استمدته من وضاحة الشمس وإشراق نورها بإذن الله، وهناك انفرج الأمل في نفوسنا وضحكت إلى مصافحة الجو وإشراقه، ثم اجتمع مؤتمرنا وقرر استئناف السفر والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن قضينا ليليتي السجن المكره في المويه، ويوميه، قررنا مواجهة الأمر الواقع واستئناف السفر، حيث لم يكن منه بد، وحيث قد نفد الصبر، وها هي ذي إشراقة الجو قد لاحت فلاحت في نفوسنا إشراقاً، وقد سطعت فبعثت في نفوسنا عزماً دفاقاً.

وفي الصباح الباكر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول، شددنا رحالنا، وليست هي غير السيارات، وغادرنا المويه قاصدين إلى عشيرة فمكة، وقد أعان الله على مشقة الرحلة

وعلى مشقة السبخة فلم نصادف صعوبة تذكر، واستعمل سائقو سياراتنا كل ما في وسعهم من دهاء الصناعة، وذكاء الحيلة، في تفادي الاصطدام بتلك السبخات فكانوا يمرون بها مر الكرام بجميع ما في هذا المثل من معنى، والإسراف في السرعة حتى يفتدوا سياراتهم -وركابها أيضاً- من أن تسوخ أقدامها- وركابها- في باطن الأرض، وكانت تلك حكمتهم طوال الأرض الرخوة اللينة، قد قدر الله لنا السلامة في اجتيازها. ومن أعجب المناظر في تلك السبخة هو منظر تراكد مياه ذلك المطر الغزير في شمالها بما كان يشبه البحيرات، فمررنا بها وقلوبنا واجفة، وأبصارنا زائغة طيلة بضع ساعات من الزمن حتى اجتزناها إلى الأرض الصماء الجلد الشديدة.

وخرجنا من السبخة إلى سهل فسيح هو سهل ركبة الذي سبق أن ذكرنا وصفه في الذهاب بين العشيرة[١٥٢] والمويه، وفساحته وامتداد رقعته، وهذا السهل يلفت النظر بجماله الأصم، فلا هو بالأشجار والغابات، ولا هو مأهول بالجبال والهضبات، ولا هو مشاب بالنواتيء والوعورة، فهو من هذه الناحية في جمال أصم إن صح هذا التعبير، لأنه جميل بخلوه من تلك الوعورة والجبال والنواتىء، وغير جميل بخلوه من الروضات والغابات والمزارع، فلذلك قلنا: إن جماله أصم، كما قال العرب قديماً عن جمال شهر رجب بأنه "رجب الأصم" لخلوه من قعقعة السلاح، التي هي غير محببة إلى النفس على كل حال.

وقد ورد في كتاب "قلب جزيرة العرب" لمؤلفه سعادة الأستاذ فؤاد بك حمزة فصل خاص عن السهول والسبخات، جاء في الصفحة رقم ٤٢ منه عن سهل ركبة البيانات الآتية:

"وتوجد في المناطق الداخلية في البلاد سهول مترامية الأطراف، واسعة الأرجاء يسير فيها الإنسان مسيرة أيام دون أن يجتاز آخرها. ومن أهم هذه السهول في جهة الحجاز سهل ركبة المشهور الذي يحده من الشرق جبل حضن، ومن الجنوب جبال عشيرة والعرجية والطائف، ومن الغرب سلسلة جبال الحجاز العليا، ويمتد من نواحي عشيرة التي تبعد عن الطائف (٦٥) كيلو متراً إلى جهات المويه، وأرض هذا السهل الواسع مؤلفة من الطبقات الرسوبية الصلصالية تعلوها في أماكن قليلة حصباء سوداء وخلافها" أ هـ.

---

[١٥٢] الصواب (عشيرة) كما تقدم (الدخيل).

وهذا هو الوصف الذي ذكره فؤاد بك حمزة ينطبق تمام الانطباق على حقيقة سهل ركبة الذي مر ذكره!!

❖❖❖

وبعد متابعة السير، أسلمنا سهل ركبة إلى العشيرة، فتنفسنا الصعداء بالوصول إليها لأنها طليعة مكة، وقد أذنتنا برؤيتها تلك الحرار السوداء المحيطة بها والتي تعتبر بشيراً بها لكل صادر ووارد، فهي تلوح للقادم من مكة مثلما تلوح للقادم من نجد، وهي في الحالتين عَلَمُ على المكان وإيذان بالوصول!!

وصلنا إلى عشيرة بين الظهر والعصر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول، فقصدنا إلى محطة البنزين، لنستريح في إحدى غرفها مدة من الوقت حتى تصل بقية سيارات الرفاق جميعهم، وحتى نتزود منها بما تحتاج إليه سياراتنا من طعام وشراب، وليس هما غير الوقود من زيت وبنزين!!

وقضينا مدة ساعتين في تلك الاستراحة الهانئة حتى اجتمع الرفاق وحتى قضينا وطرنا ووطر سياراتنا من التزود بالوقود، وبعد الساعة التاسعة بقليل تحرك الموكب قاصداً إلى مكة، فمررنا بالسيل الكبير ومنه إلى الزيمة، ثم إلى الشرايع، وقد بلغناها حول المغرب، وهناك نزلنا لأداء فريضة الصلاة، وللسلام على المستقبلين الذين خرجوا لاستقبالنا على غير ميعاد، وكان في مقدمتهم الشيخ أمين الشيبي وغيره من بعض الأصدقاء، وقد جاء لاستقبال والده، واستقبال أصدقائه من أعضاء الوفد المكي. وبعد صلاة المغرب، نهضنا من الشرايع قاصدين إلى أم القرى، وبلد الله الحرام، وموئل الأهل والأولاد والأصدقاء، فبلغناها قبيل صلاة العشاء، وكنا قد أحرمنا من الميقات لدخول مكة معتمرين، فقصد الجميع إلى المسجد للطواف ثم إلى الصفا والمروة للسعي، ومن ثم تفرقوا إلى منازلهم على متون سياراتهم التي لا أظن أنها كانت تسير بوقود من البنزين، وإنما كانت تسير بوقدة من الشوق، وبحرارة من الحنين إلى حيث الأهل والدار، في لوعة الشوق والانتظار...

وقد حدث أن بعض الرفاق: وبقية الوفود الأخرى كانت سياراتهم متأخرة عنا في الطريق بضع ساعات، وقد قلنا إن المطر قد هطل قبيل المويه فعاقتها السبخة التي مر ذكرها عن متابعة السير بضعة أيام، وكان طريقها يختلف عن طريقنا.

فذلك وفد المدينة قد اختار طريق المهد، وهو يتفق مع طريقنا من نجد إلى عشيرة، ومن ثم يأخذ سبيله إلى المدينة المنورة، وقد لقي هذا الوفد عقبات في عودته بسبب هطول الأمطار وآثارها في بعض السبخت بما أدى إلى تأخيره.

وهذا وفد الطائف يتفق طريقه معنا من نجد إلى العشيرة[١٥٣] أيضاً، ومن هناك يختلف عنا في سلوك طريقه إلى الطائف من أحد جوانب سهل ركبة الفسيح، وقد وصل متأخراً عنا أربعة أيام. ولم يصل معنا غير وفد جدة، الذي كنا نلتقي به في فترات من الطريق حتى اتفق لنا اللقاء به في السيل الكبير، ثم في مكة أيضاً، وكان من أعضائه الشيخ محمد حسين نصيف، وأحمد بك باناجه، حيث تخلف الحاج يوسف زينل في الروضة وقصد منها إلى الظهران والإحساء[١٥٤] والبحرين.

ختام الرحلة - الربيع في الحجاز

قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب: إن من الأسباب والعوامل في تكوين الرحلة وجود الربيع في نجد في ربيع هذا العام، بحالة جيدة من الخير والرخاء اللذين ترتبا على فضل الله بالغيث العميم، وجوده بالمطر الغزير، حتى استحالت الصحراء بنعمة الله إلى جنات زاهرة ورياض أنيقة مشرقة، وخصوبة معشوشبة ناضرة، وقلنا: إن الله أراد بالمملكة كلها خيراً، وأن يكون ختام الرحلة مثل بدئها، مقروناً باليمن والخصب والخير الوفير، فكانت ختاماً رضياً بهيجاً، وذلك بإرساله الغيث إلى الحجاز، وإلى جميع أنحاء المملكة بحالة نادرة قليلة المثال، ترتب عليها الخصب العام لجميع أجزاء المملكة، وبذلك كان

---

(١٥٣) المقصود (عشيرة) المنهل المعروف في عالية نجد.

(١٥٤) الصواب (الأحساء) جمع (حسي) ومن المؤسف أن هذا الخطأ سرعان ما انتشر في كثير من المؤلفات (الدخيل).

البدء مثل الختام، خير في الأول وخير في الآخر، وفيما يلي نذكر كيف كان الربيع في الحجاز.

قلنا: إن دخولنا مكة كان مقرراً في برنامج سفرنا أن يكون -على الأرجح- في يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول، وقلنا: إن الأمطار التي هطلت علينا في الطريق احتجزتنا في "المويه" مدة ٤٨ ساعة حتى سكنت الأمطار وجفت سبخة الأرض التي حول ذلك المكان. وفي الأقوال المأثورة "لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع" فقد كانت نفوسنا تلح علينا في السفر بغية الوصول إلى مكة في ذلك اليوم، حتى أراد الله أن نحتجز في المويه إلى اليوم التالي- الخميس- حيث بلغنا مكة في مسائه، فهل يعلم القارئ كيف رأينا مكة حين بلغناها، وهل يعلم مقدار فضل الله علينا ونعمته في تأخير وصولنا إلى مكة مدة الثماني والأربعين ساعة التي تأخرناها مكرهين في محطة المويه؟!

أجل، لقد كان من أكبر نعم الله علينا وبره بنا أن أرغمنا على مخالفة هوى نفوسنا في الوصول إلى مكة في اليوم السابق، وأن أبقانا برغمنا في محطة المويه إلى اليوم التالي، فقد كانت مكة في ذلك اليوم الذي كنا نطمح بوصولنا إليها، غارقة بين أمطار السماء التي فتحت ميازيبها، وأمواج البحيرات التي تدفقت بها بحالة لم تعهدها ولم تعرفها منذ عشرات السنين، بحيث كان الدخول إليها متعذراً، فكانت حكمة الله فيما اختاره لنا من الأمر الواقع، وذلك لما أحدثته من أضرار في الطرق، كانت الأخطار في ارتيادها محققة مكفولة!

فقد صحا الناس من نومهم بمكة في الفجر من يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول على صوت الغيث وهو يهطل رذاذاً من السماء، ثم أخذ ينهمر قليلاً قليلاً، ثم كف بعض الشيء، إلى قبل شروق الشمس حيث تبلدت السماء بغيوم داكنة ممطرة، شحنت أطرافها بطبقات كثيفة من تلك الغيوم القاتمة المنذرة، وكانت السماء في حالتها وفي معناها، أشبه بمظاهر القرب السوداء التي انتفخت أوداجها من شدة ما تحمل بين جلودها من المياه الحبيسة المتدافعة، أو كأنها فوهات الأنابيب المتدفقة، التي تندفع منها المياه مجنونة صاخبة ثائرة، أو كأن كل قطرة من قطراتها تفتحت عن ميزاب من الميازيب، أو عن بئر من الآبار. وأخذ المطر ينهمر على تلك الصورة الرائعة من اعتدال النهار إلى أصيله، وقد

أحصيت المدة التي انهمرت فيها الأمطار فكانت تسع ساعات سوية إلى أن خفت سورتها، وهبطت حدتها واعتدلت حالتها، وخفت وطأة شدتها!

فهل يعرف القارىء، عم تكشفت تلك الأمطار الغزيرة التي تقدم بعض وصفها في إيجاز مخل لا يمكن أن يصل إلى حقيقة التعبير عنها بحال من الأحوال؟!!

لقد تكشفت تلك الأمطار عن حوادث لا تحصى من الخير والشر، وإن كان جانب الخير فيها هو المطلق الأعم، ولقد تكشفت عن معلومات واسعة بما لحقت الناس من الخيرات والأضرار، وكان فيها إلى جانب تلك الحوادث جوانب أخرى للعظة والتنادر، وجوانب للجد والفكاهة، أظنها ستكون حديث الجيل بأسره، ولا أبالغ فأقول: إنها حديث الدهر، فقد طغت على الدهر حوادث الحرب وويلاتها بما ينسي كل شيء؟!!

١) أما جانب الخير فيها، فهو ما ترتب على هذا الغيث من الخير للبادية بصفة خاصة، ثم للمجموع بصفة عامة، حيث انتفع الناس بما أنتجته الحقول من ثمار وبما انتفعت به من النمو والازدهار وخصوبة المرعى.

٢) وأما جانب الشر فيها، فهو ماحدث من الأضرار المادية الفردية التي أصابت بعض الناس، وهي أضرار وإن كانت فادحة بعض الشيء، ولكنها لا تكاد تذكر بجانب ما أفاضت من الخير.

٣) وأما جانب العظة والاعتبار، فقد ترجم عنه حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل في حديث من أحاديث مجلسه العامر الحفيل، فقد قال: إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعظ عباده وينذرهم في هذه البلاد المقدسة التي رفلت في بحبوحة الأمن من الخوف والجوع، لتقابل نعمته بحقها من الشكر فتفضل سبحانه وتعالى، فجعل إنذارهم عن طريق رحمته، ووعظهم عن طريق بره، فأراد أن يريهم الشر من طريق الخير، وأن ينذرهم من حيث يبشرهم، فأرسل الغيث فيه رحمة، وفيه نذير فانتفع به الأعم، وأصاب به الأخص، ليتنبه الناس إلى دينهم ودنياهم، وفي ذلك أسمى معاني الرحمة من الله في الإنذار والتحذير.

٤) وأما جانب الفكاهة والتنادر فينحصر في بعض حوادث فردية ترتبت على وقوع السيل ومفاجأته للناس ومداهمته لبعض شؤونهم وهم في غفلة عنه، ومن الأمثلة على ذلك منظر سيارة جرفها السيل بسائقها فكانت كالزورق العاطل حين تتقاذفه الأمواج، أو منظر بعض الأمتعة التي جرفها السيل فكانت تتقاذفها أمواجه على مرأى من الناس، ومنها صناديق حديدية، وأمتعة أخرى وأواني منزلية وحاجات إلى جانب ما يماثل هذه الحوادث من المظاهر، مما سيأتي ذكره في محله.

ظل المطر ينهمر كأفواه القرب على مكة وضواحيها طوال تلك المدة من الساعات التسع في يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول، وقد شمل مكة من أقصاها إلى أدناها وانحدرت حباته على رؤوس الجبال بأصوات مدوية، ونبرات متدافعة، ثم اندفعت إلى السفوح فالسهول حيث تحولت إلى سيول في كل مجرى من مجاري الماء، ومن ثم تكون السيل الرئيسي العظيم الذي يخترق وادي إبراهيم، ولما كانت ضواحي مكة قد أمطرت أيضاً مسافات بعيدة شاسعة في البادية، فقد انحدرت مياه الأمطار من رؤوس الجبال، وتكونت منها سيول عظيمة متدفقة اندفعت كلها إلى مكة وزودت سيل وادي إبراهيم بما لم يكن معه حاجة إلى زيادة لمستزيد! فجعلته شبه بحيرة عظيمة تتلاطم فيها الأمواج الصخابة المرغية المزبدة وأخذت مياه تلك البحيرة الهائجة المائجة، تهاجم كل من اعترضها في طريقها، أو كان على حوافيها وضفافها من إنسان أو حيوان، أو بناء أو متاع! ومن لم يعترض طريقها لم تضن عليه بلفتة من لفتات مياهها تجذبه بها أو تقصيه عنها!!

فهناك كثير من البيوت التي هي على ضفاف سيل وادي إبراهيم أو غيره من مسالك السيل هاجمها الماء، أو على الأقل هاجم مبانيها السفلى فاغترف مافيها من الأمتعة وجرفها فكان منظر تلك الأمتعة وهي تتراقص على نغمات المطر، وتتدافع على حركات الأمواج ، من المناظر التي تبعث على الضحك والرثاء في آن، وكثير من الحوانيت وهي معرضة لسهولة تناولها على الأمواج، هوجمت من السيول وانجرف مافي باطنها من الأمتعة والأواني والأدوات، حتى إن صندوقاً من الصناديق الحديدية التي يستعملها الصيارف لحفظ نقودهم، لم يستطع ثقله وثقل ما فيه من فضة وذهب أن يستعصى على تيار المياه التي جرفته إلى مسافة عشرات من الأميال، ثم حطمته شر تحطيم.

وكثير من البيوت التي كانت بمنأى عن مسيل الوادي، وبمرتفع من المسايل عامة، لم تسلم من أذى الأمطار، وانهيار قواتها فأصيبت الضعيفة الواهية، بنصيب ضعفها من الأضرار، ولذلك فقد كانت الخسائر المادية المترتبة على هذا الحادث فادحة إلى حد ما، ولكنها خسائر لا تذكر إذا قسناها إلى جانب الفائدة العامة التي عادت على البلاد والعباد من هذه الرحمة الإلهية الكريمة.

أما الخسائر في الأنفس فلم تقع إلا في غرق ثلاثة أشخاص، منهم رجل زنجي دهمه السيل في ناحية من نواحيه الغزيرة، واثنان غرقا بعد بضعة أيام بينما كانا يستحمان في أحد المستنقعات العميقة التي تخلفت عن ذلك السيل العظيم.

وهاك بعض خسائر طفيفة أصابت عدداً من المواشي في بعض جهات العاصمة وفي بعض جهات البادية، لم يتأثر بها أصحابها، كما أصابت بعض المزارع والحقول بتلف بسيط لم يؤثر في موسم الزراعة لخلو أكثر الأرض منها.

وهذا المطر الغزير الذي تقدم وصفه في العاصمة، هو جزء من كثير مما غمر البادية[١٥٥]، ولم يقع فيها مطلقاً أي خسارة في الأرواح وإن كان قد وقع بعض الخسارة في المواشي دون الآدميين. وقد تحدث إلينا بعض الذين قدموا من البادية يومذاك عن الأمطار في ديارهم، فقالوا: إنها أمطار عامة غمرت بلادهم بمياهها المتدفقة من السماء، كما غمرتها بالسيول الجارفة التي ارتفعت في بعض المضايق إلى علو عشرات الأمتار فسدت ما بين جبلين في كثير منها!!

والأمطار وإن كان ينتج عنها أحياناً بعض الضرر في المدن العامرة بالسكان والبنيان، ولكنها لا تكون كذلك في البادية، بل هي للبادية حياة وانتعاش لما يترتب عليها من

---

[١٥٥] نسمع في بعض بلاد الأنهر الزراعية الخصبة عبارات غاية في الغرابة، تثير العجب وتبعث الضحك في القلب الحزين، فقد هطلت أمطار في إحداها، وسمعنا من يقول لزميله: إن الناس لا يرعوون عن غيهم ولا يعتبرون بالمطر، ولا يتعظون منه، فكأن المطر نكبة من النكبات التي يصيبها الله على عباده! بينما نراها نحن رحمة ورخاء.

الري والزراعة والسقيا والرخاء، وما يعود نفعه بعد على المدن في جميع الحواضر من الرخاء العام، والانتفاع بمباهج البادية، وثمرات غرسها، ونتاج مواشيها.

فلذلك كان خير هذه الأمطار للبلاد عميماً وفيراً. وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون خيره على البلاد عميماً وفيراً، فكان هذا المطر عاماً شاملاً غمر البلاد كلها، بعد أن تقدمه ربيع نجد بالأمطار التي عمت ذلك الجانب من المملكة، وبذلك تم الرخاء كله للبلاد من أقصاها إلى أقصاها، وتلك هي معجزة الله سبحانه وتعالى في شموله هذه البلاد المقدسة بما فيها المملكة كلها بنعمتي الأمن من الخوف والأمن من الجوع.

وقد تقدم الكلام عن وصف سيل وادي إبراهيم الذي يشق مكة من أولها إلى آخرها، ومن خصائص هذا السيل أنه يمر على طائفة من أبواب المسجد الحرام التي هي في طريقه كانت تلك الأبواب هي السبيل إلى دخوله المسجد، وقد تكون السيل في أثناء انهمار المطر التي ظلت تهطل ساعات كثيرة من النهار، وكان مروره أمام أبواب المسجد غزيراً فتدفق منها إلى داخل المسجد، فكانت تلك الأبواب وهي تصب الماء في المسجد أشبه بميازيب البحيرات، أو فتحات الخزانات، أو هي بحيرات صغيرة تندفع بحيرة من كل باب، أو كأن كل باب بحيرة، فإن شئت قل: إن كل باب بحيرة أو كل بحيرة باب. ومن هذه الميازيب الهائلة تدفقت المياه إلى المسجد الحرام، وما أدراك ما المسجد الحرام؟!

فالمسجد الحرام وهو أكبر مسجد وتبلغ مساحته الألوف من الأمتارغمرته المياه وطغت فيه وطغت على أرضه وحصبائه، فكيف يكون إذاً؟![١٥٦] لقد كان بحيرة عظيمة صخابة الأمواج ارتفعت فيها المياه إلى علو مترين أي إلى باب الكعبة ولا تسل عن المصلين والعاكفين من العباد، وكيف انتهى بهم الحال؟ ولكن أظرف مناظر هذا السيل على

---

(١٥٦) لقد اتخذ معالي وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان بناء على توجيه من جلالة الملك عبدالعزيز، عقب حادث هذا السيل طريقة عاجلة لوقاية المسجد الحرام من أخطار السيول، وذلك بأن تم عمل حواجز حديدية خارجية تركب خارج فتحات كل باب من أبواب المسجد عند حدوث الأمطار، ومن خصائص هذه الحواجز أن ترد الماء المندفع من الخارج، وتحول بينه وبين اقتحام الأبواب، وقد نجح فعلا في أداء مهمته وكلما أنذر الجو بمطر بادر خدم المسجد وحراسه إلى تركيب هذه الحواجز، ورفعها بعد انتهاء خطر السيول.

الإطلاق، هو أن سبح الناس الذين كانوا في المسجد على وجه ذلك البحر فمنهم من قصد النجاة عن طريق الأبواب للخروج من مأزق الغرق، ومنهم من اتجه شطر الكعبة للطوا ف حولها سابحاً ، ومنهم فريق ثالث التجأ إلى الله فإذا هناك دكاك خشبية أعدت قواعد لشرب ماء زمزم طاف بها السيل وعامت عليها، فالتجأوا إليها وركبوها وسيروها بأرجلهم فكانت كالزوارق طافوا بها حول الكعبة طوافاً منظماً حتى إذا ما انتهوا منها تركوها بعد أن أوصلتهم إلى ساحل النجاة، ساحل النجاة من المعاصي بالطواف حول البيت، وساحل النجاة من الغرق بالالتجاء إلى الأبواب والخروج منها إلى اليابسة، وكان هذا أروع ما في مناظر السيل من الطرافة وتأصل العبادة والتقوى في النفوس، وأروع ما استرعى الانتباه ولفت الأنظار(١٥٧).

وبالجملة فقد كانت هذه الأمطار شاملة لجميع البلاد، وامتدت إلى جنوب المملكة فغمرت المدن والحواضر، وفي مقدمتها مكة وجدة والمدينة وما بينهما من أبعاد شاسعة، وما بينهما من بادية متعطشة إلى السقيا، وأودية متعطشة إلى الري ومواشي تنتظر المرعى الخصب!!، ولقد كان النصيب الأوفر منها للعاصمة -مكة- حيث غمرتها مياه الأمطار، ومياه السيول على النحو الذي تقدم وصفه!!، فكيف كانت حالة الإنقاذ في العاصمة؟!!

ولقد بدئت حلة الإنقاذ منذ استهل ا لخطر، وقد استهل الخطر بهطول المطر وهلول السيول، فكانت أعمال المكافحة متكافئة في ابتدارها وسرعتها وقوتها بالبداهة العاجلة المتكافئة مع سرعة الحادث وقوته وخطورته، حتى تمت الوقاية من الأخطار بإذن الله، وأعيد تنظيف المسجد وتطهيره في ساعات قليلة لا تتجاوز عدد الساعات التي نجم

---

(١٥٧) على أثر هذا السيل تدفقت أريحية حضرة صاحب الجلالة بمشروع عظيم لوقاية مكة والمسجد الحرام من أخطار السيول المتدفقة فأمر بإنشاء سد في أعلى مكة بالطريقة الفنية الهندسية وخصص له أكثر من مليون ريال، وتضافرت جهود المخلصين من رجال المملكة على سرعة إقامته للانتفاع بفوائده، وأقيم احتفال كبير لوضع الحجر الأساسي فيه بيد سمو الأمير فيصل شهده ألوف من الأهلين فكان احتفالاً مهيباً رائعاً يتناسب مع أهمية موضوعه أنشدت فيه الخطب والقصائد وقد وضعت فيه رسالة جمعت كل ما قيل في هذا الحفل تخليداً لذكرى هذا العمل المهم في حياة هاتيك المملكة، كما بذل الشيخ عباس قطان أمين العاصمة في ذلك الوقت همة كبرى وسهراً متواصلاً وجهداً عظيماً في هذا العمل.

عنها ذلك الحادث الخطير المستطير، إذ خف إلى العمل السريع جميع رجال الدولة وفي مقدمتهم معاون نائب جلالة الملك الشيخ عبدالله الفضل، ووكيل وزارة المالية الشيخ حمد السليمان، ومدير الأمن العام مهدي بك المصلح، ومدير عام وزارة المالية الشيخ محمد سرور الصبان، حيث قصدوا إلى مكتب مدير الأمن العام مهدي بك في دار الحكومة، وقام كل منهم بنصيبه من الواجب المشترك في تلك الحالة الرهيبة العاجلة، وكان مهدي بك مدير الأمن العام يبذل من ذات نفسه مجهوداً مشكوراً في هذا الصدد جعل له اليد الطولى في هذا العمل الجليل.

وتضافرت الجهود الموفقة والهمم المبذولة في مكافحة السيل وتصريفه من المسجد الحرام بهمة عاجلة متواصلة ابتغاء رضاء الله تعالى وقياماً بالواجب حتى لا تتعطل الصلاة في المسجد، بحيث لم يمض الشطر الأكبر من سواد تلك الليلة حتى تم تطهير صحن الكعبة من أكوام الرمال وتصريف تلك المياه الغزيرة حتى استطاع الناس أداء فريضة الصبح في وقتها بصحن الكعبة وفي الأجزاء التي تم تطهيرها من المسجد.

وقد أمر سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية بتقديم عدد وفير من السيارات الكبيرة نقلت عليها جبال الأتربة التي تركها السيل في الحرم طيلة الثلاثة أيام[١٥٨] التي تلت هطول ذلك المطر وما تبعه من السيول، وظل سعادته يشرف بنفسه على عملية الإنقاذ والتطهير مدة ساعات عديدة من ذلك الليل الأليل[١٥٩].

---

(١٥٨) الأفصح (ثلاثة الأيام) (الدخيل).

(١٥٩) سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية شخصية عاملة عرف بالجد والمثابرة على العمل، وقد زار مصر في العام الماضي وأقيم لسعادته حفلة تكريم في "دار قريش" وهي منزل الوجيه الكبير إبراهيم بك شاكر بحدائق القبة أنشد فيها كاتب هذه السطور الأبيات التالية:

روض بإنداء الأحبةِ عاطرُ ... كالزهر غب المزن، زاه زاهرُ

الشمل مجتمع به، بمعاشر ... غره الوجوه، من الرجال عباقر

"حمد" تصدره، وحسبك أنه ... من تعلمون، صنائع ومآثر

في حفلة هزجت لها أنفاسنا ... ورنت إليها أنفس ومحاجر

وهناك مروءة جديرة بالذكر، وجديرة أن يسجلها التاريخ، فهي ناصعة لمروءة الأهلين من كافة الطبقات[١٦٠]، وغرة مشرفة في جبين النجدة الإنسانية لا يمكن إغفالها. فقد وجه النفير إلى الأهلين من أبناء المحلات والاستنجاد بهم وبمروءتهم وشهامتهم للمساهمة في ذلك العمل الخطير السريع الذي يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة وإلى سرعة الإنجاز في أقرب وقت، وقد لقي النفير الأذن الصاغية، ولبت همم المروءة في القلوب والصدور، فخف مئات الأشخاص من شباب المحلات عن طيبة خاطر، وبادرت كل من أمانة العاصمة ومديرية الأوقاف العامة بأدوات الإنقاذ والتطهير من زنابيل ومساح وما إلى ذلك، وفي ساعات قليلة كان مئات من الأهلين يعملون ليل نهار في تطهير المسجد الحرام حتى انتهى تطهيره تماماً في مدة لا تتجاوز اليومين بحيث لم يتعطل فيه ولا وقت واحد من أوقات الصلوات الخمس، ومن ثم انصرفت الهمم إلى تطهير الشوارع الرئيسية الملتفة حول المسجد من هضبات الرمال والأوحال التي خلفها السيل وظلوا يعملون في ذلك بضعة أيام وبضعة ليالٍ حتى تم تطهير العاصمة من آثار ذلك السيل التاريخي الخطير.

وفي الحق، أن ذلك العمل وما فيه من سداد الرأي وسلامة التفكير في الاستنجاد بمروءة الأهلين، كان عملاً جليلاً جديراً بالتسجيل، لأنه أظهر سجية الشهامة وطبيعة النجدة والمروءة، الكامنتين في نفوس أبناء هذه الأمة، علاوة على ما أدى إليه من أطيب النتائج من إنقاذ العاصمة والمسجد الحرام -بإذن الله- من خطر داهم خطير فادح الضرر بعيد الأثر، وان لذلك كله في نفوس الشعب العربي السعودي أحسن الوقع وأنبل التقدير!!

رقصت بهجتها وبهجة ربها	بين الضلوع جوانح وخواطر
هو "شاكر" بصنيعه، وأنا الذي	باسم الأحبة فيه أيضاً "شاكر"

(١٦٠) الصواب (الطبقات كافة) تأسياً بما ورد في القرآن الكريم (الدخيل).

بين يدي صاحب الجلالة

وهذه الكلمات والقصائد التي ألقيت بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في مخيامه العالي بروضة الخفس.

كلمة فضيلة الشيخ عبدالله الشيبي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم.

مولاي: أرجو أن يسمح جلالتكم بهذه الكلمة المتواضعة الوجيزة عني وعن إخواني الوافدين الماثلين بين يدي جلالتكم فنالوا شرف الوفادة الأسمى من بلد الله الحرام إلى قصركم العامر، بهذا البلد الطيب، مجدد عهد السلف الصالح في عهد الملك الصالح، لنعرب عما تكنه قلوب أبناء الشعب على اختلاف طبقاته من الحب والإخلاص والولاء لعرش جلالتكم المفدى بالمهج والأرواح، وتلهج ألسنة جيران البيت الحرام بالدعوات الصالحات، وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بدوام بقاء جلالتكم فخراً للعرب والمسلمين.

مولاي: إن هذا الوفد الذي تشرف بالمثول بين يدي جلالتكم هذه البقاع الكريمة، يسره أن ينقل إلى جلالتكم حقيقة وإن كانت معروفة للخاص والعام إلا أنه لمس في مظهرها من فيض الشعور ماحمله على الإعراب عنها وترجمتها في هذا المقام العالي.

مولاي: إن الأمة كتلة واحدة تمثل شعور رجل واحد في الشوق إلى اجتلاء طلعتكم الباهرة المحبوبة، وكان هذا الشعور بمجموعه يتمنى لو أتيح له أن يكون بذاته ماثلا أمام جلالتكم، وذلك أقل ما يمكن أن يكون معبراً عن حقيقة شعوره في هذه المناسبة السعيدة.

فأما وأن ذلك ليس في المستطاع، فقد شعرنا ونحن نتلقى تحايا المودعين المرفوعة إلى مقام جلالتكم، أن قلوبهم التي في صدورهم تتهادى إلينا بخفقاتها، وتتصل بنبضات قلوبنا فإذا بنا نحمل رسالة من قلب أمة إلى قلب مليك، ونتهادى بخفقات ولاء شعب مخلص، إلى

عطف والد شفوق فها نحن نحاول أن ننهض بأداء هذا الواجب الخطير، وهو واجب لا يمكن أداؤه إلا إذا توج من لدن جلالتكم بجميل العطف وحسن القبول.

مولاي: إننا مع عجزنا عن دقة التعبير في تصوير حقيقة ما لمسناه من شعور الأمة في هذه المناسبة السعيدة، فإننا نستنير بما أودعه الله في قلب جلالتكم من نور الإيمان ونتخذ منه نبراساً نستهدي به إلى حسن الأداء فنقول في إيجاز جامع: إن الأمة بأجمعها تشعر بشعور واحد، هو أنها تدين لله سبحانه وتعالى بالتوحيد والعبادة وتدين لجلالتكم بالولاء والإخلاص وأن الأمة التي تشعر هذا الشعور نحو ذات جلالتكم، يسرها أن تسجل شعورها أيضاً نحو هذا الجزء من وطنها العربي الكريم، وهو الجزء الذي أنجب للإسلام والعروبة أسرة آل سعود الكريمة، وعلى رأسها جلالتكم فكتب لها على أيديكم النهوض والتقدم في عصركم الزاهر، فإذا بها تضارع غيرها من الأمم الأخرى في مدارج الفلاح.

ونسأل الله تعالى أن يمد في حياة جلالتكم حياة طيبة يعز بها الإسلام والمسلمين ويعلي بها شأن العرب والعروبة، وعلى الأخص رعاياكم جيران بيت الله الحرام وجميع سكان هذه المملكة وأن يبقي حضرات أصحاب السمو الملكي أنجال جلالتكم الأمراء الغر الميامين محروسين بعناية الله تعالى ورعايته تحت ظل جلالتكم.

قصيدة الأستاذ السيد عبيد مدني شاعر المدينة وعضو مجلس الشورى:

بدت (المعالم) من شفير الوادي	فاستوفز (الركب) الشعاع البادي
حيث الجلالة في أجل صفاتها	موصولة الإسناد بالإسناد
حيث الحمية والبطولة والقوى	محفوفة بكماتها الآساد
حيث التقى والدين في أوجيهما	ومناهل التقويم والإرشاد
حيث العروبة مشمخر مجدها	في طارف من عزها وتلاد
حيث الفصاحة في روائع سبكها	متصور فيها جمال الضاد

حيث السماحة والطلاقة والندى ... ومراتع الأزوار والرواد

بل حيث (عاهل يعرب) وإمامها ... ورئيسها في الأمن والإرعاد

(عبدالعزيز) ومن إذا ذكر اسمه ... قام الجميع له ودوّى النادي

(ملك) يرى فيه الملوك صحيفة ... يستلهمون بها الصواب الهادي

يترسمون خطاه في أحكامهم ... فتكون مصدر حكمة ورشاد

قبس يشع الهدى من جنباته ... فيشيع نور الحق للآباد

❖❖❖

مولاي أنا (وفد) من خلفتهم ... يشكون شجو تشوق وبعاد

أنهلتهم بالقرب منك هنيهة ... والآن كلهم ببعدك صاد

ودوا لو اسطاعوا المثول جميعهم ... ليسكّنوا بك لوعة الأكباد

ماكنت فيهم غير أحنى والد ... حدب وكانوا خيرة الأولاد

وملأت بالإكبار كل نفوسهم ... وعمرت بالإخلاص كل فؤاد

والعرش ما ترسو قواعده على ... أسس الجوانح لا على الأعواد

❖❖❖

لولا تصبرهم بطلعة (فيصل) ... نفدت جلادتهم وأي نفاد

هو مثل ما أملته وعهدته ... من رأفة وعدالة وسداد

❖❖❖

إنا نبثك ما تكن صدورهم ... من صدق تضحية وعمق وداد

هــذي رســالة أمــة أنشــأتها ... فتظللــت بلوائــك المتــهادي

علمتــها معنــى الحيــاة فحطمــت ... بقــواك كــل عوائــق الأصفــاد

علقــت بعرشــك والأمــاني جمــة ... فاسترســلت لطماحــها المتمــادي

❖❖❖

مــولاي قــد هــز الشــعوب ودكــها ... هــول ألم ففــت فــي الأعضــاد

فتكت بها الحرب الضروس وزلزلت ... أركانــها وأتــت علــى الأطــواد

صــرع الرجــال وغــادروا أعراضــهم ... يلجــأن للأغــوار والأنجــاد

وتشــرد الأطفــال فــي أنحائــها ... يتســكعون علــى طــوى وقتــاد

أمــا بــلادك فــهي ترفــل غبطــة ... فــي الأمــن والنعمــاء والإســعاد

أمـا بـلادك فـهي - فـي اسـتقرارها ... بالرايــة الخضــراء - خــير بــلاد

جنبتــها الأحــداث حتــى أصبحــت ... رمــز الهــدوء وصــورة الإخــلاد

لم تقتنــع إن صنتــها ورعيتــها ... وحكمتــها فــي منعــة وحيــاد

حتــى أفضــت لهــا الهنــاءة شــاملاً ... العطــف كــل ثنيــة ومــهاد

ووســعتها بالصالحــات وبــالحجى ... وحبوتــها بــالأمن والإرفــاد

هــذا ســبيل الملــك إلا أنــه ... وعــر لغــيرك - بــالغ الأبعــاد

هـل كـل مـن قـاد الشـعوب محقـق ... مــا نشــرئب لــه مــن الأمجــاد

❖❖❖

لا أســأل الله الكريــم لأمــتي ... إلا بقــاءك فــهو خــير مــراد

قصيدة المؤلف

مولاي خذ صدق الولاء ... رمز المحبة والوفاء

من أمة قد أخلصت ... لك في العلان وفي الخفاء

قد أعلنت بلسان شاعرها ... أهازيج الثناء

وتمثلت في وفدها ... لمقام عرشك بالولاء

فكأنها بلقائه ... إياك فازت باللقاء

كانت تود لو أنها ... تجتاز أجواز الفضاء

شوقا لرؤيتك التي ... تسمو فتبهج كل راء

حتى تؤدي بعض ما ... في نفسها حق الأداء

فاقبل فداء قلوبها ... فيما تكن من الفداء

واقبل تحيتها على ... مافي البعاد من التنائي

واقبل تحيتها تكن ... أعطيتها منح الهناء

مولاي كم لك من يد ... في الحادثات بلا مراء

جاءت كصبح العيد أو ... جاءت كمنهلّ السماء

فكأنها وضح السناء ... يلوح في وضح الضياء

كم منة لك أينعت ... أو كم يد لك في رواء

واست بجدواها الفقير ... فراح يلهج بالدعاء

وتواترت بالخير في ... صبح عليه وفي مساء

فإذا العناء يزول عنه ... وليس ثمة من عناء

عمـــت فأبنـــاء الحواضـــر مثـــل أبنـــاء العـــراء
نـــالوا جـــداك جميعـــهم فـــهموا علـــى حـــد ســـواء
فجـــزاك ربـــك عنـــهم بصنيعـــه خـــير الجـــزاء

❖❖❖

مـــولاي تلـــك تحيـــة جـــاءت تميـــس مـــن الحيـــاء
جـــاءت لنجـــد رســـالة مـــن بطـــن مكـــة بالإخـــاء
فـــهناك أبنـــاء العمومـــة فـــي المـــودة والرجـــاء
وهنـــاك شـــعب شـــيق يزجـــى أفـــانين الثنـــاء
مزجـــت ســـريرته معـــاني الـــود فـــي معنـــى الصفـــاء
مـــن كـــل قلـــب فـــي مـــودْ دَتـــه يشـــع مـــن الســـناء
أوكـــل روح فـــاض جـــد ولهـــا بينبـــوع الـــرواء
جـــادت تحيتـــه بـــألوان المـــودة والبـــهاء
كـــالروض فـــاح عبـــيره متضوعـــاً عـــبر الفضـــاء

❖❖❖

يـــا باعثـــاً عصـــر النبـــوة فـــي العدالـــة والإخـــاء
ومؤيـــداً ســـنن الشـــريعة فـــي العيـــان وفـــي الخفـــاء
الله أمـــن بيتـــه بـــك فـــهو محمـــي اللـــواء
وأعـــاد عـــهد الراشـــدين بمـــا لعـــهدك مـــن بـــهاء
فليبـــق عرشـــك للعروبـــة رمـــز مجـــد واعتـــلاء

وليبـــــق ملكـــــك خـــــالداً	فـــي العـــرب مرفـــوع البنـــاء
وليبـــــق أشـــــبال العريـــــن	بنـــوك فـــي رغـــد الهنـــاء
فـــــيهم ســـــعود المشـــــرقين	وفـــيصل الحـــق المضـــاء
متفـــــــيئين ظـــــــلال	عرشــك فـــي الأبـــوة والرضـــاء

كلمة وفد مكة بعد عودته

وبعد عودة الوفد إلى مكة نشر في صحف العاصمة الكلمة الآتية:

نحمد الله ونثني عليه، ونصلي ونسلم على سيد خلقه أجمعين. إن من أعظم ما نغبط أنفسنا عليه، وما تغبط عليه الأمة، هو ما نالته وفودها الممثلة لها من مجد باذخ وشرف أثيل بحظوة المثول بين يدي حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أيده الله، وما حظيت به من عطف جلالته وإكرامه ورعايته، وهو شرف موجه إلى الأمة بذاتها علاوة على ما وجهه إليها جلالته من الإعراب من عطفه وحنانه.

لقد تفضل جلالته حفظه الله فطوق أعناق هذه الأمة بمنة جديدة مضافة إلى سابق مننه التي لا تحصى، وذلك بما أسبغه على وفودها من الإكرام والعطف وجميل الرعاية، ولقد قابل الجميع هذه المنة الجديدة بالشكر الجزيل لمقامه العالي والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يطيل في عمر جلالته، وأن يمتعه بنعمة العافية ودوام الصحة والهناء[١٦١].

أيها الإخوان: إنا نزف لحضراتكم قليلا من كثير مما تفضل به جلالته من تصريحات قيمة عن نواياه الكريمة الموفقة نحو شعبه المتفاني في الإخلاص والولاء، وعن عطفه

---

(١٦١) فاتنا أن نذكر في الكلام عن الرياض، أن في الرياض مؤسسة كاملة للأشعة للكشف والعلاج تسمى "دار الأشعة" كان صاحب الجلالة أمر بتأسيسها فنهض الدكتور محمد بك الخاشقجي بعبء هذا العمل الجليل بعد أن تخصص في هذا الفن في باريس مدة ثلاث سنوات بأمر صاحب الجلالة، وهي في آلاتها وأدواتها كمؤسسة الأشعة بمكة التي يديرها في الوقت الحاضر مفتش الصحة العام الدكتور محمد بك الخاشقجي.

السامي المتواصل، وأياديه البيضاء المتصلة ودوام إحسانه على هذه الأمة، مما أطلق الألسنة بمزيد الثناء وجليل الدعاء، أدام الله جلالته وخلد ملكه ونفع به الإسلام والمسلمين، آمين.

تقرير فني عن مشروع الزراعة في الخرج

وهو خلاصة ما كتبته البعثة العراقية التي استقدمتها الحكومة في عام ١٣٥٤هـ ١٩٣٧م. عن مشروع الزراعة والري في هذه المنطقة.[١٦٢]

مقاطعة الخرج: إن مقاطعة الخرج من أشهر إيالات نجد تقع في الجنوب الشرقي من مقاطعة العارض في وادي حنيفة يتوسطها ملقى خطي ٢٤° من العرض الشمالي و٤٧° من الطول الشرقي، ويبلغ طول المنطقة المكونة منها من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠ ميلاً ومن الغرب إلى الشرق نحو ٥٠ ميلاً وأما بعدها من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية فالمسافة بين حدها الشمالي والرياض تبلغ حوالي الـ ٧٥ كيلو متراً.

أشهر بلدان الخرج الدلم وهي المدينة الرئيسية للمقاطعة، وأراضيها خصبة وعامرة بنخيلها وزراعة الحبوب تسقى من آبارعمقها يتراوح بين الـ ٣٥ والـ ٥٠ قدماً ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس يشتغلون بالزراعة.

وهناك بلدان آخرى صغيرة يختلف عدد سكانها بنسبة كميات المياه ومساحات الأراضي الصالحة للزرع وسعة بساتين النخيل فيها وأهم ما يجدر ذكره من هذه القرى هو السلمية، ونعجان، والمناصف[١٦٣]، والضبعية، والبدع، وفرزان.. الخ.

وما هذه البلدان والقرى إلا سلسلة واحات منفصلة عن بعضها البعض فيها بساتين النخيل والأشجار، ويقوم سكانها بزراعة ما يجاور هذه البساتين من الأراضي الصالحة للزراعة على قدر ما تسمح به كميات مياه الآبار والقابلية المالية لاستثمارها بواسطة الآلات الزراعية الرافعة والحيوانات.

---

(١٦٢) في هذه الخلاصة أسماء كثيرة محرفة، وقد تكن منقولة عن أصل غير عربي (الجاسر).

(١٦٣) صوابها (المنصف) و (المنيصف) ، وهما قريتان معروفتان في الخرج (الجاسر).

وفي بعض الأماكن تعلو المياه سطح الأرض، وهناك تتكون السواقي السيحية فتروى القليل من أراضي المزارع والنخيل الواقعة على بعد بضعة كيلو مترات من الينابيع ومثال ذلك الساقية التي تروي بساتين ومزارع فرزان.

منطقة الخرج ووديانها: إن من يطلع على طبوغرافية منطقة الخرج يتضح لديه أن المنطقة ما هي إلا منطقة ملتقى الأودية فتتجمع فيها السيول وتترك في أراضيها الترسبات الغرينية مما يجعل أراضيها المنبسطة الحوضية غنية في الدهلة التي تزيد في خصوبتها وقابلية استثمارها لغرض الزراعة.

أما الوديان التي قلت: إن هذه المنطقة تلاقيها فمن أهمها الوادي المعروف بوادي سير الذي ينحدر من سفوح جبل (علام)[١٦٤] الواقع على خطي ٤٤° من الطول الشرقي و٢٤° من العرض الشمالي.

يمر هذا الوادي بين نفود (قنيفذة) ونفود (داهي)[١٦٥] فيمتد شرقاً على حد جنوب جبل برك، ويسمى في هذه المنطقة بوادي برك أو شعيب البرك الذي يقع مجراه بين حد جنوب الخرج وحد شمال الأفلاج، ثم ينثنى باتجاه منطقة الخرج طولاً إلى الشمال محاذياً المناطق الجبلية تاركا جبل طويق إلى الغرب فيسمى في هذا الاتجاه شعيب عجيمي[١٦٦] وهو الشعب الذي تقع عليه سلسلة واحات الدلم.

وأما شعيب العجيمي فتصب فيه فروع عديدة وهي الفروع التي تنحدر من المنطقة الجبلية غرب الخرج، ومن أهم هذه الفروع شعيب العين وشعيب النسا [١٦٧] اللذان يصبان في شعيب عجيمي شمال الدلم وبعد ملتقى شعيب العجيمي بشعيب النسا يستمر الأول بمجراه

---

(١٦٤) لعل المقصود بهذا (وادي السرة) أما جبل (علام) فلعل المقصود (جبل العلاة) وهي (علية) و (وادي السرة) هو أعلى (وادي برك) الذي يخترق جبال العلاة (علية) (الجاسر).

(١٦٥) نفود (داهي) وهو: (نفود الضاحي) (الجاسر).

(١٦٦) شعيب عجيمي، تكرر هذا الأسم ، والصواب : (شعيب العقيمي) (الجاسر).

(١٦٧) (النسا) صوابه: (نساح) بالحاء، وهو واد مشهور (الجاسر).

منتقلاً إلى الجهة الشرقية حيث يمر ببلدة اليمامة وبمسافة بضعة كيلو مترات شرق اليمامة يلتقى مجراه بمجرى وادي حنيفة ومن ثم ينتهي مجرى الواديين بوادي السهبي[١٦٨] الكبير الذي ينحدر مجراه شرق الخرج باتجاه الخليج الفارسي فيصب في الخليج جنوب سواحل قطر.

وقال المستر فيلبيى عن وادي السهبى المذكور بأنه أحد الأنهر الكبيرة المندرسة في البلاد العربية القديمة، ويبلغ مجموع طوله ما ينيف على الخمسمائة ميل من صدره في سفوح جبل (علام) إلى مصبه في الخليج الفارسي.

وكان المستر فيلبي قد قطع هذا الوادي في رحلته إلى الربع الخالي بالقرب من رمال الجافورة في مجراه المنحدر شرقاً نحو الخليج الفارسي على بعد حوالي الـ١٢٠ ميلاً من مصبه في الخليج وقد سجل مستوى قعر مجراه في هذا الموقع بحوالي ٥١٠ أقدام فوق سطح البحر كما أنه قد قدر عرضه بمسافة ميل واحد وارتفاع ضفافه بما ينيف على العشرين قدماً.

هذا ولما كان مستوى أراضي الأودية المنبسطة بالقرب من مناصف يبلغ حوالي الـ ١٢٧٣قدماً والمسافة بين مجرى الوادي في مناصف[١٦٩] وقاع المجرى الذي سجل مستواه قرب رمال الجافورة هو حوالي الـ ٣٥٠ كيلو متراً فيصبح بذلك فرق الارتفاع للمسافة المذكورة حوالي ٧٦٣ قدماً أو ٢٣٢,٥٠ متراً مما يجعل إمكان اعتبار انحدار قعر الوادي حوالي الـ ١ - ١٥٠٠.

وادي حنيفة: ولا بد من كلمة عن وادي حنيفة الذي سبق ذكره والذي قلنا عنه: إنه يلتقي مع شعيب العجيمي[١٧٠] في منطقة الخرج: إنه لواد تاريخي مشهور يبدأ من منحدرات جبل

---

(١٦٨) هكذا رسمت الكلمة في معجم البلدان لياقوت الحموي، وفي المراجع الحديثة (السهبا) و (السهباء) (الدخيل).

(١٦٩) الصواب (المنصف) و المنيصف) كما تقدم (الجاسر).

(١٧٠) الصواب: شعيب العقيمي) كما تقدم (الجاسر).

طويق الغربية الشمالية فيشق مجراه قلب العارض، ثم يلتقي بشعيب العجيمي شمال شرق اليمامة فيكون الاثنان مع فروعهما وادي السهيمي[١٧١] الكبير المار الذكر.

حيث يمكن الوصول إليه بحفر آبار قليلة العمق فإنه يعتبر أثراً تاريخياً نظراً لأهميته من الناحية التاريخية فهو الذي تقع عليه الدرعية عاصمة نجد القديمة، والعيينة مسقط رأس محمد بن عبدالوهاب، وفيه قبور الصحابة، وديرة مسيلمة الكذاب الذي قتل في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة ١٢ للهجرة.

أراضي الخرج وزراعتها: إن كافة الظواهر تشير بصورة قاطعة إلى أن مقاطعة الخرج مقاطعة خصبة بمياهها وأراضيها بالنظر لتوفر المياه في أراضيها المنبسطة التي تمدها الوديان بالمياه الأرضية، والرواسب الغرينية في آن واحد فبين الأودية والمنحدرات توجد مناطق خصبة بمياهها وأراضيها عامرة بالسكان فتكون سلسلة من الواحات أو (الروضات) كما تسمى محليا منفصلة عن بعضها.

وفضلاً عن وجود العمران بين المنحدرات والوديان فهناك آثار تدل على أن زراعة أراضي الخرج كانت في الأزمنة الغابرة على مقياس واسع، فهذه الآبار المطمورة الكثيرة، وهذه آثار الأنهر القديمة المندرسة منها سيحية ومنها عميقة يستدل منها على وجود عمران قديم واسع.

ويظهر أن الحبوب كانت تزرع بمساحات كبيرة، إذ جاء في معجم البلدان لياقوت (بأن وادي الخرج هو خير وادٍ باليمامة[١٧٢] أرضه أرض زرع ونخل قليل)، والدارج محلياً بأن نعت هذه المنطقة بالخرج جاء بسبب ما كانت تثمره من المؤن وتخرجه إلى الحرمين.

---

(١٧١) المقصود: (وادي السهباء) وليس وادياً بالمعنى المفهوم، ولكنه منخفض من الأرض، روضة واسعة هي مجتمع لأودية كثيرة (الجاسر).

(١٧٢) اليمامة كانت قديما تطلق على منطقة واسعة وما بلد اليمامة الحالية إلا قسم صغير منها، وقد كتب المؤرخون عن اليمامة بأنها كانت أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخلاً.

وهناك دليل آخر على أن المزارع السيحية كانت واسعة في هذه المنطقة وأعني بذلك ورود تسمية الأفلاج للمنطقة التي تقع جنوب الخرج، ولا يخفى بأن كل ما يجري سيحا من عين فهو فلج، وكل جدول شق من عين على وجه الأرض فهو فلج وجمع الفلج أفلاج.

وأما أسباب اضمحلال هذه المنطقة واندراس آبارها فهو أمر بديهي لا يستوجب الاستغراب، فإذا راجعنا تاريخ العرب والحروب والشقاق بين القبائل العربية والأمراء نجد كثيراً من مثل هذه الوقائع، كطمر العيون وتدميرها نكاية وانتقاماً لكي لا يشرب أو يستفيد منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزة المحتل، ومثال ذلك ما قام به عبدالملك بن مروان الأموي حين تمرد أهل البحرين على خلفاء بني أمية إذ أمر بردم كافة عيون البحرين[١٧٣] ليقل زرعهم وأموالهم فيستولي عليهم الفقر ويخضعون، ويقال: إن خمسمائة إلى ستمائة عين كانت قد طمرت في مقاطعة الخرج، ولابد أن يكون في هذا القول شيء من الصحة رغم ما ينطوي عليه من بعض المبالغة، لأن آثار العيون لاتزال ظاهرة بما فيها آثار الأنهر والسواقي.

أراضي الخرج ومجاري مياهها:

لايوجد في بلاد نجد أنهار يصح أن يطلق عليها هذا الاسم وإنما يوجد في جهات كثيرة من البلاد ينابيع وعيون في مناطق الأودية حيث تمتص منبسطات الأراضي ومياه السيول الأمطار فتصبح هذه المناطق شبه بحيرات خفية يمكن الوصول إلى مائها بحفر آبار لأعماق مختلفة حسب اختلاف الموقع والتربة.

وأما اتجاه مجاري المياه في بلاد نجد فيصح القول بصورة عامة أن مجاري المياه الأرضية والخارجية هي تتجه نحو الشرق، وبالنظر لامتداد سلسلة جبل طويق في طول البلاد النجدية من الشمال إلى الجنوب فيصح القول: بأن المياه تنحدر من سلسلة هذا الجبل سواء

---

(١٧٣) الزعم بأن عبدالملك (أمر بردم عيون الأحساء) لا أعرف من التاريخ ما يؤيده، وما آراه صحيحاً. ومسمى البحرين في عهد عبدالملك يقصد به الساحل الشرقي للجزيرة الممتد من قرب البصرة إلى قرب بلاد عمان، وعيونه لم تردم، بل بقيت على حال من القوة حتى أدركنا الكثير منها في عصرنا (الجاسر).

كانت سيولاً أم مياهاً أرضية خفية باتجاه الشرق، فالأودية الشمالية منها تتحدر نحو الخليج الفارسي، بينما الأودية الأخرى تنتهي في رمال الدهناء أو رمال الربع الخالي جنوباً.

وعليه فإن أخصب الأراضي بالمياه والتربة هي الأراضي الواقعة على أطراف الجهة الشرقية من سلسلة جبل طويق تمتد من القصيم إلى الشمال إلى وادي الدواسر في الجنوب وفي ضمنها أراضي الخرج فنجد على أطراف السلسلة المذكورة واحات متشابهة في التشكيل قرب بلاد مجدبة رملية أو جبلية وهذه تؤلف معظم الأراضي الزراعية التي عليها مدار اعتماد أهل البلاد وزراعتهم، وأما ارتفاع أطراف المرتفعات عن سطح البقاع فقد قدرت بحوالي الـ ٦٠٠ إلى ٧٠٠ قدم.

وتمتد هذه الجبال من الشمال إلى الجنوب وتمتد من هذه الجبال نفسها أودية متوازية يأتي أحدها بعد الآخر، وهذه الأودية بدورها تتحدر في الاتجاه الشرقي، وأهم هذه الأودية وادي حنيفة، ووادي السهباء اللذين مر الحديث عنهما، ومجموعة أودية الأفلاج ووادي الدواسر ووادي نجران.

وقد جاء في تأليف المستر فيلبي عن رحلته للربع الخالي ذكر هذه الأودية التي يظن أنها كانت مجارٍ لأنهار قديمة في بلاد نجد فاستطرد قائلاً: وإن صح هذا فإن الفيافي الجافة المقفرة الآن كانت حوالي سنة ٥٠٠٠ ق.م مراعٍ خصبة ترتادها مواشي الإنسان الأول الذي لاشك أنه كان يعيش على صيد الغزلان والأيائل والنعام وقام بوضع أساس صناعة تربية الجمال وإنتاجها.

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مياه نجد التي تتحدر من المرتفعات المارة الذكر تؤلف مجرى أرضياً نتيجة امتصاص أديم الأرض لمياه الأمطار والسيول ويمتد هذا المجرى إلى الجهات الشرقية فيصل الإحساء[١٧٤] حيث يكون الينابيع الأرتوازية الشهيرة في هذا القطر، ومن العجائب أن هذه المياه الأرضية تجتاز الدهناء والنفود، ثم تعبر البحر ما بين ساحل الأحساء وساحل البحرين أي تحت قعر البحر فتظهر في البحرين بشكل آبار

---

[١٧٤] الصواب (الأحساء) بفتح الهمزة، ويجوز أن يقال (الحسا) أيضاً (الدخيل).

أرتوازية ومما يستلفت النظر أن بعض العيون تنبثق من قعر البحر فينبع منها ماء عذب تحت المياه المالحة، ومنها ماهي قريبة من السواحل تفور من القعر على الدوام يستقي منها مياه الشرب من تحت المياه المالحة.

ويعلم المحليون بأن هذه المياه العذبة تنحدر من مرتفعات البلاد النجدية بدليل ما يظهر في بعض الأحيان من أثر روث الإبل وبعر الأغنام في المياه التي تنبثق من الينابيع المذكورة غير مستبعد جيولوجياً، فإذا وجدت مياه الأمطار والسيول أرضاً رخوة حصوية أو كلسية فقد تمتص الأرض مع المياه بعض آثار الرواسب السطحية، وليس ببعيد أن تجد هذه المياه الأرضية مجرى خفياً في تجاويف بعض الأراضي المكونة من كربونات الكلس فتحمل معها بعض هذه الرواسب.

وقد قال المستر هوغارث بهذا الصدد: لاشك أن قسماً من هذه المياه (أي مياه العارض واليمامة) ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال فتجري خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسقي واحات الحسا والقطيف، وتتكون منها الينابيع العذبة في مياه البحرين[١٧٥].

عيون الخرج الحالية: قلنا: إن منطقة الخرج غنية في عيونها ومياهها نظراً لكونها منطقة ملتقى الأودية وعليه فإن عدد آبارها الحالية ليس بقليل رغم ما طمر من الآبار الكثيرة التي لاتزال آثارها وآثار أنهارها ظاهرة في الوقت الحاضر، وأما عمق الآبار في منطقة الخرج فيتراوح بين الخمسة والثمانية أمتار حسب اختلاف الموقع والتربة.

ولحسن الحظ فإن منطقة الخرج فيها من العيون ما جعل طمرها أمراً متعذراً وكل ما استطاعت يد الإنسان عمله مع مرور الزمن هو ردم العمران الذي كان قد ازدهر بوجود مياه هذه العيون فقط.

---

(١٧٥) في كتابه "التوغل في البلاد العربية" ص ٣٤٢.

وإن هذه العيون لهي من العجائب، فهي أشبه ببحيرات صغيرة من أن تكون عيوناً نظراً لمساحتها المائية وغورها الهائل، ويوجد في منطقة الخرج أربع من هذه البحيرات: ثلاث منها تقع شرق شعيب العجيمي[١٧٦] في جنوب اليمامة، والرابعة تقع شرق شعيب العجيمي في جنوب الدلم.

أما الثلاث عيون [١٧٧] الأولى: وهي مدار الاعتماد في الوقت الحاضر لإحداث مشروع ري عليها فتسمى محلياً كما يلي:

أ) عين الضلع أو عين العبيد.

ب) عين سمحة.

ج) عين أم خيسة.

تقع عين الضلع جنوب اليمامة وشمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجيمي على قدم سفح التلول التي تمتد بمحاذاة شعيب العجيمي في الجهة الشرقية منه، وقد سميت بعين الضلع بالنظر لوقوعها على كتف التل، ويطلق عليها اسم عين العبيد لسبب استغلالها فيما مضى من قبل العبيد.

وتقع عين سمحة شمال عين الضلع بانحراف قليل نحو الغرب على مسافة ٢٤٠متراً من عين الضلع، وقد سميت هذه العين بعين سمحة لسبب سهولة سحب المياه منها بواسطة السيح حسب أقوال المحليين، وليس ثمة ما يشجع على نقض هذه الأقوال، لأن آثار الأنهر القديمة تدل على أن صدور نهر السيح الكبيرة كانت على هذه العين كما سيأتي البحث عن ذلك فيما بعد.

---

(١٧٦) الصواب : (شعيب العقيبي) (الجاسر).

(١٧٧) الصواب: (الثلاث العيون الأولى) (الدخيل).

وأما عين أم خيسة فتقع في جنوب غرب عين الضلع بمسافة ١٢٢٠ متراً من عين الضلع و ١٥٦٠متراً من عين سمحة، وقد سميت بهذه التسمية لسبب تمييزها عن أخواتها فيما مضى بوجود نخلة على ضفافها والخيسة في نجد اصطلاح محلي لصغير النخل.

عليه فإن موقع هذه العيون الثلاث يشكل شبه مثلث قاعدته عينا أم ضلع وسمحة بمسافة ٢٤٠متراً كما جاء أعلاه، وضلعا المثلث يكونان الزاوية التي تقع عليها عين أم خيسة وطول الضلعين للمثلث المذكور هي[١٧٨] ١٣٢٠ و ١٤٦٠متراً.

وأما المساحة المائية لهذه العيون الثلاث فهي متساوية تقريباً، وتقدر مساحة سطح الماء في كل منها بحوالي الـ ٤٠٠٠ متر مربع وذلك باعتبار معدل ٨٠متراً طولا و ٥٠ متراً عرضاً تقريباً، وعليه فهي بيضوية الشكل، وأغرب ما بهذه العيون أغوارها، فأعماق الماء فيها متساوية تقريباً، وتبلغ حوالي الـ ٣٦ قدماً، وإن هذا العمق متساوٍ تقريباً سواء كان على قرب الضفاف أو في وسط العين.

عوامل تكون هذه العيون: ومما لاشك فيه أن هذه العيون هي قديمة العهد تكوّنت نتيجة عوامل جيولوجية عديدة ومختلفة، إن المعروف فناً بأن أهم العوامل الجيولوجية التي تحدث تغييرات أرضية هامة هي أولا خواص التربة التي تعمل فيها العوامل الجيولوجية، فمثلا وقوع هذه العيون وسط طبقات كلسية ملحية يشجع على إحداث تفاعل كيمائي ينتج انحلالاً وذوبانا في التربة مما قد يسبب حصول انشقاق أو انخساف أرضي، وبالأصح انزلاق في كتل الطبقات الأرضية أو زلات صخرية كما يسمى جيولوجياً.

وهناك عوامل جيولوجية أخرى تؤثر في الأراضي التي من هذا النوع كالزلازل أو الهزات الأرضية أو مفعولات البراكين.

هذا وتوجد الآن آثار براكين ومواضع كثيرة تدل على بقايا الاندفاعات والسوائل النارية في الأزمنة القديمة، وإن هذه المقذوفات البركانية تركت الحجارة السوداء المؤلفة من

---

(١٧٨) الأصوب (هو)، لأن الضمير يعود على لفظة (طول) وهو مذكر.

السائل البركاني المتجمد، والتي نشاهدها في كثير من المواقع في المملكة العربية السعودية.

والدارج محلياً بأن هذه العيون حدثت بنتيجة مهوى النجوم.

وفضلاً عن ذلك فإن مناخ نجد الذي نجد فيه الاختلافات العظيمة بين درجتي الحرارة العظمى والدنيا قد يساعد على إحداث انفلاق في الصخور وقد روى السياح والمنقبون عن كثير من مثل هذه الحوادث العجيبة سواء كان في البلاد الباردة أو الحارة وذلك بسبب حدوث الامتداد والتقلص في طبقات الصخور؛ لأن تأثير شدة الحر على الصخور يحدث امتداداً وتوسعاً فيها، ثم البرد يسبب تقلصها وتضييقها.

وعليه كثيراً ما ينتج الاختلاف في درجة الحرارة انفلاقات وانشقاقات داخلية تترك الهوات والفجوات. هذا وقد شاهدنا في خلال مدة مكوثنا في الخرج بأن الفرق بين درجة الحرارة العظمى والدنيا هناك في شهر حزيران ١٩٣٩م ما يقارب الـ ٣٠ درجة سنتغراد خلال الأربع والعشرين ساعة.

وهذه الظواهر والعوامل المهدمة التي تحدث هذه الانشقاقات الهائلة في جوف الأراضي هي في الحقيقة مشتبكة مع بعضها، ويتعذر فصلها أو اعتبار تأثير الواحد منها بصورة مستقلة وعليه فلا يستطيع المرء أن ينسب سبب حدوث التأثير إلى أحد هذه العوامل الجيولوجية وحده، وإنما يصح القول: بأنها قد قامت بمفعولها بصورة مشتركة خلال العصور الماضية لإحداث هذه المزالق الأرضية والانشقاقات الداخلية الهائلة التي أوجدت هذه العيون الطبيعية التاريخية.

وخير مثال لتأثير هذه العوامل الجيولوجية في طبقات الصخور الكلسية هو ما نجده من الانفلاقات ا لأرضية الداخلية في مواقع كثيرة من نجد حيث نشاهد انخسافات في طبقات الأرض لأعماق كثيرة، ثم يمتد التجويف من قعر الفوهة لمسافة بضعة أمتار تحت طبقات الأرض فيكون شبه نفق تتجمع في منتهاه مياه الأمطار أو الينابيع، فيزحف المرء على طول هذا النفق للوصول إلى منبع الماء في منتهاه وإملاء أجواء الماء منه لمثل هذا

التجويف في وسط الصحراء إذ يقع هذا الكهف على مسافة ٢٠٠ كيلو متر من الكويت ويسمى الدحل ومعناه في العربية النقب الضيق في أعلاه والواسع في الأسفل.[(١٧٩)]

مستوى مياه هذه العيون وتأثيره في إنشاء مشاريع الري

ولما كان المطلوب كأول[(١٨٠)] عمل فني يقام في منطقة الخرج استثمار مياه هذه العيون الثلاث وإنشاء مشروع ري منتظم سواء كان سيحا ، أو بواسطة الضخ يستوجب قبل كل شيء معرفة كميات مياه العيون المذكورة ومدى قابلية انبثاقها في مختلف المواسم إذا ما سحب منها الماء بكميات وفيرة فقد أجري التحري قبل كل شيء عن مستوى مياه العيون المذكورة بالنسبة لبعضها للتأكد من درجة ارتباطها مع بعضها فيما يخر مجرى الماء الأرضي.

ولتحقيق هذا الغرض أنشئ راقم تسوية ثابت بالقرب من ضفة عين الضلع؛ ليكون هذا الراقم أساساً لأعمال التسوية بصورة عامة ، والمرجع لكافة أعمال المساحة في المستقبل.

وقد دلت نتائج التسوية لمستوى مياه العيون الثلاث بالنسبة لقيمة الراقم المنوه به أعلاه ما يلي:

سنتمتر متر	
٩١,١٧٠	مستوى ماء عين أم خيسة مأخوذ بتاريخ ٤ حزيران ١٩٣٩م.
٩١,٥٢	مستوى ماء عين الضلع مأخوذ بتاريخ ٤ حزيران ١٩٣٩م.
٩٠,٧٣	مستوى ماء عين سمحة مأخوذ بتاريخ ٤ حزيران ١٩٣٩م.

---

(١٧٩) الأفضل أن يقول (في أسفله) ليشاكل قوله في أعلاه) (الدخيل).

(١٨٠) استعمال الكاف في مثل هذا الموضع خطأ لا تقره العربية ، شاع على ألسنة المعاصرين تأثراً بالترجمة.

ويستدل من ذلك أن عين أم خيسة الواقعة في جنوب غربي عين الضلع يرتفع ماؤها عن عين الضلع بـ ١١٨٪ .. متراً ومستوى ماء عين الضلع يعلو عن سطح الماء في عين سمحة الواقعة شمال عين الضلع بـ٧٩٪ متراً، وعليه فمجموع الفرق بين مستوى ماء عين أم خيسة وعين سمحة هو ١٧٪.. متراً وذلك مما يدل على أن مجرى الماء الأرضي الداخلي هو باتجاه مجرى شعيب العجيمي الواقع غرب العيون الثلاث كما سبق ذكره.

أما حول ثبات أو تغير مياه هذه العيون الثلاث، فالمعلومات المحلية متناقضة وعليه فلا يعول عليها. إن أ كثرية المحليين يرون أن مستواها الحالي حسب المناسيب المبينة أعلاه لم يتغير قطعياً غير أن الدلائل على ظهر الصخور التي تحد أطراف الماء ترينا خلاف ذلك، إذ توجد آثار تغير بسيط في مستوى الماء، وعليه إني أميل إلى الاعتقاد بأن سحب المياه بكميات وافرة من هذه العيون لمشاريع ري كبيرة سوف يحدث هبوطاً في مستوى الماء، وربما تأثيراً على مناسيب ماء العيون الثلاث بأجمعها إذا ما سحب الماء من إحداها لأن ثمة دلائل على اتصال مياه العيون الثلاث بواسطة مجاري المياه الأرضية، على أن درجة هذا الهبوط ليس في الإمكان تقديره بصورة مضبوطةإلا بعد سحب المياه بكميات وافرة وإنشاء مقاييس على العيون الثلاث لتسجيل حركة مياه العيون الثلاث بالنسبة لكميات المياه المسحوبة وفي مختلف المواسم للسنة.

والدليل الواضح لتوقع انخفاض عام في مستوى المياه بعد سحب المياه بكميات وافرة من إحدى العيون هو ما نشاهده من الآثار في طريقة إنشاء مشاريع الري القديمة، إذ كان الأقدمون قد حصروا مشاريعهم الكبيرة على العين الشمالية، وهي عين سمحة فصدور الأنهر القديمة السيحية وغير السيحية.

المقترح أن يكون مجموع قوة الضخ حوالي الـ ١٠٠ حصان في الوقت الحاضر، والمرجح أن تستعمل مضختان قوة الواحدة ٥٠ حصاناً، وذلك لتسهيل نقلها إلى الموقع ونصبها فيه.

وإذا اعتبرنا مجموع العمق سبعة أمتار كما جاء أعلاه، فالمساحة الممكن إرداؤها من المزروعات الشتوية بواسطة هذه القوة تقدر بحوالي الـ ٢٥٠٠ مشارة[١٨١]، وهذه المساحة مع مساحة مقابلة للغير الثاني متوفرة في هذا السهل الوا سع الذي يمتد شمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجيمي.

(١٨١) المشارة مصطلح عند المزارعين يراد به الساقية، أو الجدول الذي يفجر في المزرعة، أو البقعة من الأرض التي تزرع، اللسان (دبر، كرد ،مشر) والألفاظ الفارسية المدية (الكرد): ١٣٣.

حوادث وأرقام في تاريخ جلالة الملك عبدالعزيز

لم نستطع أن نفرد بحثاً خاصاً في فصول هذا الكتاب، للتحدث عن شخصية حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود من الناحية التاريخية، سوى ما استطعنا أن نورده من المعلومات التي تمت بصلة إلى موضوع هذه الرحلة. ذلك بأن جلالة الملك عبدالعزيز هو العربي الأول وأن سيرة جلالته[١٨٢] بما فيها من ماضٍ حفيل، وما في ماضيها من تاريخ مفعم بالمجادة والبطولة، لا يمكن أن يتسع له نطاق كتاب كهذا محدود الصفحات، تحدّ دفتيه غلافة مهما انفرجت سطورها فلا يمكن أن تلم بطرف من موضوعه، فكيف بفصول أقل حدوداً وأضيق نطاقاً؟!. وذلك موضوع صال فيه الكرام الكاتبون، وجالت فيه أسنة أقلام لم تجمع فيما عرف من قبل، إجماعها على ماهي بسبيله من سيرة ذلك الملك العظيم، ولقد كان من حسن حظ هذا الكتاب ويمن طالعه، أن شهد طبعه، واشترك في مراجعة بعض مواضيعه مواطن كريم هو سعادة الشيخ عبدالعزيز فوزان أحد رجال حاشية صاحب الجلالة. وقد أبت نزعته إلى الكمال إلا أن يضع لبنة نفيسة في صحر هذا المؤلف، فتحدث إلينا عن شخصية صاحب الجلالة بالمعلومات الآتية، وقال:

"مولاي صاحب الجلالة الملك الذي أسس ملكه على قواعد التوحيد والتقوى راسخة البنيان، وطيدة الأركان، أصلها ثابت وفرعها في السماء، ليس في حاجة إلى إشادة ولا تنويه بما أتاه الله من بسطة في العلم والعقل، وبما وفقه إليه من حسن تصريف الأمور، ولقد نهض جلالته بأعباء هذا الملك العتيد يافعاً وصبياً حتى صار إلى ماصار إليه من علو المكانة، ورفعة الشأن، وما أنا في حاجة إلى التدليل على ما أقول بالأرقام والتواريخ، فهو غني بمجده الغابر، وتاريخه، الحاضر، ومستقبله الباهر، عن كل قول وتأكيد، وكل

---

(١٨٢) من أبلغ ما وصف به العرب قول لسان الدين الخطيب:

"العرب لم تفتخر قط بذهب يجمع، ولا ذخر يرفع، ولا قصر يبنى، ولا غرس يجنى، إنما فخرها بعدو يغلب، وثناء يجلب، وإبل تنحر، وحديث يذكر، وجود على الفاقة، وسماحة بسحب الطاقة.

" فلقد ذهب الذهب، وفني النسب، وتمزقت الأثواب، وهلكت الخيل العراب، وكل الذي فوق التراب تراب، وبقيت المحاسن تروى وتنقل، والأعراض تجلى وتصقل".

مدح وتمجيد، لأن الأقوال غير الأفعال، ولكنني أذكر ملخص سيرة جلالته وأرقاماً، عساها أن تكون عبرة وأن تكون سيرة وقدوة!

تاريخ في أرقام:

"ولد جلالة الملك حفظه الله وأطال حياته الغالية بالرياض في شهر ذي الحجة عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠م، واضطلع باسترداد ملك آبائه وتأسيس ملكه في صراع عنيف وحروب متكررة حتى ظفر بتوطيد ذلك الأساس باستيلاء جلالته على الرياض نهائياً في عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢م، وظل جلالته في حروب متكررة مساجلات حربية لاستخلاص القصيم وجنوب نجد من عام ١٣٢١هـ حتى تم له فتح عنيزة في محرم عام ١٣٢٨هـ[١٨٣]. حيث فتح بريدة عاصمة تلك المقاطعة في ١٥ ربيع أول عام ١٣٢٨هـ[١٨٤] وبذلك أصبح القصيم كله تابعاً لجلالته. وفي عام ١٩١٣هـ استولى جلالته على الأحساء وأنشأ منطقة الهجر التي هجر إليها سكان البادية، فاستقر قرارهم بعد طول رحلة تنقل وعناء. وفي ٢٩ صفر ١٣٤٠هـ - ٢ نوفمبر ١٩٢١م تم لجلالته الاستيلاء على حائل، وفي هذا العام نفسه - ١٩٢١م تعرض به ابن عايض باحتلال بيشة فأرسل إليه الأمير ابن مساعد فاستولت قواته على عسير، وفي شوال سنة ١٣٤٧هـ - يونيو ١٩٢٢ سافر الأمير فيصل إلى عسير ففتحها[١٨٥] وفي ٦ صفر سنة ١٣٤٣هـ استولت قوات جلالته بقيادة خالد بن لؤي على مدينة الطايف مفتاح مدن الحجاز، ثم نودي بجلالته ملكاً على الحجاز في ٢٢ جمادى الثانية[١٨٦] ١٣٤٤هـ - ٨ يناير ١٩٢٦م . وفي ٢٤ ربيع عام ١٣٤٥هـ - ٢١ أكتوبر ١٩٢٦م لجأ الأدارسة إلى حماية جلالته على تهامة عسير.

---

(١٨٣) الصواب في محرم عام ١٣٢٢هـ: انظر تذكرة أولى النهى والعرفان: ١٨/٢، وآل سعود ، لاحمد علي: ١١٠ (الدخيل).

(١٨٤) الصواب عام ١٣٢٢هـ بعد فتح عنيزة بشهرين . انظر المصدرين السابقين وفي تاريخ ملوك أل سعود للأمير سعود بن هذلول : إن فتح عنيزة ثم بريدة تم عام ١٣٢١هـ.

(١٨٥) اتجاه فيصل رحمه الله- إلى عسير كان في شوال ١٣٤٠هـ (يونيو ١٩٢٢م) (الجاسر).

(١٨٦) الصواب (جمادى الآخرة) (الدخيل).

"وكان جلالته يلقب بالإمام -أي إمام المسلمين- وهذا لقب يحمله آباؤه وأجداده ثم طلب إليه أهل نجد أن يلقبوه سلطاناً على نجد، وفي ٢٥ رجب ١٣٤٥هـ ١٩ يناير ١٩٢٧م بعد استيلائه على الحجاز نودي بجلالته ملكاً على نجد أيضاً وفي ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ - ٢٢ سبتمبر ١٩٢٧م طلب الشعب النجدي والحجازي أن تجعل المملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية لكي لا يكون فارق بين الحجاز ونجد وتكون أمة واحدة، فصدر مرسوم ملكي بتأسيس المملكة العربية السعودية الحالية.

من نعم الأمن والاستقرار:

"ولقد كانت هذه البلاد فيما سبق مسرحاً للحوادث الأليمة المعروفة التي كانت منها عدم استقرار الأمن والنهب والسلب حتى قيض الله لها هذه الشخصية البارزة العظيمة التي ألهمها سداد الرأي وحسن التصرف حيث ساد الأمن في البلاد، وانقطع دابر الفوضى وأصبحت مثالاً للعالم أجمع حتى أصبح الأوربيون يتحدثون بما يشاهدونه فيها من الأمن والطمأنينة، ويتناقلون أخبار هذا الأمن بدهشة وإعجاب. الشيء الذي ماكان يمكن تصوره عن أية دولة قوية وفي أي أمة أخرى. ويكفي ما يراه القارئ من الحوادث في الصحف السيارة حتى يعرف الفارق بين الحياة التي يعيشها أهل هذه البلاد وبين الحياة في سائر أنحاء الدنيا رغم أن جلالته لا يزيد في معاملته للمجرمين عما يحكم به الشرع الشريف فهو منفذ لسنة الله ورسوله وقائم بحدود الله، ليس له غاية خاصة ولا يحمل حقداً على أي مخلوق، فهو راع مسؤول عن رعيته، ولكنه في نفس الوقت لا يفضل نفسه عليهم بشيء "رحم الله قوماً يوقرون كبيرهم ويرحمون صغيرهم" فهو يوقر الكبير، ويرحم الصغير.

رعاية مصالح العرب والمسلمين:

"وجلالته يسهر على مصالح رعيته آناء الليل وأطراف النهار، ولقد شهدته شخصياً يستوقفه بعض العامة من الرجال والنساء ويشكون له حالتهم ومعيشتهم، منهم من يقول: ليس عندي ما يقوت أولادي هذه الليلة، فيمده بالمال في الحال بما يسد حاجته أياماً معدودة، ثم يوعز إلى أحد المكلفين أن يتحقق عما قاله هذا، فإذا كان ما قاله صحيحاً

ويستحق العطف لعجز أو مرض أجرى عليه من بيت مال المسلمين- الذي هو ناظر عليه - طول حياته وإذا كان له أطفال صغار قام بتربيتهم وتعليمهم. وتراه يتألم أشد التألم حين يتأكد ذلك وهذا نتيجة عقيدته الصالحة، لأنه يرى نفسه مسؤولا عنهم، ولا يلذ له عيش إذا عرف أن أحداً من المسلمين بات جائعاً أو عارياً وإن كان من غير رعاياه. وهو لا يفضل أحداً على أحد من المسلمين لأنه يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

"أما اهتمام جلالته بشؤون المسلمين فهي واضحة للعيان، ومواقفه فيها معروفة لدى الخاص والعام إنني أعرف منها الشيء الكثير ولولا معرفتي عزوف جلالته عن الدعاية والإعلان لأوردت منها ما يهزالنفوس ويبهج القلوب تقديراً لصنائعه الخالدة وأياديه البيضاء في خدمة الأمم الإسلامية والعربية.

قوة الذاكرة وصفاء القريحة:

" ولجلالة الملك ذاكرة عجيبة ذات مقدرة كبرى في استيعاب الحوادث وتسجيلها، بحيث تظل منقوشة في طياتها، خالدة في تضاعيفها فإذا ما عرضت مناسبة من المناسبات لحديث يتصل بالماضي ويحتاج إلى استشهاد، أفاض جلالته في الحديث كأنما يقرأ من كتاب أو كأنه يتدفق من نهر، وحدث مرة أن كان بسياراته ماراً فاستوقفه رجل كهل يطلب منه المعونة، فقال له جلالته: "هل أنت فلان؟!" قال: نعم! قال هل تتذكر يوماً أتيتك فيه بدارك؟! قال نعم. ذلك قبل خمس وثلاثين سنة. عندما أتيتنا ممتطياً صهوة جوادك عند الغروب، فالتفت إلينا وقال: صحيح ما قال، ونفحه جلالته بشيء من المال، وأمره أن يقابل رئيس ديوانه فيخبره بحاجته وهو من قرية تسمى "البصر" من مقاطعة القصيم. أما معرفة جلالته لهذا الرجل ودخوله لداره فهذه حدثت عندما كان جلالته يحارب خصمه ابن الرشيد، وكان يخوض المعارك بنفسه على جواده وصادف أنه استمرت المعركة بينهما ليل نهار أياماً متوالية بجوار هذه القرية، وكان جلالته قد قام بجولة خاصة ممتطياً جواده دون أن يعرفه أحد ليستطلع مدى قوات خصمه، ومر بهذه القرية ودخلها يسمع إلى رأي أهليها، وكان من بينهم هذا الشخص فدعاه إلى بيته، وهو لا يعرفه أنه الملك،

ولكنه يعتقد أنه من أحد رجاله، تلك هي مناسبة دخوله منزل ذلك الرجل! التي لم تغب عن ذاكرة جلالته".

الشعر في بادية نجد

لا يفوتنا في ختام هذا الكتاب أن نتكلم عن بحث له صلة أدبية بموضوع هذه الرحلة. فقد حرصنا فيما تقدم من الفصول أن نقيد كل ما يمكن أن يسوقنا إليه الاستطراد أو السياق بما له صلة، قريبة أو بعيدة بموضوعنا . والذي نريد أن نشير إليه الآن هو الشعر في نجد، إذ لايمكن أن نغفل هذا الجانب الأدبي دون الإشارة إليه بما يقتضيه المقام وما يتسع له النطاق.

أما الشعر في نجد فله نصيبه الموفور على ألسنة قائليه من الشعراء في المدن والحواضر كما هو الحال في أمثالها من مدن البلاد العربية، وهو شعر عربي فصيح كثيراً ما تنشره صحف المملكة العربية السعودية وصحف غيرها من البلاد الأخرى، وليس هذا موضوع بحثنا، وإنما أردنا الكلام عن الشعر في بادية نجد. ذلك بأن الشعر العربي الفصيح أشوق ما تكون الأسماع متلهفة عليه حين يصدر من رجل البادية الذي لم تتأثر عربيته بعجمة، ولم يتطرق إلى فصاحته لكنة. ولكن أهو كذلك في بادية نجد؟! الواقع أن الشعر العربي في بادية نجد هو كغيره في مختلف البوادي من ناحية تشابه الأسلوب وتقارب اللهجات، ومن ناحية عزوفه عن الفصاحة التي عرف بها في بادية غابر الزمان، وفي حواضر الأجيال، فالشعراء في البوادي ينطقون الشعر بلهجاتهم الخاصة التي هي وإن لم تتطرق إليها عجمة الأعاجم، فقد غمرها تحريف في الألفاظ كاد يخرج بها عن محيط الشعر، وليس ذلك وحده بل ساعده عدوان آخر هو التحرر من قيود الشعر وأوزانه ودقة قوافيه، إلى جانب القيود العلمية الأخرى المتصلة بفنون الشعر من نحو وعروض، وصرف وبيان وغير ذلك.

ومع ذلك فالشعراء في بادية نجد وغيرها من البوادي يرتجلون الشعر ارتجاله على الأسلوب الآنف الذكر فيجيء حفيلاً بالمعاني المستساغة، مليئاً بالأفكار والآراء، وإن كان محرراً من كل قيود الشعر، على أن هناك طائفة من أهل البوادي ارتادوا الحضر في

مناسبات مختلفة من تجارة أو غيرها ، ممن يحملون نفوساً شاعرة، فتعدلت لهجاتهم فكان لذلك أثره في منطوقهم، وجاء منظومهم خالياً من التعقيد بعض الشيء وقد أشار إلى ذلك سعادة الأستاذ فؤاد بك حمزة في كتابه "قلب جزيرة العرب"، وأفرد له بحثاً طريفاً أورد فيه نماذج من شعر البوادي من صفحة ٩٩ إلى صفحة ١٠٥ فليراجعه من شاء المزيد من البحث، وليست قصة علي بن الجهم ببعيدة عن أذهان الأدباء وقد عرفوا منها كيف دخل من البادية إلى بغداد بدوي[١٨٧] جاف يقول لأميرها في غير تعثر ولا تلعثم:

أنت كالكلب في حفاظك للودِّ   وكالتيسِ في قراعِ الخطوبِ[١٨٨]

حتى هم أن يبطش به رجال الأمير، لولا أنه استمهلهم عليه صبراً حتى اجتاحته رقة الحضر، فعاد يقول :

عيون المها بين الرُّصَافةِ والجِسْرِ   جَلَبْن الهوى من حيث أدري ولاأدري[١٨٩]

ومن الأمثلة اللطيفة التي نحب أن نوردها ختاماً لهذا البحث أبيات رقيقة من الشعر قالها نجدي من صميم البادية، ولكن ليس من أمثال الذين عناهم الأستاذ فؤاد بك حمزة في صفحاته المشار إليها، بل هو ممن عنيتهم في سياق العبارة المتقدمة عن شعراء البادية المتحضرين هو الشيخ عبدالعزيز بن فوزان قال:

سِرْ حَبِيبَ القَلْبِ سَبِّقْهَا الرياحْ   بالسلامَهْ

واطو وسْطَ الليلِ هاتيك البطاحْ   والركامَهْ

واترعِ الأقداحَ من نَخْبِ المِلاَحْ   بالغمامَهْ

ياعروسَ الروضِ نادتك تِهَامَهْ

---

(١٨٧) الصواب (بدوياً جافياً) بالنصب على الحال، لأن الضمير في دخل يعود على علي بن الجهم (الدخيل).

(١٨٨) ديوان علي بن الجهم (تحقيق : خليل ردم) ص ١١٧ (الدخيل).

(١٨٩) ديوانه : ١٤١ (الدخيل).

عَبِقَ الـدَّرْبُ أريجٌ[١٩٠] مـن شـذاكِ للريـاضِ
واعـترت مُضْنَـاك سـراءُ لقـاكي بالـتراضي

وانـبرى طيفُـكِ بـالدعجِ يحـاكي ويقـاضي
وتصابَيْنَـا ، فكـم قبلَـتِ فـاكي والأراضـي
تحتنا تُطْوَى ولم نخش الفطامَةَ

ذات دَلٍّ مـارأت عينـاي أروعْ فـي الجمـالِ
وجنتاهـا الـورد والثغـر ترصـعْ بـاللآلي
ريقـها العسـجدُ، وَيْحِـي كيـف يَسْـطَعْ وهـو حـالي
نَفَـسٌ فـي صدرهـا مامنـه مشـبعْ فـي الوصـالِ
حُبُّها حُلْوٌ ولو فيه الندامَهْ

يـارَعَى اللّهُ ليـالٍ طيبـاتٍ فـي ركـابكْ
صفّعـت قلبـى بـأحلا الذكريـاتِ مـن صفـائكْ
لا أراك اللّه صَـرْفَ العاديـاتِ وسمـا بـكْ
فـوق أعـلا الدرجـاتِ وبـداركْ
ضَـرَبَ التوفـيقُ والسَّـعْدُ خيامَـهْ



---

(١٩٠) الصواب (أريجًا) بالنصب على التمييز (الدخيل).

الفهارس



فهرس الأعلام

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

ن

هـ

ي

فهرس الأماكن

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

ن

و

هـ

ي



المحتويات

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧